قلائد النور

تأملات في تفسير ابن كثير

تضمن الكتاب أقوالاً للجد معالي الشيخ

حسن بن عبدالله آل الشيخ وزير التعليم سابقًا

(وجملة من أقوال السلف مع حكم وأبيات وفرائد)

سعود بن خالد بن سعود الكبير آل سعود

العبيكان

© سعود بن خالد بن سعود الكبير آل سعود، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

آل سعود، سعود بن خالد بن سعود الكبير

قلائد النور./ سعود بن خالد بن سعود الكبير آل سعود.-ط١. الرياض، ١٤٤٣هـ.

٣٢٠ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم.

ردمك: ٠ - ١٣٦٩ - ٠٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- الوعظ والإرشاد أ. العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٤٣/٩٦٥٧

حقوق الطباعة محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ / ٢٠٢٢م

نشر وتوزيع العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية-الرياض-طريق الملك فهد-مقابل برج المملكة

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ ١١ ٩٦٦+، فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ١١ ٩٦٦+

ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

تواصل معنا CONTACT US

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من للمؤلف.

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات الكتاب

- **المقدمة** ١١
- **القلادة الأولى** ١٣
  - **الوقفة الأولى**: الدعوة إلى التوحيد ١٣
  - **الوقفة الثانية**: اليقين سر العبادة، ومفتاح السعادة. ١٩
- **القلادة الثانية** ٢٣
  - **الوقفة الأولى**: لزوم الاجتماع وخطر الافتراق ٢٣
  - **الوقفة الثانية**: هَوان الدنيا. ٢٦
- **القلادة الثالثة** ٢٩
  - **الوقفة الأولى**: الصفا والمروة وأمنا هاجر ٢٩
  - **الوقفة الثانية**: صبر النبي ﷺ واقتداء الصحابة. ٣١
  - **الوقفة الثالثة**: اختلف اليهود والنصارى، فهدى الله أمة محمد ﷺ إلى الحق. ٣٣
- **القلادة الرابعة** ٣٧
  - **الوقفة الأولى**: سبحانك ربي ما أكرمك ٣٧
  - **الوقفة الثانية**: سمعًا لربي وطاعة ٤٠
  - **الوقفة الثالثة**: من قرأهما في ليلة كفتاه ٤٣
- **القلادة الخامسة** ٤٧
  - **الوقفة الأولى**: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٤٧
  - **الوقفة الثانية**: فهلا جلس في بيت أبيه وأمه ٥٠
  - **الوقفة الثالثة**: فضل الشهادة ٥٢

القلادة السادسة ٥٧

الوقفة الأولى: تحكيم الكتاب والسنة ٥٧

الوقفة الثانية: الإشاعات ونقلها دون تحقق ٦٠

الوقفة الثالثة: الارتباط الوثيق بين الإيمان والعلم والعمل ٦٣

القلادة السابعة ٦٧

الوقفة الأولى: أمر الله بالوفاء والعدل ٦٧

الوقفة الثانية: دعاء يفتح أبواب الجنة ٧٠

الوقفة الثالثة: عِظم شأن الحدود. ٧٢

القلادة الثامنة ٧٥

الوقفة الأولى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾. ٧٥

الوقفة الثانية: الرد على أهل الإلحاد ومنكري البعث ٧٨

الوقفة الثالثة: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾. ٨٠

القلادة التاسعة ٨٣

الوقفة الأولى: نورٌ وضيـــــاء. ٨٣

الوقفة الثانية: فَعَلِمَ وَعَلَّم ٨٥

الوقفة الثالثة: وسوسة الشيطان ٨٨

القلادة العاشرة ٩١

الوقفة الأولى: الظاهر والباطن ٩١

الوقفة الثانية: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ٩٣

الوقفة الثالثة: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ٩٥

القلادة الحادية عشرة ٩٩

الوقفة الأولى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ٩٩

الوقفة الثانية: علم الله جَلَّجَلَالُهُ ١٠٢

الوقفة الثالثة: خيمة من لؤلؤة ١٠٤

۞ **القلادة الثانية عشرة** ١٠٧
الوقفة الأولى: أعظم وظيفة على وجه الأرض ١٠٧
الوقفة الثانية: ﴿إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ ١١٠
الوقفة الثالثة: القرآن مصدر الفرح والسعادة الحقيقية ١١٣

۞ **القلادة الثالثة عشرة** ١١٧
الوقفة الأولى: قضاء الله كله خير ١١٧
الوقفة الثانية: الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة ١٢٠
الوقفة الثالثة: القرآن كمل من كل الوجوه ١٢٢

۞ **القلادة الرابعة عشرة** ١٢٥
الوقفة الأولى: الرجاء والخوف ١٢٥
الوقفة الثانية: موكب الملائكة ١٢٩
الوقفة الثالثة: المثل الناري والمائي ١٣١

۞ **القلادة الخامسة عشرة** ١٣٥
الوقفة الأولى: الحياة الطيبة ١٣٥
الوقفة الثانية: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ ١٣٧
الوقفة الثالثة: اللبن والعسل ١٤٠

۞ **القلادة السادسة عشرة** ١٤٣
الوقفة الأولى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ ١٤٣
الوقفة الثانية: سيد ولد آدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ١٤٦
الوقفة الثالثة: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ ١٤٩

۞ **القلادة السابعة عشرة** ١٥٣
الوقفة الأولى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ ١٥٣
الوقفة الثانية: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ ١٥٦
الوقفة الثالثة: فأردت، فأردنا، فأراد ربك ١٥٨

القلادة الثامنة عشرة ١٦١
الوقفة الأولى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ١٦١
الوقفة الثانية: كل شيء يسجد لله ١٦٥
الوقفة الثالثة: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ ١٦٦
القلادة التاسعة عشرة ١٦٩
الوقفة الأولى: نور على نور ١٦٩
الوقفة الثانية: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ ١٧٢
الوقفة الثالثة: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ ١٧٥
القلادة العشرون ١٧٩
الوقفة الأولى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ ١٧٩
الوقفة الثانية: ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ ١٨١
الوقفة الثالثة: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ ١٨٣
القلادة الحادية والعشرون ١٨٧
الوقفة الأولى: عباد الرحمن ١٨٧
الوقفة الثانية: شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ وأصحاب الأيكة ١٩٠
الوقفة الثالثة: للمؤمن سعادة الدنيا والآخرة ١٩٣
القلادة الثانية والعشرون ١٩٥
الوقفة الأولى: آيات الله عَزَّوَجَلَّ ١٩٥
الوقفة الثانية: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ ١٩٨
القلادة الثالثة والعشرون ٢٠٣
الوقفة الأولى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ ٢٠٣
الوقفة الثانية: (اللسان والقلب) ٢٠٦
القلادة الرابعة والعشرون ٢١١
الوقفة الأولى: (اختلاف الألوان آية) ٢١١
الوقفة الثانية: ﴿فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ ٢١٣

۞ **القلادة الخامسة والعشرون** ٢١٧

الوقفة الأولى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ ٢١٧

الوقفة الثانية: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ ٢٢٠

۞ **القلادة السادسة والعشرون** ٢٢٥

الوقفة الأولى: (قلب أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ)..... ٢٢٥

الوقفة الثانية: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ ٢٢٨

۞ **القلادة السابعة والعشرون** ٢٣١

الوقفة الأولى: (حياة القلوب)..... ٢٣١

الوقفة الثانية: (يلعب به صبيان أهل المدينة) ٢٣٤

۞ **القلادة الثامنة والعشرون**..... ٢٣٩

الوقفة الأولى: (فتبارك وتعالى الله الملك الحق) ٢٣٩

الوقفة الثانية: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ ٢٤٠

۞ **القلادة التاسعة والعشرون** ٢٤٣

الوقفة الأولى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾..... ٢٤٣

الوقفة الثانية: (أحب أهل الأرض إلى الله)..... ٢٤٥

۞ **القلادة الثلاثون** ٢٤٩

الوقفة الأولى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ ٢٤٩

الوقفة الثانية: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ٢٥١

۞ **القلادة الحادية والثلاثون** ٢٥٥

الوقفة الأولى: (حرث الدنيا وحرث الآخرة) ٢٥٥

الوقفة الثانية: (الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة)..... ٢٥٧

۞ **القلادة الثانية والثلاثون**..... ٢٦١

الوقفة الأولى: آداب قرآنية ٢٦١

الوقفة الثانية: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ ٢٦٤

- **القلادة الثالثة والثلاثون** ٢٦٧
  - **الوقفة الأولى:** (الأدب مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). ٢٦٧
  - **الوقفة الثانية:** (أرجو وأخاف). ٢٧٠
- **القلادة الرابعة والثلاثون** ٢٧٣
  - **الوقفة الأولى:** ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ٢٧٣
  - **الوقفة الثانية:** ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ ٢٧٥
- **القلادة الخامسة والثلاثون** ٢٧٩
  - **الوقفة الأولى:** ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ ٢٧٩
  - **الوقفة الثانية:** ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ٢٨٢
- **القلادة السادسة والثلاثون** ٢٨٥
  - **الوقفة الأولى:** ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾ ٢٨٥
  - **الوقفة الثانية:** (حُب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطاعته) ٢٨٧
- **القلادة السابعة والثلاثون** ٢٩١
  - **الوقفة الأولى:** (التوحيد مفزع أعداء الله وأوليائه) ٢٩١
  - **الوقفة الثانية:** ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ٢٩٣
- **القلادة الثامنة والثلاثون** ٢٩٧
  - **الوقفة الأولى:** ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ ٢٩٧
  - **الوقفة الثانية:** (شرف العلم وفضله) ٣٠١
- **القلادة التاسعة والثلاثون** ٣٠٣
  - **الوقفة الأولى:** (عظمة القرآن) ٣٠٣
  - **الوقفة الثانية:** (تلاوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقرآن) ٣٠٦
- **القلادة الاربعون** ٣٠٩
  - **الوقفة الأولى:** (أهوال يوم القيامة) ٣٠٩
  - **الوقفة الثانية:** ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ ٣١٢
- **القلادة الحادية والأربعون** ٣١٥
  - **الوقفة الأولى:** (التفكر في الإبل والسماء والجبال والأرض) ٣١٥
  - **الوقفة الثانية:** (فضل المعوذتين وقل هو الله أحد) ٣١٧

*****

المقدمة

الحمـدُ لله الـذي أنزلَ عـلى عبدِه الكِتـابَ ولمْ يجعل لـه عِوَجًا، أحمده جـلَّ جلاله، وأسـتعينه، وأسـتغفرُه، وأتـوبُ إليـه، وأؤمنُ بـه وأتوكلُ عليه، وأشـهدُ ألَّا إلـهَ إلا الله وحده لا شريكَ له، شهادةَ عبدِه، وابنِ عبدِه، وابنِ أَمَتِه، ومَن لا غنَى له طَرْفَة عَيْنٍ عن فضلِه ورحمته.

وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، بلّغَ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصحَ الأُمَّة، وجاهَدَ في اللهِ حقَّ جهادِه حتى أتاه اليقين، فصلواتُ ربي وسلامُه عليه، وعلى آله وصحبه، ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين، أمَّا بَعْدُ:

فوقفْنـا في هـذا الكتاب على وقفاتٍ في بعض الآيات، نلتمس هُداها؛ لننشر وَرْدَها وشـذَاها، ثـم لنقتبس من أنوارها -بـإذن الله- ضياءً، يُنير لنا ولوطننـا ولأمّتنا، جنبات الطريق الموصِل إلى الشرفِ والمجد، والعِزّ والسُّؤدد.

نَعَـم، فـكلُّ ما نحن فيه، هو مـن فضلِ الله عَزَّوَجَلَّ علينا، قـال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ**﴾ [النحل: ٥٣]، فهو الذي علّمنا وهدانا، وأطعمنا وسقانا، وأدّبنا وكفانا.

هذا، وقد احتذى هذا الكتاب سَـنَن القرآنِ الكريـم في طريقة عرضِ موضوعاته، فكـما أنَّ آيـات القـرآن الكريـم فيهـا ذكـرٌ للجنة والنـار، والدنيـا والآخـرة، والمؤمنين

والمنافقين، وعرضٌ لقصص الأنبياء والمرسلين، وضربٌ للأمثال التي أخرجت المعقول إلى المحسوس. كذلك جاءت وقفاتُ الكتاب وفقراته متنوعة ومتعددة. وكان تفسير ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو المصدرَ المعتمدَ عليه في هذه الوقَفات والموضوعات.

أسأل الله أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به النفع العميم، وأن يجعله سببًا لكاتبه وقارئه في النجاح في الدنيا والآخرة.

القلادة الأولى

الوقفة الأولى: الدعوة إلى التوحيد

هـذه وقفـةٌ مع نبـي الله يوسـف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيها دلالـة واضحة على فضـلِ التوحيد، وكيف أنه سبيلٌ لأن يمُنَّ اللهُ على العبد بنعمة العِلم.

ها هو يوسـف عَلَيْهِ السَّلَامُ حين سـأله الفتيـان أن يعبِّر لهما رؤياهما، إذا به ينسـب نعمة العلـم إلى ربه، فقـال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٣٧].

ثـم شرعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في بيـانِ كيـف كان توحيدُه لربـه وتركُه للشرك سـببًا مباشرًا في هذه النعمـة -نعمـة العلم-، الذي صار فيما بعد سـببًا -بعـد الله عَزَّوَجَلَّ- في خروجه عَلَيْهِ السَّلَامُ من السجن، وتوليه على خزائن الأرض، فقال: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧-٣٨].

قـال ابـنُ كثـير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هكذا يكـون حال مَن سـلك طريـق الهدى، واتبـع طريق المرسـلين، وأعرض عـن طريق الضالين، فـإن الله يهدي قلبه، ويعلمه مـا لم يكن يعلم، ويجعله إمامًا يُقتدَى به في الخير، وداعيًا إلى سبيل الرشاد»[1].

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣٣).

هـذا ولمـا كانـت هـذه النعمـة تحتـاج إلى شـكرٍ، شرعَ يوسـف عَلَيْهِ السَّلَامُ في شـكره لربـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وذلك بدعوة الفتيـان إلى التوحيد، وإخلاص العبادة لله العزيز الحميد، فقـال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠].

* **الفوائد المستخلصة من هذه القصة:**

- التوحيدُ من أعظم ما تُستجلب به النعم، كما أن الدعوة إليه من أعظم طرائق شكرها.
- اسـتغلال الفرص للدعوة إلى الله على بصيرة وبحكمة وموعظة حسـنة، والبدء دائمًا بتوحيد الله جَلَّ وَعَلَا، وما أجمل ما قاله شـيخ الإسـلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا المعنى، يقول: «شـهادة التوحيد تفتح باب الخير، والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر»[1].

ولهذا ما أرَّقَ الصالحين إلا خوفهم من أن يُسـلبوا هذه النعمة -نعمة التوحيد- قبل مماتهـم وقبـل لقاء الله، فالإقبال عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوم القيامة شـأنه عظيم، ولا منجى هناك إلا بالتوحيد، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

ومـما جاء في بيـانِ هول ذلك اليوم، ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ١-٢].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٦).

نعم، إنه يومٌ يُقال فيه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، فيأتي الجواب العظيم: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

نعم، إنه يومٌ تخشع فيه الأصوات للرحمن، فلا تسمع إلا همسًا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

ومما جاء في صحيح مسلم عن هول ذلك اليوم، قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يطوي الله عَزَّوَجَلَّ السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك. أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك. أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»[1].

وكما أنّ أعظم ما يُتقى به من العذاب يوم القيامة، وأجلّ ما يمكن أن يحمله الإنسان في قلبه حين يفد على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، هو توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وإفراده بالعبادة، فإنّ الشرك به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الموجب للعذاب الأليم؛ ولذا قال عَزَّوَجَلَّ في مَن نسبَ إليه الولد: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩١].

فالسماوات تتفطر، والأرض تنشق، والجبال تخر غضبًا للجبار جَلَّ وَعَلَا.

وقالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: «قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك؛ فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي، فقوله لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدًا»[2]، وفي الصحيحين عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ليس أحد، أو ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم ليدعون له ولدًا، وإنه ليعافيهم ويرزقهم»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٤٨ رقم ٢٧٨٨).
(٢) أخرجه البخاري (٦/ ١٩، ٢٠ رقم ٤٤٨٢).
(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٢٥ رقم ٦٠٩٩)، ومسلم (٤/ ٢١٦٠ رقم ٢٨٠٤).

بل هـو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]؛ يُفرِّج همًّـا، ويغفـر ذنبًا، ويكشـف كربًا، ويغني فقيرًا، ويجبر كسـيرًا، ويشـبع جائعًـا، ويعافي مبتـلًى، ويَقْبَل تائبًا، ويغيـث لهفانًا، وينصر مظلومًا، ويقصم جبـارًا، كلُّ غنيٍّ إليه فقير، وكلُّ جبارٍ إليه ذليلٌ كسـير، يُقِيل العثرات ويسـتر العورات، ويؤمّن الرّوعات، ويجيب الدعـوات، ولا تختلـف عليه اللهجات على كثرة الحاجـات، كلُّ شيءٍ هالك إلا وجهه، وكل مُلْكٍ زائل إلا مُلْكه، فتعالى اللهُ عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

وختامًا: حريٌّ بنا في هذا العصر الذي انتشرت فيه لوثة الإلحاد والشرك، أن نجدِّد هذا الأمر، وأن نتلو الآيات التي تدعو إلى التوحيد، والتحذير من الشرك، على أنفسـنا وأهلينا وأبنائنـا، ولنعلم جميعًا أن من أعظم أسـباب الثبات على التوحيـد والإيمان، تعلق القلوب بـكلام رب العالمين، تدبرًا وحبًّا وعلمًا وعمـلًا، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

كـما أن من أعظم أسـباب العصمة من الشرك والكفر، الاسـتماع للقـرآن الكريم، والاعتصـام بـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مـع اتباع سـنة رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قـال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

* **إشراقة:**

سـتتضمن هـذه الفقرة الثابتة بـإذن الله في كل قلادة من قلائـد النور كلمات خالدة للجد حسـن رَحِمَهُ اللَّهُ سـطرها بنانه في حياته، اخترتها من كتاباته المتفرقة، ولقد اسـتفدت منهـا كثـيرًا، فأردت أن أنشرها وفـاءً له وبرًّا به، ورغبة أيضًا في نشر كلماته لشـباب هذا الجيـل، ليعم النفع، وينتشر الخير، سـائلًا الله جَلَّ وَعَلَا أن يجعل ذلـك من العلم الذي ينفع جـدي بعد رحيله، وأن يجمعنا به في مسـتقر رحمته، في جنـات ونهر في مقعد صدق عند

مليك مقتدر، وقد كتبت هذه الكلمات معبرًا عن تأثري به رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وسأبدأ بها هذه الفقرة الثابتة بإذن الله.

* **لن ننساك:**

قليلة هي الشخصيات التي نتأثر بها في حياتنا القصيرة، وتسمو بنا إلى آفاق الصدق والإخلاص، فتجدنا نسير على خطاهم دون وعي أو إدراك، وما ذاك إلا لفرط إعجابنا بهم ومحبتنا لهم، نرتشف من معين صدقهم، ونستلهم الدروس من سيرتهم، التي لا يزال عطرها يملأ المكان، على الرغم من مضي السنين، وهذا عبق ذكراهم باق في وجدان من أحبَّهم أو حتى سمِع بهم.

من هؤلاء جدي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وزير المعارف والتعليم العالي سابقًا، الذي توفي عام ١٤٠٧ للهجرة، وعلى الرغم من أنني لا أتذكر العديد من المواقف معه، فقد كنت صغيرًا حين توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولكنني سمعت الكثير والكثير عنه، حتى كأني أراه أمامي، تنقلت بين خواطره الجريئة، ورأيت آثار خطواته على الدرب الطويل، لطالما تأثرت بذيوع ذكره الجميل بين الناس، فما رأيت أحدًا عرفه أو سمع به إلا ويثني عليه ويدعو له ويذكر بعض مواقفه في بذل المعروف ومساعدة الغير.

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يردد دائمًا هذا البيت:

واغرس من العمل الجميل فضائلًا فإذا ذهبت فإنها لا تذهب

فحوَّله إلى واقعٍ عملي، فسكن القلوب بأخلاقه، وغرس الجميل قبل الرحيل، فاستوى الذكر الطيب على ساقه.

بعد وفاته بأيام، وجدوا هذا الدعاء في درج مكتبه، مكتوبًا بخط يده: «اللهم ارزقني ذكرًا طيبًا بعد الممات»، فنحسب أن الله بكرمه قد استجاب له.

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب همةٍ عالية، عرف مغزى الحياة، فعاش فيها بجسده، وعلق قلبه بالآخرة، يرجو الفردوس الأعلى، ويعمل لها، فأسال الله أن يجمعنا به هناك،

حيث السعادة والراحة، والنعيم الأبدي، وقد علَّمنا النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نكون أصحاب همة، لا ترضى إلا بالقمة، حين قال: «فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ»(١).

أدرك رَحِمَهُ اللَّهُ معنى قول الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»(٢)، ففهم حقيقة الدنيا الفانية، واشتغل بما يبقى من العمل، مخافة أن يفجأه الأجل، فلم يأته إلا وقد حقق الكثير من أمنياته.

كتب هذه الخاطرة قبل وفاته بأيام: «عجيب أمر الحياة والأحياء تمضي بالأجيال في تتابعٍ مذهل، والكثير بل ربما الكثرة البالغة منهم لم يبلغوا منها بعض شأوهم، ثم تتلقفهم أودية النسيان إلا من عملٍ صالح، أو علم نافع، أو ولد مؤمن يدعو لهم، والناس يذرعون أعمارهم طولًا وعرضًا، ثم تنتهي بهم حياتهم إلى الخاتمة الموعودة، يستوي في ذلك الغني والفقير، والرئيس والمرؤوس، والقوي والضعيف، نهاية تحمل في طيَّاتها العبرة الناطقة لمن شاء الله أن يعتبر، وتحمل الفاجعة لمن حجب الله عنه بصيرة الإيمان».

رحمك الله رحمة واسعة، فقد كنت فنار خير ووعاء حكمة، وجمعنا بك في الفردوس ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

خاتمة: كان رَحِمَهُ اللَّهُ يحب الجيد من الشعر، وكثيرًا ما كان يستشهد بالبيت الأول من هذه الأبيات للإمام الشافعي، وحين بحثت عن باقي الأبيات، علمت يقينًا أنه تمثَّل البيت الأول في حياته، فتحدث عنه مطلع البيت الأخير بعد وفاته:

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٦ رقم ٢٧٩٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ١٨٦ رقم ٢٣٧٧)، وابن ماجه (٥/ ٢٢٩ رقم ٤١٠٩). وقال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ». ينظر: جامع الترمذي: (٤/ ١٨٦). وصححه الألباني ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٨٠٠).

وأفضل الناس من بين الورى رجلٌ ... تُقضى على يـده للناس حاجات
لا تمنعن يد المعـروف عن أحدٍ ... مـا دمت مقتدرًا فالـسعد تارات
واشكر فضائل صنع الله إذ جُعلتْ ... إليك لا لك عند الناس حاجات
كم مات قومٌ وما ماتت مكارمهم ... وعاش قومٌ وهم في الناس أموات

* * *

الوقفة الثانية: اليقين سر العبادة، ومفتاح السعادة.

نعـم، اليقـين سر العبـادة، ومفتـاح السـعادة، وهـو -كـما عرّفـه أحدُ السـلف-: «مُشَـاهَدَةُ الإيـمان بالغيـب»، وهـو من أعظم النعـم التي ينعـم الله بها على عبـده، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبينًا فضل اليقين: «سـلوا الله المعافـاة، فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيرًا من المعافاة...»[1].

فإذا كانت منزلة اليقين أعظم من منزلة المعافاة، التي تتضمن إزالة الشرور الماضية بالعفـو، والحـاضرة بالعافية، فما ذاك إلا لعلو منزلته؛ ولـذا فاليقينُ هو سرُّ العبادة؛ لأنه يعـين العبدَ عـلى أدائها، قـال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥-٤٦]، فلـما تيقـن الصالحـون مـن لقاء ربهـم، والرجوع إليه، سَـهُل عليهم الخشـوع في الصـلاة وهم بين يديـه، فكان جزاؤهـم أن جاءتهم السـعادة في الدنيا منقادة؛ ثمرةً لإتقانهـم العبادة، مع ما أخفى الله لهم من قرة أعين يوم القيامة.

* **وهذه نماذج لصبر الأنبياء، ويقينهم بنصر الله عَزَّوَجَلَّ لهم عند الشدائد:**

فكلما امتلأ قلبُ العبدِ يقينًا، كان كلما زاد عليه البلاء، زاد عنده الرجاء، فهذا يعقوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين اجتمعَ عليه فَقْدُ يوسفَ، ثم شقيقه بمصرَ، ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٦٥ رقم ٣٨٤٩)، وأحمد (١/ ١٨٤، ١٨٥)، وإسناده صحيح.

وهذا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أدركه فرعون، وقال له قومه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢].

وهـذا نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حينما كان معه أبو بكـرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الغار، وخاف أبو بكر من أن يراهما المشركون، إذا به يطمئنه بقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وهذا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول بلهجة اليقين، حينما أُلقي في النار والجحيم: حسبنا الله ونعم الوكيل[1]، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩-٧٠].

وقـد قالهـا نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حـين قالـوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمـران: ١٧٣][2] فكان الجزاء: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

هـذا، وليتأمل القـارئ الكريم قولـه عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيـل: ١]، فمـع أن النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يـرَ، لم يقـل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ألم تعلـم؛ ليتبـين لنـا أن التصديـق بقول الله وإخباره يجب أن يكون أقـوى من رؤيتك للشيء بعينك؛ فالعين قد تُخدع وقد يُحال بينها وبين ما ترى، أما إخبار الله عَزَّوَجَلَّ فيقينٌ جازم لا ريبَ فيه.

ولذا أمرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

قال السَّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره لهذه الآية: «والعبد إذا علم أن عمله غير ضائع، بل سيجده كاملًا، هان عليه ما يلقاه من المكاره، ويسر عليه كل عسير، واستقل من عمله كل كثير»[3].

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٣٩ رقم ٤٥٦٣).
(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٣٩ رقم ٤٥٦٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٤٥، ٦٤٦).

ومن أجلِ هذا كان من جميل ثمرات اليقين بلقاء الله عَزَّوَجَلَّ، أنه يهوِّن مشقة العبادة على صاحبها، ويزيد من إقبال العبد عليها وإتقانه لها، فمَن استشعر لقاء الله وهو يقوم من نومه ويمشي إلى بيتٍ من بيوت الله، هان عليه تعبُ تلك الخطوات، ومَن زاد يقينه بلقاء ربه الكريم يوم القيامة، هان عليه قيام الليل وسائر العبادات، التي قد يرى فيها غيره مشقة وعنت.

ولذا قال أهلُ العلم: كلما زاد يقينُ العبد بلقاء الله، زاد ابتعاد العبد عن المحظور وفعله للمأمور، وكلما قلّ اليقين، قل الترك والفعل تبعًا لذلك.

ختامًا: من أعظم ثمرات اليقين، أُنس العبد بالله، فكلما زاد يقين العبد بربه، وأنه يراه، ويسمعه، ويعرف ما في قلبه، ويعلم ما في صدره، زاد أنسه بمولاه. قيل لأحدهم: كيف تصبر على الجلوس وحدك؟ قال: أنا جليسُ ربي؛ إنْ شئتُ أن يكلمني تلوتُ القرآنَ، وإنْ شئتُ أن أكلِّمه صليتُ ركعتين.

ورُوي أنَّ أعرابيًّا مرض، فقيل له: إنك ستموت. قال: وإذا متُّ، إلى أين أذهب؟ قالوا: إلى الله عَزَّوَجَلَّ، قال: فلمَ أكره الذهابَ إلى مَن لمْ أرَ الخير إلا منه؟!

* **ومضة: احتملْ مشقة يومك لمسرة غدك:**

قد يأمر الله بالشيء ويبتلي به بثقله، وينهى عن الشيء، ويبتلي به بشهوته؛ فإذا كنت لا تعمل من الخير إلا ما اشتهيته، ولا تترك من الشر إلا ما كرهته، فأين هي عبوديتك؟ ولكن ينبغي للمؤمن: أن يتحامل على ما تستثقله نفسه من الخير حتى يحبه، أو بالأقل يسهل عليه، ويتحامل على نفسه في اجتناب ما تحبه من الشر؛ حتى تُفطم عنه. ولا ييأس، بل يجاهد نفسه الأمارة بالسوء حتى تطمئن، وملءُ قلبه يقين بموعود الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا...﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ولنعلم وليعلم كل أحد أن أكبر

برهان من العبد الذاكر، على إيمانه بلقاء الله واليوم الآخر، محافظته على الصلاة، وكلما زاد يقين المؤمن بيوم القيامة، زاد حرصه على الصلاة استعدادًا لما أمامه، تأمل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿... وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢] .

* **ختام القلادة الأولى:**

يا رب أنـــت خلقتني وبرأتني ... جملت بالتوحيد نطق لســـاني
وهديتني ســـبل السلام تكرمًا ... ودفعتني للحمد والشـــكران
وغمرتني بالجود ســـيلًا غامرًا ... وأنـــا أُقابـــل ذاك بالكفران
فلك المحامـــد والثناء جميعه ... والشكر من قلبي ومن وجداني
فلأنت أهل الفضل والمن الذي ... لا يستطيع لشـــكره الثقلان
أنت الكريم وباب جودك لم يزل ... للبذل تعطي ســـائر الأحيانِ
أنت الحليم بنا وحلمك واسعٌ ... أنت الحليم على المسيء الجاني
أنت الـــذي آويتني وحبوتني ... وهديتني مـــن حَيرة الخِذلانِ
ونشرتَ لي في العالمين محاســـنًا ... وسترت عن أبصارهم عِصياني
والله لو علمـــوا قبيح سريرتي ... لأبى الســـلامَ علي من يلقاني
ولأعرضوا عني وملوا صُحبتي ... ولبُؤت بعد كرامـــةٍ بهوانِ
لكن ســـترت معايبي ومثالبي ... وحَلِمت عن سَقَطي وعن طُغياني
فلك المحامـــد والمدائحُ كُلها ... بخواطري وجوارحي ولساني

القلادة الثانية

الوقفة الأولى: لزوم الاجتماع وخطر الافتراق

الحمد لله الذي أمر بالاجتماع والائتلاف، ونهى عن التفرق والاختلاف، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين. أما بعد: فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

روي عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال في تفسير قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: واعتصموا بحبل الله جميعًا قال: (الجماعة [١]).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمرهم بالجماعة، ونهاهم عن الفرقة، وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنّهي عن التفرق والأمر بالاجتماع والائتلاف»، ثم ساق حديثًا، ثم قال: «وقد ضمنت لهم العصمة، عند اتفاقهم، من الخطأ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضًا، وخيف عليهم الافتراق، والاختلاف، وقد وقع ذلك في هذه الأمة، فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية إلى الجنة ومسلمة من عذاب النار، وهم الذين على ما كان عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه[٢].

---

(١) انظر: تفسير الطبري ت: شاكر (٧/ ٧١ رقم ٧٥٦٢).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٨٩).

ومن نظائر هذه الآية في القرآن الكريم قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نهى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضيين في افتراقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، مع قيام الحجة عليهم»[(١)].

وقال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيرها: «وهذه حالة ذميمة من أحوال أهل الشرك، يراد تحذير المسلمين من الوقوع في مثلها؛ فإذا اختلفوا في أمور الدين، الاختلاف الذي يقتضيه الاجتهاد، واختلفوا في الآراء والسياسات لاختلاف العوائد؛ فليحذروا أن يجرهم ذلك الاختلاف إلى أن يكونوا شيعًا متعادين متفرقين، يلعن بعضهم بعضًا، ويذيق بعضهم بأس بعض»[(٢)].

قال الشيخ العلامة محمد بن صالح بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالله الله في فهم منهج السلف الصالح في التعامل مع السلطان، وأن لا نتخذ من أخطاء السلطان سبيلًا لإثارة الناس، وإلى تنفير القلوب عن ولاة الأمور، فهذا عين المفسدة، وأحد الأسس التي تحصل بها الفتنة، كما بيَّن أن ملء القلوب على ولاة الأمر يحدث الشر والفتنة والفوضى، وكذا ملء القلوب على العلماء يحدث التقليل من شأن العلماء، ومن ثم التقليل من الشريعة التي يحملونها. فإذا حاول أحد أن يقلل من هيبة العلماء وهيبة ولاة الأمر؛ ضاع الشرع والأمن؛ لأن الناس إن تكلم العلماء؛ لم يثقوا بكلامهم، وإن تكلم الأمراء؛ تمردوا على كلامهم، وحصل الشر والفساد. فالواجب أن ننظر ماذا سلك السلف تجاه ذوي السلطان، وأن يضبط الإنسان نفسه، وأن يعرف العواقب»[(٣)].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥١٥).

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور (٣٢/ ٤٤).

(٣) انظر: معاملة الحكام في ضوء الكتاب والسنة ص٤٤.

وقبل الختام: روى الإمام أحمد في مسنده[1] عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ثَلاثُ خِصالٍ لا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ أبَدًا: إخْلاصُ العَمَلِ للهِ، ومُناصَحَةُ وُلاةِ الأمْرِ، ولُزُومُ الجَماعَةِ، فَإنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِن ورائِهِمْ».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذه الثلاث تجمع أصول الدين وقواعده، وتجمع الحقوق التي لله ولعباده، وتنتظم مصالح الدنيا والآخرة»[2].

وقال الشيخ المجدد محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم يقع خلل في دين الناس ودنياهم إلا بسبب الإخلال بهذه الثلاث أو بعضها»[3].

وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يوصون الناس بلزوم الجماعة وعدم مفارقة الإمام، جاء عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال لسويد بن غفلة رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تفارق الجماعة»[4].

فمن ترك الإمامة، وفارق الجماعة، ومات على ذلك فميتته جاهلية، روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات، مات ميتة جاهلية»[5].

ختامًا: بيَّن ربي جَلَّ وَعَلَا أن الاجتماع رحمة، وأن الفرقة هلاك وعذاب، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، لا يزال الخلق مختلفين إلا من رحم الله، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، فدل على أن الاجتماع رحمة، وأن الفرقة عذاب وشقاء وتناحر وتخاصم وفشل وتقاتل. والاجتماع، رحمة من الله، يتراحم بها المؤمنون، ويجتمعون على طاعة الله.

---

(١) برقم (٨٧٩٩)، قال ابن حجر: (حديث زيد بن ثابت هذا صحيح) ينظر: فيض القدير (٦/ ٢٨٥).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى(١/ ١٨).
(٣) انظر: مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب (٦/ ٢٢٩).
(٤) انظر: السنة للخلال (١/ ١١١).
(٥) أخرجه مسلم رقم (١٨٤٨).

* **إشراقة**[1]:

«كل شيء يمكن تحمله من جراء انحسار القيم أمام غزو التقنية، إلا الولاء لله، وبر الوالدين، والإخلاص لولاة الأمر».

* * *

الوقفة الثانية: هَوان الدنيا.

إن الكريمَ لا يرى لنفسه ثمنًا إلا الجنةَ، ولو بذل في سبيل ذلك الدنيا بحذافيرها، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن اليهود: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: «الدنيا بحذافيرها»[2].

وفي قوله دلالةٌ واضحة على هوان الدنيا في أعين الصالحين من التابعين؛ ولذا قال محمد ابن الحنفية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن كرمت عليه نفسه، لم يكن للدنيا عنده قدر»[3].

فاحرص يا طالب الجنان، أن يكون لك هدف عظيم في حياتك مرتبط بالآخرة، تعيش له، وتحلم به، وتسعى للوصول إليه، وما أجمل أن يكون ذلك الهدف: رؤية وجه الله في الفردوس الأعلى من الجنة.

فالحياة مضمار، والسباق بالأعمال، وخط النهاية جنة أو نار، قال أحد السلف: «فبالعفو تنجون، وبالرحمة تدخلون، وبالأعمال تقتسمون المنازل»[4].

---

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) تفسير الحسن البصري (١/ ١٠٥).

(٣) حلية الأولياء (٣/ ١٧٦)، سير أعلام النبلاء (٤/ ١١٧)، موسوعة مواقف السلف في العقيدة والمنهج والتربية (١/ ٤١٨).

(٤) ينظر: حلية الأولياء (٤/ ٢٤٦)، سير السلف الصالحين (١/ ٨٦١)، تاريخ دمشق لابن عساكر (١/ ٧٤)، تهذيب الكمال (١/ ٤٥٩).

هـذا، وليُعلم أنَّ العطاء مـن الدنيا لا يدل على رضا الله عَزَّوَجَلَّ أو القرب منه، وتأمل قولـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٥-١٧]، أي: ليس الأمر كما زعمتم وظننتم، بل قد يكون العكس.

ومـن جميل ما أُثر عن السـلف: قول أبي حـازم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نعمةُ الله فيما زُوي عني من الدنيا، أعظم من نعمته عليّ فيما أعطاني منها، إني رأيته أعطاها قومًا فهلكوا»[1].

ويـأتي ذلـك مصداقًـا لمـا رواه مَحْمُودُ بـن لَبِيـدٍ، أَنَّ رَسُـولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَـالَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَيَحْمِـي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُـوَ يُحِبُّهُ، كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، تَخَافُونَهُ عَلَيْهِ»[2]؛ أي: يحميه أحيانًا من فتنتها وزخرفها.

ولنعلم جميعًا أن هذه الدنيا مهما بلغت فهي حقيرة، وأنّها لا تعدل ركعتين من العبد، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «رَكْعَتَا الفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[3].

فإذا كان هذا في حقِّ ركعتي السُّنةِ قَبْلَ الصلاة، فما بالك بصلاة الفجر ذاتها؟!

(١) الكنى والأسماء للدولابي (١/ ٤٣٤)، حلية الأولياء (٣/ ٢٣٣)، سير أعلام النبلاء (٦/ ٩٨).
(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٣٨١ رقم ٢٠٣٦)، وأحمد (٣٩/ ٣٣ رقم ٢٣٦٢٢)، (٣٩/ ٣٧ رقم ٢٣٦٢٧). والحديث صحيح، صححه الحاكم في المستدرك (٧/ ٣٨١).
(٣) أخرجه مسلم (١/ ٥٠١ رقم ٧٢٥).

القلادة الثالثة

الوقفة الأولى: الصفا والمروة وأمنا هاجر.

الحمد لله الذي جعل الحمد أول آية في كتاب رحمته، وأول ما يُقال عند دخول جنته، والصلاة والسلام على نبينا الأمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد: فيا أيها الكرام جاء قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ...﴾ [البقرة: ١٥٨] الآية، بعد قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥: ١٥٧]، وكأنها تذكرنا بمثال حي قد مر بأصناف الابتلاءات، فصبر وفوَّض أمره إلى الله. وهذا المثال نراه جليًّا في قصة أمنا هاجر، التي شُرع السعي بين الصفا والمروة اقتداءً بها، فقد قالت حين تركها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: آلله أمرك بهذا، قال: نعم، فقالت: إذًا لا يضيعنا، وعادت متذللة وجلة فقيرة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، تدعوه وترجوه حتى كشف كربتها، وأبدل خوفها أمنًا، وجوعها شبعًا، ونقْصها من الأموال والأنفس والثمرات، بأنْ فجّر لها زمزم فجاءتها القبائل من كل جانب، تطلب جيرتها بأموالهم وأنفسهم وثمراتهم، فحريٌّ بنا أن نقتدي بأمنا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، فإذا سعينا بينهما استحضرنا فقرنا وذلنا وحاجتنا إلى الله في هداية قلوبنا وصلاح أحوالنا وغفران ذنوبنا، عسى ربنا أن

يطهرنا من النقائص والعيوب، ويحولنا من حالنا الذي نحن عليه من الذنوب، إلى حال الغفران والسداد والاستقامة، كما فعل بأمنا هاجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] قُيّدت الصلوات، وأثبتت الهداية، وتُركت الرحمة؛ لأن الصلوات من الله لا كالصلوات من غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالمعنى يختلف وهو شرف عظيم، والهداية لا يملكها إلا الله ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، أما الرحمة فرحمة الله واسعة، التي من ضمنها: أن الله يقذف في قلوب خلقه رحمة العبد الصابر، الذي لا يشتكي إلا لله، فلا تجد صابرًا على قضاء الله، إلا وكل من حوله يرحمه ويوده ويحسن إليه بالمال والقول والعمل»، والله أعلم.

وهنا وقفة: ينبغي أن يُعلم أيها الأحبة أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى غفور رحيم، يبتلينا بالمصائب، ليطهرنا من المعايب، ويقدّر علينا الابتلاءات، لتُغفر السيئات، وتُعلى الدرجات، فقد جاء في الحديث: عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللهِ المَنْزِلَةُ، فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ، فَلَا يَزَالُ اللهُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا»[1].

وقد قال أهل العلم: إذا رأيت الله يحبس عنك الدنيا ويكثر عليك الشدائد والبلوى، فاعلم أنك عزيز عنده، وأنك عنده بمكان، وأنه يسلك بك طريق أوليائه وأصفيائه، فهو لم يهب الدنيا لأنبيائه، ولكن خبأ لهم الآخرة، إنما أعطاها لفرعون وقارون وأشباهه، وقال لأحد أنبيائه: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا...﴾ [الطور: ٤٨]، وقال لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧/ ١٦٩ رقم ٢٩٠٨)، والحاكم (١/ ٣٤٤ رقم ١٢٧٤) وأبو يعلى (١٠/ ٤٨٢ رقم ٦٠٩٥)، (١٠/ ٤٨٧ رقم ٦١٠٠)، وأورده ابن حجر في المطالب العالية (١١/ ٧٦ رقم ٢٤٥٧). قال الألباني: «وهذا إسناد حسن، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم غير البجلي هذا، وهو كما قال الحافظ: «لا بأس به». سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ١٣٠).

ختامًا: ما أجمل ما قاله الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس لها، وتمرينها عليها، ومعرفة ما تؤول إليه، تتقلب عند أرباب البصائر مِنحًا يُسرّون بها، ولا يبالون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[1]. نسأل الله من فضله.

* **إشراقة**[2]: **من دعاء الجد** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«يا رب قارب بيني وبين المخلصين لك، العاملين من أجلك، حتى أحصل من لقائهم على الحرص على ما يرضيك، والبعد عما يغضبك يا سميع الدعاء».

* * *

الوقفة الثانية: صبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقتداء الصحابة.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أيها الأحبة، لم يترك المشركون شيئًا إلا قالوه عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعلوا كل شيء ليترك الدعوة، تمادوا في الاستهزاء، وأصروا على الإيذاء، فصبر الحبيب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صبرًا لم يصبره أحد، فصبره، ما صبره! قالوا عن القرآن أضغاث أحلام وصبر، قالوا بل افتراه وصبر، قالوا إنما يعلمه بشر وصبر، قالوا أساطير الأولين وصبر، قالوا عنه شاعر وصبر، قالوا مجنون وصبر، قالوا ساحر وصبر، قالوا كذاب وصبر، فكان الجزاء دفاع الله جَلَّ جَلَالُهُ عنه: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحِجر: ٩٥]، ومواساته له: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحِجر: ٩٧] وأمره بالذكر ليذهب الضيق: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحِجر: ٩٨-٩٩]، وقد سلاه ربه ووعده بأن أقوالهم ستكون وبالًا عليهم:

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٥٠).

(٢) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. فيامن تسير على طريق الحق، هذا هو القدوة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥]. ثم تأمل دفاع الله جَلَّ جَلَالُهُ عن نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين تجرأ أبو لهب، فقال له: تبًّا لك، فقال الله: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [المَسَد: ١]، وأخذ أمية بن خلف يهمز ويلمز، فقال الله: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ [الهُمَزة: ١]، وتطاول الأخنس بن شريق، فقال الله: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٠-١٣]، وقال مناديهم: أنا أكثر هذا الوادي ناديًا، فقال الله: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧: ١٨]، ووضع عقبة بن أبي معيط سلا الجزور، وأخذ القوم يضحكون، فقتلهم الله، وأصبحوا جميعًا صرعى في قليب بدر، واقترب أبو جهل وتوعد ليطأن على رقبة نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرأى نارًا وهولًا وأجنحة، وقال الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عُضْوًا عُضْوًا»[1]، وفي يوم أحد، قال سعد بن أبي وقاص: رأيت عن يمين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن يساره رجلين، عليهما ثياب بيض، يقاتلان عنه أشد القتال، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده، يعني جبريل وميكائيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. واقتدى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بمعلمهم ونبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضربوا أروع الصور في الصبر والتضحية والثبات: فقد كان مصعب يمنع من الطعام، وصهيب يعذب حتى يفقد وعيه، ولا يدري ما يقول، وبلال يضرب بالعصا، ويكره على الجوع، ويطرح على ظهره في الرمضاء، وتوضع الصخرة العظيمة على صدره، وعمار يعذب بالحر، ويغط في الماء، حتى يفقد وعيه، وأبو فكيهة يربط بالحبل، ويجر ويخنق، حتى يظن أنه قد مات، وخباب يعذب بالحديد، فتجعل الحديدة المحماة على ظهره أو رأسه، ويلوى عنقه، ويجذب شعره، ويلقى في النار، ثم يسحب عليها، فما يطفئها إلا ودك ظهره، على الرغم من كل ذلك التعذيب والإيذاء، لم يهتز إيمانهم، ولم يصدهم

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٥٤ رقم ٢٧٩٧).

ذلك عن دينهم، بل ازدادوا ثباتًا ويقينًا بما عند الله، وكأنهم يرددون جميعًا على لسان بلال: «أحد أحد، ولو نعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلناها»، فلله درهم ورضي الله عنهم وأرضاهم، فإذا أوذيت في دينك فتذكر هؤلاء، واجعلهم قدوة لك، رضي الله عنهم وأرضاهم ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ ...﴾ [الحشر: ١٠].

* **ومضة: إنا لله:**

يقول الله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة ١٥٥- ١٥٦]، سنقف هنا مع قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾، والمعنى أي: نحن وأنفسنا وأرواحنا وأموالنا وأهلينا وأبنائنا مِلكٌ لله عز وجل، يتصرف فينا كيفما شاء سبحانه وتعالى، فليس لنا شيء منها، فإذا ابتلانا في شيء منها، فقد تصرف أرحم الراحمين بملكه، بل من كمال العبودية أن تعلم أنه إن كانت البلية قد جاءتك من أرحم الراحمين، الذي هو ألطف بك من نفسك، وأرحم بك من أمك، أوجب ذلك الرضا والشكر؛ لأن تدبير الله لعبده، خيرٌ من تدبير العبد لنفسه، ولأن قضاء الله كله خير، وإن لم نعلم ذلك، وتأمل قول النبي ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١).

* * *

الوقفة الثالثة: اختلف اليهود والنصارى، فهدى الله أمة محمد ﷺ إلى الحق.

قال الله عز وجل: ﴿... وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ

(١) أخرجه مسلم (٨/ ٢٢٧ رقم ٢٩٩٩).

صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، اختلف أهل الكتاب في يوم الجمعة، فاتخذ اليهود السبت، والنصارى الأحد، فهدانا الله ليوم الجمعة، واختلفوا في القبلة، فاستقبلت النصارى المشرق، واليهود بيت المقدس، فهدانا الله لاستقبال البيت الحرام، واختلفوا في الصلاة، فمنهم من يركع ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلي وهو يتكلم، ومنهم من يصلي وهو يمشي، فهدانا الله للحق من ذلك، واختلفوا في الصيام، فمنهم من يصوم بعض النهار، ومنهم من يصوم عن بعض الطعام، فهدانا الله للحق من ذلك، واختلفوا في إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقالت اليهود: كان يهوديًّا، وقالت النصارى: كان نصرانيًّا، وجعله الله حنيفًا مسلمًا، وما كان من المشركين، واختلفوا في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكذبت به اليهود، وقالوا لأمه بهتانًا عظيمًا، وجعلته النصارى إلهًا وولدًا، وجعله الله عبده ورسوله وروحه وكلمته، فهدانا الله للحق من ذلك، فالحمد لله حمدًا كثيرًا، وهذه النعم العظيمة تحتاج إلى الشكر، فالنعم إن عوملت بالشكر زادت، وإن قوبلت بالكفر بادت، فالشكر قيد النعم، وسر بقائها ونمائها، ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾ [إبراهيم: ٧]. نسأل الله العافية والسلامة، كما نسأله من فضله العظيم.

* **ختام القلادة الثالثة:**

أبيات جميلة للدكتور ناصر الزهراني في صبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

ولَّى أبـــوك عـــن الدنيـــا ولم تـــرهُ ... وأنت مرتـــــهنٌ لا زلـــتَ في الرحمِ

ومـــــاتت الأمُ لمّـــا أن أنســـتَ بهـــا ... ولم تكـــن حينَ ولـــــت بالغَ الحُلُمِ

ومـــــات جدُك من بعـــدِ الولوعِ به ... فكنـــت مـــن بَعدِهـــم في ذُروةِ اليُتُمِ

فجـاء عمُّـك حصنًـا تَسـتكنُّ به ... فاختـاره الموتُ والأعداءُ في الأَجَمِ
تُـرمَى وتُؤذَى بأصنافِ العذاب فما ... رُئيـتَ في ثـوبِ جبـارٍ ومنتقـمِ
حتى عـلى كتفيك الطاهِرَين رمَوْا ... سَـلا الجَزورِ بكـفِّ المـشركِ القَزَمِ
أما خديـجةُ من أعطتْـك بهجتَها ... وألبسـتْكَ رداءَ العطـفِ والكـرمِ
غـدتْ إلى جَنـةِ البـاري ورحمتِهِ ... فأسلمـتْك لجُـرحٍ غـيرِ مُلتَئـمِ
والقلـبُ أُفعـمَ مـن حبٍّ لعائشـةَ ... ما أعظمَ الخطبَ! فالعِرضُ الشريفُ رُمِيْ
وشُـجَّ وجهُك ثم الجيشُ في أُحُدٍ ... يعـودُ ما بـين مقـتولٍ ومُنهزمِ
لمّـا رُزقـتَ بإبراهيـمَ وامتلأتْ ... به حيـاتُك بات الأمـرُ كالعَدَمِ
ورُغـمَ تلك الرزايا والخطوبِ وما ... رأيتَ مـن لـوعةٍ كبرى ومـن ألمِ
ما كنتَ تحملُ إلا قلـبَ محتسـبٍ ... في عـزمِ مُتـقِدٍ في وجـهِ مبتسـمِ

القلادة الرابعة

الوقفة الأولى: سبحانك ربي ما أكرمك

الحمد لله الذي لا تغيض ينابيع فضله، ولا تضطرب موازين عدله، أحمده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حمدًا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فيا أيها الكرام ثبت في القرآن العظيم: أن الله جَلَّ جَلَالُهُ هو الكريم، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأكرم، يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق: ١-٣].

وفي هذه الوقفة سنتأمل معًا طرفًا من كرم ربنا جَلَّ جَلَالُهُ، وتقدست أسماؤه:

أرادت أم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن يرد الله عليها ابنها، كما بين ذلك القرآن الكريم، فرده الله إليها، وزادها بأن جعله نبيًّا: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، وسأل موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ربه أن ينجيه من عدوه، فأنجاه الله، وزاده بإهلاك عدوه أمام عينيه: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤]، وسأل زكريا

ربه الولد، فبشره به، ثم سماه له وجعله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وقال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، فرزقه الله بإسحاق، وجعله نبيًّا: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]، وزيادة في البشارة، أسعد قلب زوجته سارة، ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. وفي قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد إخوته أن يقتلوه، فلم يمت، ثم أرادوا أن يلتقطه بعض السيارة فيمحى أثره، فارتفع شأنه، ثم بيع ليكون مملوكًا، فأصبح ملكًا، ثم أرادوا أن يمحو محبته من قلب أبيه فازدادت.

فاعلم أخي المبارك: أن كرم الله عَزَّوَجَلَّ لا حد له، وأنك لن تجد الله إلا كريمًا، وأن خيرة الله لعبده خير من خيرة العبد لنفسه، وأن قضاء الله في كل الأحوال خير؛ ولذا فلنلتمس فضل الله ونعمه، التي أسبغها علينا ظاهرة وباطنة، ولنؤدي شكرها، فكم وكم سألنا الله شيئًا، فأعطانا خيرًا مما سألنا، وكم صرف عنا شرًّا، ونحن غافلون عنه، وقد ورد أن الحسن البصري قام من الليل فصلى، فلم يزل يردد هذه الآية حتى السحر: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

وما أجمل ما قاله أحد الصالحين حين سُئِل: أي العمل أفضل؟ قال: «رؤية فضل الله». وقال آخر: «ألا تحمد من تعطيه فانيًا، فيعطيك باقيًا!، درهم يفنى، بعشرة تبقى إلى سبع مئة ضعف، أما لله عندك مكافأة، يطعمك ويسقيك ويكفيك، يحفظك في ليلك ونهارك».

فالحمد لله عدد كل رحمة غمرتنا، ولطف خفي غاب عنا، الحمد لله عدد كل نعمة، نسينا فلم نذكرها، وغفلنا فلم نشكرها.

ختامًا: أيها المبارك: احرص دائمًا على شكر نعم الله، وعلى سؤال الله من فضله، والإكثار من دعائه، فهو القائل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ

﴿ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ..﴾ [البقرة: ١٨٦]. واعلم أن كل شيء في هذه الدنيا. إما أن يتركك أو تتركه، إلا الله جَلَّوَعَلَا، إن أقبلت عليه أغناك، وإن ابتعدت عنه ناداك؛ فإن أجبت وتبت قرّبك وأدناك، فسبحانك ربي ما أكرمك.

فيا رب أوزعنا أن نشكر نعمتك، التي أنعمت علينا وعلى والدينا، وأن نعمل صالحًا ترضاه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

* **إشراقة[1] إلهي**

إلهي: لا تجعلنا مغرورين، فنحجب نواظرنا عن أخطائنا، ونصم آذاننا عن النصائح، ونغلق تفكيرنا أمام تجارب الآخرين وجهودهم.

ولا تجعلنا مخدوعين، فنندفع في الباطل، ونبتعد عن الحق، ونثق بمن لا يستحق شرف الثقة.

ولا تجعلنا متكبرين، فنُعطي أنفسنا ما ليس لها، ونتعالى بها عن أقرانها، ونفترض لها الحق دائمًا، والكمال أبدًا، ولا تجعلنا ظالمين، فنأنس إلى القسوة، ونغتصب ما ليس لنا، ونسلب غيرنا حقه المشروع في الكرامة والحرية.

ولا تجعلنا فاشلين، فنقضي حياتنا بلا غاية، وأيامنا بلا رسالة، وساعاتنا بلا كفاح.

ولا تجعلنا جبناء، فنضعف عن قولة الحق، ونتخاذل عن مقاومة الباطل، ونتراجع حين ينبغي لنا أن نتقدم.

ولا تجعلنا حاسدين، فنتعذب لنعم الله على غيرنا، ونتعامى عن خيره علينا، ونقضي أيامنا بين شر واقع، وآخر مقبل.

---

(١) دعاء جميل للجد رَحِمَهُ ٱللَّهُ نُشر في شهر رمضان ١٣٨٢هـ، وأعتقد أنه كتب الدعاء في الأشهر الأولى من توليه الوزارة، وعمره آنذاك تقريبا ثلاثون عاما.

وأخيرًا يا إلهي إننا في شهر الخير والبركة، فحقق فيك رجاءنا، وأجب بفضلك دعاءنا.

* * *

الوقفة الثانية: سمعًا لربي وطاعة

أيها الأحبة يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثلاث، إذا خرجت من العدة، وأراد زوجها أن ينكحها ثانية ورضيت بذلك، فلا يجوز لوليها من أب وغيره أن يعضلها، أي: يمنعها من التزويج به حنقًا عليه وغضبًا»، وفي توجيه الخطاب لولي المرأة وابتداء الآية بقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ حكمة جليلة -والله أعلم-، وهي أنكم أيها الأولياء قد تقعون في نفس هذا الأمر من تطليق زوجاتكم دون ثلاث، فتندمون وتودون لو استطعتم الزواج منهن مرة أخرى، ورضيت بذلك الزوجات، وترجون ألّا يحول بينكم أمر يعوق ذلك من جهة الأولياء، والله قد أحل ذلك، فكما أنكم قد تقعون في ذلك فتندمون، وتودون الرجوع إلى زوجاتكم، فأحبوا لإخوانكم -أزواج بناتكم أو أخواتكم- ما تحبون لأنفسكم، ففي الحديث قال نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[1]. ولذا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -والله أعلم-: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، ثم أيضًا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: أزكى لإيمانكم بأن تحبوا لهم ما تحبون لأنفسكم، وأزكى لأنفسكم من الترفع والكبر. وتذكر هنا قصة جميلة لأحد الصحابة عن هذا الأمر، وكيف استجاب سريعًا لأمر الله جَلَّ وَعَلَا. فعن معقل بن يسار

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٢ رقم ١٣) ومسلم (١/ ٤٩ رقم ٤٥).

«أنـه زوّج أخته رجلًا من المسـلمين، عـلى عهد رسـول الله ﷺ، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة، لم يراجعها حتى انقضت العدة، فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطـاب، فقـال له معقل: يا لكع، أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها، والله لا ترجع إليك أبـدًا آخـر ما عليك، قال: فعلم الله حاجته إليها، وحاجتهـا إلى بعلها، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقـرة: ٢٣٢]، فلـما سـمعها معقـل قـال: سـمعًا لـربي وطاعة، ثـم دعاه فقـال: أزوجك وأكرمك»[1]. صحح هذه الرواية الترمذي، وفي زيادة في آخرها: «وكفرت عن يميني».

فالفائـز حقًّا أيها الكرام من اقتدى بذلك الصحابي الجليل، وقد بيَّن القرآن العظيم أن من اسـتجاب لأمر الله، «واتبع هدى الله لا يضل عقله، ولا تشـقى نفسـه، ولا يحزن على ما فات، ولا يخشـى ممـا هو آت، يقـول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طـه: ١٢٣]، ويقـول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]. فبادر باتباع هدى الله، وسـارع للاسـتجابة لأمره، وسابق إلى الخيرات، وكما قال وهيب بن الورد: «إن استطعت ألّا يسبقك إلى الله أحد فافعل».

* **ومضة: تفاوت الهمم:**

دخـل عـلى عمر بـن عبدالعزيز شـيخ ظاهـره الوقار، فقـال: يا أمـير المؤمنين، إني دخلـت مصر مع مروان، وغـزوت دير الجماجم، وغزوة كذا وغـزوة كذا، فهلَّا تأمر لي بشيء، فقال: «اجلس أيها الشـيخ»، ويثور غلام من الأنصار، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا فلان بـن فلان، أبي ممن شـهد العقبة، وشـهد بـدرًا وأحدًا -حتى ذكـر المغازي-، فقال عمـر: «أين الشـيخ الذي ذكر ما ذكر؟» فقام الشـيخ، وقيل: ها هـو ذا يا أمير المؤمنين، فقال عمر: «هذه المكارم لا ما تعدّه أيها الشيخ منذ اليوم:

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٩ رقم ٤٥٢٩).

تلك المكـــارم لا قَعبـــان مـن لبن شِـــيبَا بمـــاء فعـــادا بعـدُ أبوالا[1]

خذوا حاجة الفتى».

وصـدق والله عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فرقٌ بين الحالين، بين من غزا أبوه مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبـين مـن غزا مع غـيره من الناس، وعـلى الرغم من ذلك صمت الغـلام، وهو الأرفع والأعلى، وتحدث الشيخ، وظاهر كلامه: أنه يريد دنيا، فلم يُقرَّه عمر، بل قدّم من جاهد مـع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على من قاتل مع جده، وهنا يظهر اختلاف النياتِ وتفاوت الهمم، والإنسان حيث يضع همه تظهر همته، والمؤمن الصادق يجب أن تكون همته متعلقة بالمراد، الذي لا يبلى ولا يفوت، وعزمات همته مسـافرة إلى الحي الذي لا يموت، ولا سـبيل له إلى هذا المطلب الأسنى، والحظ الأوفى، إلا بالعلم الموروث عن الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لذا -كما قال ابن القيم- يجب أن يكون للعبد: همة ترقيه، وعلم يبصره ويهديه، فإن مراتـب السـعادة والفلاح في الدنيا والآخرة إنما تفوت العبـد من هاتين الجهتين، أو من إحداهما، ولقد علمنا ديننا وأمرنا نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهمة العالية، ففي الحديث الصحيح: «فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»[2]، وحين سـأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربيعةَ بن كعب الأسلمي الذي قرب له الوضوء عمّا يريد، قال: أسألك مرافقتك في الجنة، ولأنها مرتبة عالية، قال النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِـكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»[3]. فلله در تلك الهمم، ولله در صاحب الهمة العالية ابن حزم، إذ يقول:

مناي مـــن الدنيـــا علـــوم أبثها وأنشرهـــا في كل بـــاد وحاضر

---

(١) القعبان: مثنى القعب، وهو القدح الذي يُحلب فيه، وشِيبَا: مُزجا، والأبوال جمع بولٍ.
والبيـتُ مـن قصيـدة لأمية بن أبي الصلـت يمدح فيها سـيف بن ذي يـزن، وهي في ديوانـه طبعة صادر، (ص١٧٣-١٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٦ رقم ٢٧٩٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ٥٢ رقم ٤٨٩).

دعـــاء إلى القرآن والســـنن التي	تناسى رجال ذكرها في المحاضر
وألزم أطـــراف الثغـــور مجاهدا	إذا هيعـــة ثـــارت فـــأول نافـــر
لألقـــى حمامي مقبـــلا غير مدبر	بســـمر العوالي والدقاق البواتر
كفاحا مع الكفار في حومة الوغى	وأكـــرم موت للفتـــى قتل كافر

اللهم ارزقنا الهمة العالية في مرضاتك، واجعلها سُلمًا نرقى به لأعالي جنانك.

* * *

الوقفة الثالثة: من قرأهما في ليلة كفتاه

آخر آيتين من سورة البقرة، ورد في فضلهما أحاديث كثيرة، يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٥-٢٨٦].

فقد روى مسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ اليَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا اليَوْمَ. فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا اليَوْمَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا، لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ البَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ»[1]. وروى البخاري أن الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ، مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»[2].

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٩٨ رقم ٨٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٨٤ رقم ٤٠٠٨)، ومسلم (٢/ ١٩٨ رقم ٨٠٧).

وقد علَّمنا الله في آخرهما أدعية عظيمة، منها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾. يقول ابن كثير: «فقوله: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ أي: فيما بيننا وبينك يا رب، مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا، ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ أي: فيما بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة، ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ أي: فيما يستقبل، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر؛ لهذا قيل: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده، فلا يفضحه بينهم، وأن يعصمه، فلا يوقعه في ذنب آخر».

فيا رب اعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

ختام القلادة الرابعة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾:

– قبل الذنب تذكر: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وتذكر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [المُلك: ١٢]، ثم اعلم: أن «النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل». (الشافعي).

وأن: «من راقب الله في خواطره عصمه في حركات جوارحه». (ابن القيم).

و«أن مشقة الطاعة تذهب ويبقى أجرها، ولذة المعصية تذهب ويبقى وزرها». (الطنطاوي).

فإن وقعت في الذنب، فبادر بالتوبة، وتذكر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وتذكر: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وتذكر: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، و﴿وَإِذَا جَآءَكَ

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: ٥٤]. فإن أصررت وأسرفت وأتبعت الذنب بالذنب، وغلبتك نفسك والشيطان، نقول لك:

يا من عدا ثم اعتدى ثم اقترف ... ثم انتهى ثم استحى ثم اعترف
أبشر بقول الله في آياته ... إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

فلا قنوط ولا يأس، وأنت تسمع نداء الله الذي وسعت رحمته كل شيء: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا...﴾ [الزُّمَر: ٥٣]، فإن تبت فأبشر، فالله يفرح بتوبة عبده، بل ويبدل السيئات إلى حسنات، ويكفيك: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وما أجمل ما قال الربيع لأصحابه: «تدرون ما الداء والدواء والشفاء؟ قالوا: لا، قال: الداء الذنوب، والدواء الاستغفار، والشفاء أن تتوب ثم لا تعود، فإن اجتمعت عليك أيها المبارك نفسك الأمارة والشيطان والهوى، ففرق جمعهم بذكر الله، وتذكر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]».

نسأل الله أن يجعلنا جميعًا من المتقين الذاكرين له كثيرًا، وأن يرزقنا توبة نصوحًا قبل لقائه، فلا حول ولا قوة لنا إلا به، وهو سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حسبنا ونعم الوكيل.

القلادة الخامسة

الوقفة الأولى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. أما بعد:

فيا أيها الأحبة: علمني ربي من خلال كتابه وآياته: أن أتفكر في مخلوقاته العظيمة في الكون، ثم أستدل بها عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعلى وحدانيته:

إن لم تكن عيني تراك فإنني في كل شيء أستبين عُلاكا

علمني ربي أن أتفكر في خلق السماوات بارتفاعها وصفائها، وما فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة، فأستدل بها على قوته وعظمته، وعلمني ربي أن أسير في الأرض، فأتأمل في خلقها وبسطها، وما فيها من السهول والقفار، والزروع والأشجار، والأزهار والثمار، وأن أرى أنواع الأسماك في الأنهار، والحيتان في البحار، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان، فأستدل بذلك كله على سعة علمه، وبديع صنعه، وكمال قدرته، وعلمني ربي أن أتأمل في الماء الذي ينزل من السماء، فتنبت به الحدائق الغنية، والبساتين البهية، بورودها وأشجارها، وثمراتها وألوانها، وكيف جُعلت الأرض ساكنة، ثابتة بالجبال الرواسي، لا تميد ولا تتحرك، وجُعل خلالها الأنهار، باختلاف أحجامها وطرق سيرها، وجُعل بين البحرين العذب والملح

حاجزًا، فلا يفيض بعضها على بعض، فكل ذلك دلائل فضله وجوده ورحمته، وعلمني ربي أنه هو وحده من يجيب المضطر، ويكشف الضر، ويجعلنا خلفاء الأرض، ويهدينا في ظلمات البر والبحر، ويرسل الرياح بُشرًا بين يدي رحمته، ويرزقنا من السماء والأرض، ويبدأ الخلق ثم يعيده، وأن جميع ما ذكرناه وما نراه، كل ذلك دلائل عظمته، وشواهد وحدانيته، ثم بعد ذلك كله يأتي التساؤل العظيم: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ...﴾ [لقمان: ١١]، فلا إله إلا الله، أفبعد هذا كله يُعبد غيره، ويُدعى سواه! لا والله، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عما يشركون:

تأمّل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد كان فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وما أجمل عرض الآيات في سورة النمل التي بينت ذلك، وما أجمل بيانها وتفصيلها، فإن لاقينا أيها الأحبة ملحدًا، أو مشككًا أو مشركًا، فلنقرأ عليه قول الله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩-٦٤]، عند ذلك بُهت المشركون بالله وافتضحوا، وظهر كذبهم وافتراؤهم، وزيغهم وضلالهم، وعلموا وعلم كل أحد قرأ تلك الآيات وله عقل وقلب وبصيرة أن الله خالق كل شيء،

وأنـه لا إله إلا الله، وأن لا معبود بحق سـواه. ولنعلـم أيها الكرام أن الله عَزَّوَجَلَّ قد أثنى في أثناءِ أعظم كتاب وأجله على قوم فوصفهم بأولي الألباب، فقال جلّت قدرته، ووسع كل شيء علمـه ورحمتـه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

لّمـا رأوا قدرتـه الباهـرة في المخلوقـات العظيمـة حولهـم، علموا أنهـم لا طاقة لهم بعذابه، فأول ما سألوه أن يقيهم عذاب النار، فنسأل الله أن يقينا عذابه يوم يبعث عباده.

وقبل ختام الوقفة: هناك -والله أعلم- مناسبات عجيبة بين أواخر الآيات وأولها، فحين ذكر الله خلق السماوات والأرض وإنزال المطر وإنبات الأرض، وأنهم لولا ذلك لما اسـتطاعوا أن ينبتوا الأشـجار، ذكر ظلمهم، وأنهم يجعلون لله عدلًا، فقال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، وكيف يعدلون من هذا خلقه وفعله، بمن لا يخلق ولا يسـقي ولا ينبت، ولا يسـتطيع فعـل شيء من ذلك!، ثم لما ذكـر الله الأرض وثباتها، ومـا فيها من الأنهار والجبـال، وكيـف جعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بـين البحرين حاجزًا، بـيّن جهلهم وعـدم علمهم، فقـال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وذلـك -والله أعلـم- لأن المذكـور في الآية يحتاج إلى علم واطلاع ومعرفة ومشـاهدة، وسـير في الأرض، ثم لما ذكر الله إجابته للمضطريـن، ذكـر قلـة تذكرهم لذلـك، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، فكـم وكم نجاهم ربهـم مـن المهالـك حين دعوه في البـر والبحر، فهم في الشـدائد لا يدعـون إلا الله، فإذا نجاهم أشركوا، ومع ذلك قليلًا ما يتذكرون. ولما ذكر عَزَّوَجَلَّ هدايته لخلقه في ظلمات البر والبحـر وإرسـال الرياح بالخير والرحمة، نزه نفسـه جَلَّوَعَلَا عن الـشركاء ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، الذيـن لا يهدونهم لـشيء، ولا ينفعونهم ولا يـضرون، بل لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، ثم في آخر الآيات ذكرهم الله بنعمته عليهم، وأنه كما بدأ الخلق فإنه يعيده، وأنه هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يرزقهم من السماء والأرض، بالماء والنبات، فناسب بعد

ذلك كله، أن يبين كذبهم وباطلهم، وأن يفضحهم بين الخلائق بشركهم، فطالبهم إن كانوا صادقين في وجود آلهة أخرى كما زعموا، أن يأتوا ببرهان ودليل على صحة ذلك، وأن آلهتهم تستطيع بدأ الخلق أو إعادته، أو إنزال المطر من السماء أو إخراج النبات من الأرض، أو فعل أي شيء مما ذكر في الآيات، ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾، حينئذ ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، و﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، عمَّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

* **إشراقة**[1]: **رسالة المسلم المخلص لله:**

الفساد جريمة منكرة، تحاربها كل الأديان والقوانين والمبادئ، والشرك فساد؛ لأنه تحول عن الطريق الواضح في إخلاص العبادة لله، والإلحاد فساد؛ لأنه انحراف بالفطرة الصادقة السليمة المدركة لوجود خالق مدبر، ملأ هذا الكون بالآيات والدلائل على وجوده وقدرته وشمول علمه، والخروج على إجماع المسلمين فساد؛ لأنه يحكي شذوذ الخارج وحقده وأنانيته، فالجماعة تفرض الود، والتناصر، والإخاء، ويد الله مع الجماعة، ولا يأكل الذئب من الغنم إلا القاصية، وهي رسالة المسلم المخلص لله، والعامل من أجل دينه ووطنه وولاة أمره، فلا تتهاونوا في أدائها، فنحن نبني ولا نهدم.

* * *

الوقفة الثانية: فهلا جلس في بيت أبيه وأمه

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في التحذير من الغلول، وأخذ الأموال بغير حق: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، وقد ورد في السنة أن

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعمل رجلًا على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم، وهذا أهدي لي، فقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المنبر، فقال: «مَا بَالُ العَامِلِ نَبْعَثُهُ، فَيَأْتِي يَقُولُ: هَذَا لَكَ وَهَذَا لِي، فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَيَنْظُرُ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لَا؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ: إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ...»[1]، وفي هذا تحذير شديد من أكل المال بالباطل، وأخذ المال العام بغير وجه حق، والخيانة في ذلك، وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩]. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآية: «ينهى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضًا بالباطل؛ أي: بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية؛ كأنواع الربا والقمار -والرشوة- وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل، وإن ظهرت في قالب الحكم الشرعي، مما يعلم الله أن متعاطيَها، إنما يريد الحيلة على الربا».

وبحمد الله تشهد المملكة حاليًا في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز، وولي عهده الأمين الأمير محمد بن سلمان خريطة طريق لمكافحة الفساد، لتكون مرتكزًا رئيسًا لرؤية المملكة الرامية إلى تنفيذ الإصلاحات على جميع المستويات، والحد من أخطار الفساد.

فنسأل الله أن يبارك في جهودهم، ويكللها بالنجاح.

* **ومضة: ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا:**

دعوة عظيمة غفلنا عنها: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٤ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٤-٥].

(١) أخرجه البخاري (٢/ ١٣٠ رقم ١٥٠٠)، ومسلم (٦/ ١١ رقم ١٨٣٢).

أي: لا تُظهر الكفار يا ربي علينا، فيرون حالنا على الضعف والهزيمة والنزاع، فيفتنون بنا، ويصدهم ذلك عن الإسلام، ويقولون لو أن هذا هو الدين الصحيح لما كان حال هؤلاء كما نرى، وجاء ختام الآيات بالاسمين العظيمين: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، على الرغم من أن آخرهما تضمن طلبًا للمغفرة؛ وذلك لما في الاسمين من القوة والعزة، فالله قادر على أن ينصر المسلمين على الكفار في كل مجال، وفي كل شأن، فهو: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. والله أعلم.

فنسأل الله أن يعز الإسلام والمسلمين، وأن يكشف الغُمة، وأن يحفظ علينا في هذه البلاد ولي أمرنا خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز، وولي عهده الأمين الأمير محمد بن سلمان، وأن يجمع بهم كلمة المسلمين، وينصرهم على عدوهم نصرًا مؤزرًا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

* * *

الوقفة الثالثة: فضل الشهادة

قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿... وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤-٦]. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الشهداء: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ القَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا، حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا»[1]. وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا

(١) أخرجه مسلم (٦/ ٣٨ رقم ١٨٨٧).

في الحديث الصحيح: «مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ لَهَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ يَسُرُّهَا أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا، وَلَا أَنَّ لَهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، إِلَّا الشَّهِيدُ، فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ، فَيُقْتَلَ فِي الدُّنْيَا، لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ»(١)، وقد روى ابن جرير الطبري عن أبي الدرداء أنه كان يقول: «ما من مؤمن -يموت- إلا والموت خير له، وما من كافر -يموت- إلا والموت خير له، ومن لم يصدقني فليقرأ قول الله: ﴿...وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وصدق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

وفي ذلك بشرى للمجاهدين في سبيل الله بحق، وبالشروط التي بينها، وأوضحها القرآن والسنة، لا قتال الفتن، والرايات العمية، وهي أيضًا بشرى لجنودنا البواسل في الحدود، و﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٥-٦].

نعم، لن يضيع أجرهم بإذن الله، فيعرف كل واحد منهم طريق قصره ومكانه، وبيته في الجنة، أكثر من معرفته بطريق بيته في الدنيا، فنسأل الله القوي القدير، أن ينصر جنودنا المرابطين على الحدود، وأن يشفي جرحاهم، وأن يرحم موتاهم، وأن يكتبهم في عداد الشهداء، وأن يفرح قلوبنا بنصرهم عاجلًا غير آجل، إنه ولي ذلك القادر عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* **ختام القلادة الخامسة**: ما يسرني أن لي بها الدنيا

روى الحاكم في مستدركه بإسناد صحيح عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إن في سورة النساء لخمس آيات، ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها، قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٧ رقم ٢٧٩٥)، ومسلم (٦/ ٣٥ رقم ١٨٧٧).

﴿ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [النساء: ٣١]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله: ﴿... وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ٦٤]، وقوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١١٠]، قال عبدالله: ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها»[1].

وسبب اختياره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهذه الآيات -والله أعلم-، أنها اشتملت على العدل والرحمة، فقد دلت على عدل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، واحتوت على رحمة واسعة، تُعلق القلوب برحمة علّام الغيوب وفضله وكرمه، وفي السنة من الآثار والأحاديث الكثيرة ما يعضد ذلك ويؤكده، ففي الآية الأولى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ، وَأَمَّا الكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لله فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا»[2]، وفي الآية الأخيرة: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١١٠].

روى الإمام أحمد عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت إذا سمعت من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وحدثني أبوبكر -وصدق أبو بكر- قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، فَيَتَوَضَّأُ، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٠٥ رقم ٣٢١٣). وقال: «هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ إِنْ كَانَ عَبْدُالرَّحْمَنِ سَمِعَ مِنْ أَبِيهِ، فَقَدِ اخْتُلِفَ فِي ذَلِكَ».

(٢) أخرجه مسلم (٨/ ١٣٥ رقم ٢٨٠٨).

إِلَّا غَفَرَ لَهُ». ثم قرأ قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ...﴾ [آل عمران: ١٣٥]»[1].

ختامًا: قيل للحسن البصري: ألا يستحي أحدنا من ربه، يستغفر من ذنوبه ثم يعود، ثم يستغفر ثم يعود؟! فقال: ود الشيطان لو ظفر منكم بهذه، فلا تملوا من الاستغفار. وفي السنة الصحيحة ما يؤكد هذا المعنى. فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، ونتوب إليه.

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٢/ ٣٧١ رقم ١٢١١)، والنسائي في الكبرى (٩/ ١٥٩ رقم ١٠١٧٧)، والترمذي (٥/ ١٠٧ رقم ٣٠٠٦)، وأبو داود الطيالسي (١/ ٤ رقم: ١)، والطبراني في المعجم الأوسط (١/ ١٨٥ رقم ٥٨٤). وقد صححه الألباني. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧/ ١١٧٩).

القلادة السادسة

الوقفة الأولى: تحكيم الكتاب والسنة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١]، وأصلي وأسلم على خير خلق الله إيمانًا وعملًا وخلقًا، وعلى آله وصحابته أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فيا أيها الكرام، لقد ذم القرآن الكريم الذين يدّعون الإيمان، ثم يتحاكمون إلى غير الكتاب والسنة كالمنافقين، وفضحهم، قال ربنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، أي: فكيف إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم، واحتاجوا إلى الرجوع إليك، ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢]، أي: يعتذرون إليك، ويحلفون ما أردنا بالذهاب إلى غيرك، وتحاكمنا إلى سواك إلا الإحسان والتوفيق، أي المداراة والمصانعة، لا اعتقادًا منا بصحة تلك الحكومة، وكذبوا والله، وما أشبه هؤلاء بمن يُعرض اليوم عن شرع الله وسنة نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويدعها خلف ظهره، ثم يحكم بالقوانين الوضعية القاصرة الناقصة، فما عذر هؤلاء، وهم يسمعون كلام ربهم، نسأل الله العافية والسلامة. وقد جاء عقب هذه الآيات بقليل قوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿فَلَا

﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقد قال بعض أهل العلم: «تحكيم النبي ﷺ وسنته في جميع أمورنا مقام إسلام، وعدم وجود الحرج والتسليم بحكم النبي ﷺ مقام إيمان، والرضا بحكم النبي ﷺ وسنته ومحبة ذلك مقام إحسان» والله أعلم.

وقد جاء الأمر صريحًا برد الأمور إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ورسوله ﷺ فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، قال ميمون بن مهران: «الرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى النبي ﷺ هو رد إلى شخصه في حياته وإلى سنته بعد مماته ﷺ». وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

والحمد لله الذي منَّ علينا في بلادنا الطاهرة المملكة العربية السعودية بقيادة خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز حفظه الله وولي عهده الأمين الأمير محمد ابن سلمان حفظه الله بتحكيم الشريعة الإسلامية، وهي من الأسس الراسخة الثابتة، التي أثبتها بناة هذه الدولة وقادتها في النظام الأساسي للحكم .

ختامًا: على المؤمن الصادق الحذر من الوعيد لمن علم أوامر الله ورسوله ثم خالفهما، يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، قال ابن كثير: «أن تصيبهم فتنة، تعني: كفر أو نفاق أو بدعة». فالإيمان حقيقةً، هو الرجوع إلى الله ورسوله، والرضا والتسليم بذلك. نسأل الله أيها الأحبة أن يطهر قلوبنا من النفاق، وأعمالنا من الرياء، وألسنتنا من الكذب، وأعيننا من الخيانة، وأن يقينا شر

الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يوفقنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للعمل بشرعه وبسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل شؤونا وأحوالنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على نبينا محمد.

* **إشراقة[1]: أهداف المخلصين:**

الحياة بلا هدف تافهة، لا قيمة لها، والهدف الذي لا يتخذ أصحابه إليه طريقًا واضحة -في حزم وقوة- سيظل بعيدًا عنهم، حتى تطويهم أعمارهم دونه، هذه حقيقة لا تقبل الشك، إلا إذا كنا نشك في ضوء الشمس، أو لمعان القمر.

ولكن كم في الأحياء من يعيش حياته «كالآلة»، التي تأخذ مكانها في هيكل المحرك -مثلًا- تظل تعمل حتى يدركها التلف، فتسقط لتأخذ مكانها قطعة أخرى، أعني أن في كل مجتمع وأمة «نوعًا» من البشر يعيشون على هامشها، لم يكلفوا أنفسهم بحث واقعهم، والتعرف على دورهم وواجبهم، يظنون الحياة طعامًا وكساء، وحصرًا للنفس في إطار من الكماليات البراقة، وهم في سبيل هذا الهدف القصير يبذلون في سخاء عجيب كل جهودهم وإمكانياتهم، بل أخلاقهم، صلتهم بمجتمعهم وآلامه ومشكلاته بين واهية ومبتورة، تسمع أقوالهم وآمالهم، فتحكم بها عليهم، لكنك لن تذهب غير بعيد، حتى تراهم في أوضاع تغاير ما قالوه، وما تظاهروا بالدعوة إليه، نحن إذًا في أزمة، أزمة مبادئ وصدق وثبات.

ونبينا صلوات الله وسلامه عليه سجل بجهاده الكريم أروع انتصار عرفه التاريخ؛ لأنه -وقد تمثل هدفه الكبير- أخلص في السعي له، فهو خير قدوة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للجهاد الصادق، والصبر الكريم، والإخلاص المتوقد.

وبعد: فما أتفه واقعنا إن لم نتمثل -هدفًا كبيرًا- فيه (نصرة) دين الله، وحمايته من أعدائه والكائدين له، و(حب) الخير عامًّا شاملًا، نتجاوز به كل حقد، ونسحق

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

بهديـه كل ضغينـة، ونوحد به بـين الصفوف والقلوب، و(رغبـة) صادقة في الإصلاح، والاستعداد لبذل النفس والمال في سبيل إقراره وتحقيقه.

هذه هي أهداف (المخلصين)، فهل تتفق مع أهدافنا ومبادئنا؟

* **إشراقة[1]: رسالة إلى الشباب:**

وما زلت أذكر كلمة قالها (داعية مسلم) في أحد مواسم الحج السالفة، وهو يتحدث عـن دور هذه المملكة في حماية الإسـلام والدعوة إليه، قـال: «إن بلادكم بكل حدودها مسجد، المسلمون يتجهون إليه بقلوبهم وأشخاصهم، ومحبتكم فرض، وأعمالكم قدوة، وشـبابكم مطالب بحماية الدين، وإبلاغه، والدعوة إليه، وعليكم إعداده لهذه الرسالة، رسـالة المسـتقبل، وسـينتصر الإسـلام بكم بإذن الله، كـما انتصر في فجره مـن ربوعكم الطاهرة الطيبة».

* * *

الوقفة الثانية: الإشاعات ونقلها دون تحقق

يقـول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]، قـال ابـن كثـير: «في الآيـة إنـكار عـلى مـن يبـادر إلى الأمور قبل تحققهـا، فيخبر بها ويفشـيها وينشرها، وقـد لا يكون لها صحـة، وفي الحديـث الصحيـح «كَفَى بِالمَـرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَـدِّثَ بِكُلِّ مَا سَـمِعَ»، وقد نهى الرسـول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عـن قيل وقـال، أي: الذي يكثـر من الحديث عما يقـول الناس من غـير تثبـت، ولا تدبر، وجاء أيضًا في الحديث الصحيح عَنْ عُمَـرَ، قَالَ: «كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

لِي مِنَ الأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بن زَيْدٍ، وَهِيَ مِنْ عَوَالِي المَدِينَةِ، وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يَنْزِلُ يَوْمًا، وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ اليَوْمِ مِنَ الوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَنَزَلَ صَاحِبِي الأَنْصَارِيُّ يَوْمَ نَوْبَتِهِ، فَضَرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا، فَقَالَ: أَثَمَّ هُوَ؟ فَفَزِعْتُ، فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ، قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ، فَإِذَا هِيَ تَبْكِي، فَقُلْتُ: طَلَّقَكُنَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَتْ: لَا أَدْرِي. ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ وَأَنَا قَائِمٌ: أَطَلَّقْتَ نِسَاءَكَ؟ قَالَ: لَا. فَقُلْتُ: اللهُ أَكْبَرُ[1]، وفي رواية: «فَقُمْتُ عَلَى بَابِ المَسْجِدِ، فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: لَمْ يُطَلِّقْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الأَمْرَ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ آيَةَ التَّخْيِيرِ[2].

ومعنى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ أي: يستخرجونه -ويستعملونه- من معادنه؛ لذا ينبغي التثبت في مثل هذه الأمور، وعدم نقل الإشاعات ونشرها عبر وسائل التواصل، لكيلا يترتب على ذلك خوف الناس أو اضطرابهم أو غير ذلك من الفتن والشرور، بل ينبغي للمؤمن الصادق العامل بكتاب الله والمتبع لهدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرجوع في ذلك إلى العلماء الراسخين، وإلى أهل الحل والعقد، ليتبين الأمر قبل نشره، والله هو الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

* **ومضة: العلم والحكمة:**

ما أجمل العلم إذا اقترن بالحكمة.

العلم إذا تزين بالحكمة، أثر في القلوب، والعالم والداعية إذا لم تدركه الحكمة، أساء إلى علمه ودعوته من حيث أراد نفعها ونشرها.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢٩ رقم ٨٩).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٨ رقم ١٤٧٩).

فما أجمل التأني واستعمال الحكمة في الأمور المهمة وإن أتى القول أو الفعل الجميل متأخرًا بعض الشيء؛ وقد قيل: «أبطأ الدلاء فيضًا أملأُها، وأثقل السحائب مشيًا أحفلها، وأنفع الحيا ما صادف جدبًا، وألذ الشراب ما أصاب غليلًا». قال الشاعر:

أو ما ترى أن النبي محمدا فاق البرية وهو آخر مرسل

ونحن اليوم أيها الأحبة في زماننا هذا أحوج ما نكون إلى من يعلم الحكمة، ويكون قدوة فيها، فيقتدي به الناس في كل شؤونهم، في أقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم، وتلك والله نعمة جليلة وفضل عظيم، تأمل قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿**يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ»، وذكر منهما صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»[1]. نسأل الله من فضله.

ومن أمثلة الحكمة في القول، ما ورد عن محمد بن علي بن أبي طالب «ابن الحنفية» أنه سُئِل: ما بال أبيك كان يرمي بك في مرامٍ لا يرمي فيها الحسن والحسين؟ قال: «لأنهما كانا خدّيه، وكنتُ يده، فكان يتوقى بيديه عن خدّيه».

ختامًا: يقول المُهلّب بن أبي صُفْرة: «يُعجبني في الرجل، أن أرى عقله زائدًا على لسانه».

* * *

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢٥ رقم ٧٣)، ومسلم (٢/ ٢٠١ رقم ٨١٥).

الوقفة الثالثة: الارتباط الوثيق بين الإيمان والعلم والعمل.

أيها الكرام، إن الفوز والنجاة والفلاح في الدنيا والآخرة مرتبط بالإيمان بالله والعمل الصالح، لا بالتمني والتحلي، ولكن ما وقر في القلوب من الإيمان، وصدقته الأعمال، فليس كل من ادعى شيئًا حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال: إنه محق سُمع قوله، حتى يكون له من الله برهان، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، أي: ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني، بل العبرة بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام. والإيمان الصادق في قلب المؤمن والعلم النافع لا بد أن يثمرا عملًا صالحًا وأخلاقًا فاضلة، ويدل على ذلك القرآن والسنة، فمن تأمل القرآن وجد أنه لا يكاد يذكر الإيمان إلا ويذكر العمل الصالح بعده مباشرة، يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، ويقول عز وجل: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]، والقرآن مليء بتلك الآيات العظيمة، ودلت السنة أيضًا على ذلك في كثير من الأحاديث الصحيحة، منها:

- قوله: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»(١).
- وقوله: «دَعْهُ فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ»(٢).
- وقوله: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»(٣).

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٢ رقم ١٣)، ومسلم (١/ ٤٩ رقم ٤٥).
(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٤ رقم ٢٤)، ومسلم (١/ ٤٦ رقم ٣٦).
(٣) أخرجه البخاري (٧/ ٢٦ رقم ٥١٨٥)، ومسلم (١/ ٤٩ رقم ٤٧).

فالإيمان -كما قال أهل العلم-: قول وعمل، ومن تأمل مثلًا آيات سورة الحجرات الدالة على مكارم الأخلاق، علم يقينًا أنه لا انفكاك البتة بين الإيمان من جهة والأخلاق الحسنة والعمل الصالح من جهة أخرى، وما يؤرقنا في عصرنا الحاضر هو غياب تلك الرابطة القوية بين الإيمان والعمل، وبين الإيمان والأخلاق، وعدم ظهور أثر الإيمان لدى بعض الأفراد على أرض الواقع خُلقًا وعملًا. فنسأل الله أن يردنا إليه ردًّا جميلًا.

ختامًا: العمل الصالح بمفهوم الواسع يشمل كل ما فيه خير للعبد في الدنيا والآخرة، فيشمل العبادات والطاعات وأعمال القلوب وعمل المؤمن في متجره أو مصنعه أو مكتبه إذا صاحب ذلك نية طيبة بنفع نفسه وإخوانه ووطنه وأمته، ومن أمثلة العمل الصالح الذي رتب الله عليه الأجور العظيمة يوم القيامة، الإصلاح بين الناس؛ وقبل الحديث عن ذلك هنا نقطة مهمة جدًّا: إذا أردت أيها المبارك أن يخف عليك العمل الصالح، وأن تنشط له، اقرأ عن الأجور العظيمة التي رتبها الله على فعل ذاك العمل في الدنيا والآخرة»؛ فالإنسان إذا لم يعلم ثواب الأعمال، ثقلت عليه ووجدها شاقة». ثم إذا علمت الأجور، اعلم أيضًا أنه لا بد من جهاد النفس، يقول قتادة: يا ابن آدم، إن كنت لا تريد أن تأتي الخير إلا بنشاط، فإن نفسك للسآمة وللفترة وإلى الملل أميل، ولكن المؤمن هو المتحامل، والمؤمن هو القوي. أما الإصلاح الذي ذكرناه، فيقول رسول الله ﷺ في بيان عظيم ثوابه: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ»[1]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿**لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١١٤]، أي: مخلصًا محتسبًا ثواب ذلك عند الله فله الأجر العظيم، فنسأل الله من فضله.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٤٣٢ رقم ٤٩١٩)، والترمذي (٤/ ٢٧٩ رقم ٢٥٠٩). وقال الترمذي: «صَحِيحٌ». ينظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود: (٤/ ٤٣٢).

* **ختام القلادة السادسة**: من أقوال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

قال الليث بن سعد: كتب رجل إلى ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن اكتب إليَّ بالعلم كله فكتب إليه: «إن العلم كثير؛ ولكن إن استطعت أن تلقى الله خفيف الظهر من دماء الناس، خميص البطن من أموالهم، كافَّ اللسان عن أعراضهم، لازمًا لأمر جماعتهم فافعل»[1]. وأخلص والله في نصحه.

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٢٢).

القلادة السابعة

الوقفة الأولى: أمر الله بالوفاء والعدل.

الحمد لله الذي لا تغيض ينابيع فضله، ولا تضطرب موازين عدله، أحمده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حمدًا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد: فيا أيها الكرام:

العدل منزلته عظيمة في ديننا الحنيف، ولقد أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ به في كتابه العزيز مع كل أحد وفي كل وقت وحين، تأملوا قول ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٢]، أي: وإن كنتم تبغضونهم، وإن كانوا قد صدوكم عن المسجد الحرام عام الحديبية، فلا تتجاوزوا حكم الله فيهم، فتقتصوا منهم ظلمًا وعدوانًا، بل احكموا بما أمر الله به من العدل في حق كل أحد، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل، وقد أمر الله به، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقد التزم ذلك عبدالله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين أرسله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليخرص تمر خيبر من اليهود، فقال: «والله لقد جئتكم من أحب الناس إليَّ، ولأنتم أبغض الناس إليَّ، ولا يمنعني حبي له، وبغضي لكم من أن أعدل معكم»، فبالعدل قامت السماوات والأرض.

وقد قلّ ذلك في زماننا إلا من رحم الله، حتى بين المؤمن وأخيه، فإن كانت بينهما شحناء، أو حسد أقران، أو غير ذلك، لم تجد الإنصاف والصدق والعدل، وتأمل هذا المثال الناصع، ليكون قدوة لنا في أحكامنا وآرائنا على إخواننا:

ترجم الذهبي في سير أعلام النبلاء لابن حزم، فقال ضمن ترجمته -وتأمل الصدق والعدل-: «ولي -أنا- ميلٌ إلى أبي محمد، لمحبته في الحديث الصحيح، ومعرفته به، وإن كنت لا أوافقه في كثير مما يقوله في الرجال والعلل، والمسائل في الأصول والفروع، وأقطع بخطئه في غير ما مسألة، ولكن لا أكفره، ولا أضلله، وأرجو له العفو والمسامحة وللمسلمين، وأخضع لفرط ذكائه، وسعة علومه»[1].

وقال الذهبي في موضع آخر: «ولو أن كلّ من أخطأ في اجتهاده -مع صحة إيمانه وتوخيه لاتباع الحق- أهدرناه، وبدّعناه، لقلّ من يسلم من الأئمة معنا، رحم الله الجميع بمنّه وكرمه»[2].

وإذا علمنا أن الله جَلَّجَلَالُهُ قد أمر بالعدل حتى مع المشركين وإن كان بيننا وبينهم شنآن وبغض، فكيف بالمسلمين، والمأمول بيننا وبينهم الحب والمودة!

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من قال في الناس بغير علم، فقد خالف قول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، ومن قال في الناس بغير عدل، فقد خالف قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]».

ومن جميل قوله أيضًا: «العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق، ومتى لم تقم بعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة»[3]. وأقول: فكيف لو اجتمع إيمان وعدل وتقوى.

---

(١) سير أعلام النبلاء، (١٨/ ٢٠١-٢٠٢).
(٢) سير أعلام النبلاء، (٣/ ٥٩١).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٤٦)

ختامًا: قال رجاء ابن حيوة: «إن أردت النجاة غدا من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت إن شئت».

نسأل الله أن يوفقنا للقيام بما يحب ويرضى من العدل والوفاء، مع أهلينا وأبنائنا وإخواننا، ومع الناس جميعًا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

* **إشراقة**[1]: **الطهر، والنقاء، والاستقامة:**

لم نعد في عزلتنا فلقد التقينا بالعالم كله، وأصبحت بلادنا -والحمد لله- موضع الإعجاب والتقدير، والتقينا بالألوف في موسم الحج وغيره، وعادوا ليؤكدوا كذب ما سمعوا من ادعاء، وصدق ما رأوا من واقع.

وكان طبيعيًّا أن نأخذ مقاعدنا في المؤتمرات والمحافل الدولية وتم ذلك، لكني بدافع حبي لديني ومليكي ووطني أجد رغبة في الحديث إلى كل من يسعد بتمثيل بلادنا وبالتحدث باسمها، فأقول: كن يقظًا لرسالتك ومسئوليتك، فأنت في كل ما تفعل تعكس صورة لوطنك ودينك ومجتمعك.

* **إشراقة**[2]:

المنازل مدارسنا الأولى يجب أن تحتفظ بدورها بأمانة وحرص، وإلا فلا يدهشنا كل ما نلقى من المتناقضات والأشكال المتباينة ما بين أوضاعنا من جهة وبين رسالتنا من جهة أخرى.

* * *

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٢) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الوقفة الثانية: دعاء يفتح أبواب الجنة.

روى مسلم وغيره في السنة عَنْ عُقْبَةَ بن عَامِرٍ قَالَ: كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَةُ الإِبِلِ، فَجَاءَتْ نَوْبَتِي فَرَوَّحْتُهَا بِعَشِيٍّ، فَأَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمًا يُحَدِّثُ النَّاسَ، فَأَدْرَكْتُ مِنْ قَوْلِهِ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، قَالَ: فَقُلْتُ: مَا أَجْوَدَ هَذِهِ، فَإِذَا قَائِلٌ بَيْنَ يَدَيَّ يَقُولُ: الَّتِي قَبْلَهَا أَجْوَدُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا عُمَرُ قَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ جِئْتَ آنِفًا، قَالَ: مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ – أَوْ فَيُسْبِغُ – الوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عبدالله وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»[1]. وزاد الترمذي: يقول بعد التشهد: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ»[2].

أمر الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين بالوضوء في القرآن للصلاة؛ فالوضوء شأنه عظيم في ديننا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فضل الوضوء: «إِذَا تَوَضَّأَ العَبْدُ المُسْلِمُ أَوِ الْمُؤْمِنُ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ، خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ المَاءِ –أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ–، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ المَاءِ –أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ–، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ المَاءِ –أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ–، حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ»[3]. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٤٤ رقم ٢٣٤).
(٢) أخرجه الترمذي (١/ ٩٩ رقم ٥٥). وصحح الزيادة الألباني. ينظر: رياض الصالحين (ص: ٣٩٦).
(٣) أخرجه مسلم (١/ ١٤٨ رقم ٢٤٤).

بِـهِ الخَطَايَـا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُـولَ اللهِ، قَالَ: «إِسْـبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى المَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الخُطَا إِلَى المَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»[1]، وقال أيضًا ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالحَمْدُ لله تَمْلَأُ المِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ لله تَمْـلَآنِ -أَوْ تَمْلَأُ- مَا بَيْنَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُـورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا»[2].

فلنحرص أيها الكرام على أن يكون القرآن حجة لنا لا علينا بالعمل به، ولنحرص أيضًا على المحافظة على الصلاة والوضوء والدعاء، ولنسأل الله دائمًا أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، فلا سبيل إلى نيل كرامته إلا بطاعته، ولا معونة على طاعته إلا بتوفيقه.

* **ومضة: استثمار المواهب والنعم في الدعوة إلى الله:**

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه رجلًا محبوبًا، ذا نسـب رفيع، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه، لعلمه وخلقه وتجارته وحسـن عشرته، فاسـتثمر ذلك كله في الدعوة إلى الله، فكانت النتيجة إسـلام خمسـة من العشرة المبشريـن بالجنة في أوائل أيـام الدعوة، وهم: عثمان والزبير وعبدالرحمن وسعد وطلحة رضي الله عنهم.

ولنتأمل قصة أخرى تُظهر إخلاص أبي بكر لمولاه، وشكره له على نعمه من النسب والمال والجاه:

كان أبو بكر يشتري الإماء والعبيد رضي الله عنهم أجمعين، الذين كانوا يعذبون من قريش، ثـم يعتقهـم جميعًا بلا مقابل، فعاتبه أبوه يومًا قائلًا: أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أعتقت رجـالًا جُلـدًا -أقوياء- لمنعـوك، فقال أبو بكـر: «إني أريد وجـه الله»، فعلم ربه صدق قلبـه وإخلاصـه، فكان الثواب قرآنًا يتـلى إلى يوم القيامة، فيه البشـارة بنجاته من النار،

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٥١ رقم ٢٥١).
(٢) أخرجه مسلم (١/ ١٤٠ رقم ٢٢٣).

والشهادة بتقواه، والثناء على بذله وإخلاصه، والوعد برضاه يوم يلقاه، وهذا والله هو الفضل العظيم، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧-٢١].

والسؤال هنا: هل استثمرنا ما وهبنا الله إياه من النعم «في نسب أو مال أو جاه أو غير ذلك» في الدعوة إلى الله، ونشر الخير بين الناس؟

اللهم استعملنا في طاعتك، واستخدمنا في نصرة دينك وإعلاء كلمتك، وشرفنا بالدعوة إليك، ونشر الخير بين الناس، واهدنا واهدِ بنا، وزدنا هدى، واجعلنا سببًا لمن اهتدى.

* * *

الوقفة الثالثة: عِظم شأن الحدود.

أيها الأحبة، جاء أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليشفع في المرأة المخزومية التي سَرقت، -في القصة المشهورة- فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مغضبًا: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ؟!» ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[1].

وقد دلت القصة، ودل غضب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عظم شأن الحدود، وضرورة العدل في تطبيق شرع الله على كل أحد، وتحريم التفريق في ذلك ما بين غني وفقير، وما بين صاحب نسب وغيره.

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٧٠ رقم ٢٦٤٨)، ومسلم (٥/ ١١٤ رقم ١٦٨٨).

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن صاحب الشرف والنسب في الدنيا يكون ذمه على تخلفه عن الواجب أعظم، يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

وتأمل ما قاله نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل بيته: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا. اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا. يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا. يَا عَبَّاسُ بن عبدالْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا. وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا. وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»[1]، هذا ما قاله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جبل الصفا في أوائل دعوته.

فليحذر من اتكل على نسبه بلا تقوى وطاعة وخير، وليتذكر قول الله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

ولله در القائل:

عليك بتقوى الله في كل حالة ... ولا تترك التقوى اتكالا على النسب

فقد رفع الإسلام سلمان فارس ... وقد وضع الكفرُ النسيبَ أبا لهب

وأحسن من ذلك قول الحبيب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر الحديث الصحيح: «مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[2].

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٦ رقم ٢٧٥٢)، ومسلم (١/ ١٣٣ رقم ٢٠٤).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٧١ رقم ٢٦٩٩).

اللهـم إنـا خلقٌ مـن خلقك لا غنَى لنـا طرفة عين عن رحمتك وفضلـك، فوفقنا يا مولانا لاستعمال نعمك في مرضاتك، وبلغنا برحمتك أعالي جنانك.

* **ختام القلادة السابعة:** من قلائد الحكمة:

المـرء بآدابـه لا بثيابه، وبفضيلتـه لا بفصيلته، وبأنبائه لا بآبائـه، وبكماله لا بجماله، والحر لا يبالي بالجمال الظاهر، وإنما يباهي بالفعل الجميل والقلب الطاهر، فـ «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ، وَأَعْمَالِكُمْ»[1].

وقد قيل:

وما الحُسن في وجه الفتى شرف له ... إذا لم يكـن في فعلـه والخلائـق

وقال آخر:

ولسـت أعتدُّ للفتى حسبًا ... حتـى يُرى في فعاله حسـبُه

(١) أخرجه مسلم (٨/ ١١ رقم ٢٥٦٤).

القلادة الثامنة

الوقفة الأولى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾.

الحمد لله عدد كل رحمة غمرتنا، ولطف خفي غاب عنا، الحمد لله عدد كل نعمة، نسينا فلم نذكرها، وغفلنا فلم نشكرها، والصلاة والسلام على خير من وطئت قدماه الثرى، النبي المصطفى، وعلى آله وصحبه ومن سار على دربهم واقتفى. أما بعد:

فعَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بن سَعِيدِ بن وَهْبٍ الهَمْدَانِيِّ: أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَلَّا تُقْبَلَ مِنْهُمْ، ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١][1].

وقد روي عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لإن أستيقن أن الله قد تقبل لي صلاة واحدة، أحب إليَّ من الدنيا وما فيها، إن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]».

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٣٦ رقم ٣١٧٥)، وابن ماجه (٥/ ٢٨٧ رقم ٤١٩٨)، وصححه الألباني. ينظر: صحيح سنن الترمذي (٣/ ٢٨٧).

وورد أن رجلًا من السلف قرأ قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، فبكى، وقال: «يا خليل الرحمن ترفع قواعد بيت الرحمن، وتخشى ألّا يتقبل الله منك».

فالمؤمن الصادق أيها الأحبة، لا يأمن مكر الله ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ولا ييأس أيضًا من روح الله، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وكيف لا يخاف المؤمن، وخير من وطئت قدماه الثرى، الذي أرسله ربه بالتوحيد، قال الله له: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ﴾ [الزمر: ٦٥]، وكيف لا يخاف وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي كسر الأصنام خشي على نفسه وذريته، وقال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]؛ لذا كان ينبغي للمؤمن الانطراح بين يدي الله، وسؤال الله الثبات على ما يرضيه، حتى يلقاه، وليكثر من قول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». فقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر من قول هذا الدعاء، وهو خليل الرحمن، وأيضًا ينبغي عدم الاغترار بنعم الله، وسؤال الله العون على شكرها وأداء حقها، فكثرة المال والتنعم في الدنيا، لا يدل على رضا الله جَلَّ جَلَالُهُ، وأيضًا الفقر والابتلاء لا يدل على غضب المولى جَلَّ وَعَلَا، يقول الله في سورة الفجر: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

قال الله عَزَّوَجَلَّ بعدها مباشرة: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧]، أي: ليس الأمر كما ظننتم، بل قد يكون في البلاء رفعة للعبد مع الصبر والرضا، وقد تكون النعم استدراجًا، قال الحسن البصري: «من وسّع الله عليه فلم ير أنه يُمكر به، فلا رأي له، ثم قرأ قول الله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقال: مُكر بالقوم ورب الكعبة، أُعطوا حاجتهم، ثم أخذوا. رواه ابن أبي حاتم.

فالصالحون -أيها الأحبة- لا يأمنون مكر الله، ويخشون إذا تجددت النعم، وتوالت أن يكون ذلك استدراجًا، ويسألون الله أن يعينهم على استعمال نعمه فيما يرضيه، وقد كان جدنا الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ والد جدي الشيخ حسن يقول دائمًا: «أخشى أن يكون ما أنا فيه استدراجًا، فكل يوم أنا في نعمة جديدة».

ختامًا:

إذا توالت عليك نعم الله، فتذكر دائمًا قول النبي سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعائه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

* **إشراقة[1]: من تجارب الحياة:**

لا تيأس فإنه ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، ولا تفعل ما تعتقد خطأه، وإن أرضاك موقعه، واعمل الخير لذاته لا لثوابه، تكن خير الناس، واقبل النصيحة ممن تعتقد صدقه، ولا تحتقر أحدًا لمركزه أو عمله أو مظهره، فكل المظاهر التي تراها تتساوى في صعيد من الثرى، ثم تُعرض الأعمال على الله.

واحرص على أن تقول الخير، وأن تعين عليه، وأن تنصر مظلومًا، أو تعين طالب حق على بلوغ مطلبه، واحذر أن تستمع للمديح الزائف، فهو السم الزعاف؛ لأن الذي يمتدحك بما ليس فيك، يخدعك ويستهين بفعلك، وقاوم كل نزعات الخوف والضعف في نفسك، وقف في شموخ الجبال، وصلابة القمم في وجه كل الإغراءات، التي تحاول أن تنال من مبادئك وكرامتك، واحذر أن تضعف وإن كَثُر الضعفاء حولك، فالرجال هم الذين يستطيعون بتوفيق الله لهم أن يقفوا ببسالة مع مبادئهم وكرامتهم، ولأن المبادئ تستحق أن يقف الناس أمامها في رجولة وكبرياء، مهما كانت التضحيات.

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

«والمعركة ضارية» في كل مجتمع، وكل دولة، وقد لا يسمع الناس دائمًا أصوات الأبطال، لكنهم قد كسبوا بما صنعوا رضا الله، ثم هدوء ضمائرهم، وهما أثمن ما يحرص المسلم عليه، ويسعى لتحقيقه.

* * *

الوقفة الثانية: الرد على أهل الإلحاد ومنكري البعث

قال صفي الرحمن المباركفوري بتصرف: «أنكر المشركون البعث بعد الموت إنكارًا شديدًا، ولم يبعثهم على ذلك إلا التعجب والاستغراب والاستبعاد العقلي، فكانوا يقولون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٦-١٧]، وقالوا: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، فرد عليهم القرآن وبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتبصيرهم بما يجري في الدنيا، فالظالم يموت دون أحيانًا أن يلقى جزاء ظلمه، والمظلوم يموت دون أن يأخذ حقه من ظالمه، والمحسن الصالح يموت قبل أن يلقى جزاء إحسانه وصلاحه، والفاجر المسيء يموت قبل أن يعاقب على سوء عمله، فإن لم يكن بعث ولا حياة ولا جزاء بعد الموت لاستوى الفريقان، بل لكان الظالم والفاجر أسعد من المظلوم والصالح، وهذا غير معقول إطلاقًا، ولا يتصور من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يبني نظام خلقه على مثل ذلك، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وقال عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وأما الاستبعاد العقلي، يقول الله في القرآن الكريم رادًّا على ذلك، وفي الآيات ردٌّ على أهل الإلحاد ومنكري البعث، ودحض لشبهاتهم، وتقريرٌ عظيم لوقوع يوم القيامة، يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النازعات: ٢٧]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢]، وبيّن القرآن الكريم ما هو معروف عقلًا وعرفًا، وهو أن الإعادة ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، من الخلق الأول، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، فنسأل الله أن يثبتنا وإياكم على الحق حتى نلقاه. كما نسأله جَلَّجَلَالُهُ أن يرد ضال المسلمين إليه ردًّا جميلًا.

* **ومضة: من لطائف التفسير: من ترك شيئًا لله:**

حين اعتزل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قومه، وتركهم ونزح عنهم، وهاجر من بلاده ذاهبًا إلى عبادة الله في الأرض، عوَّضه الله عَزَّوَجَلَّ عن قومه وعشيرته، بأولاد صالحين من صلبه على دينه، لتقر بهم عينه، فجاءته البشارة بإسحاق، ثم بولده يعقوب، وفي ذلك إشارة -والله أعلم- لبقاء النسل والعقب والذرية، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩]، فمن ترك أيها الأحبة شيئًا لله عوَّضه الله خيرًا منه، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

يقول عمر بن عبدالعزيز: «ما تركت من الدنيا شيئًا إلا أعقبني الله في قلبي ما هو أفضل منه، وما أنعم الله عليَّ في ديني أفضل».

ويقول شريح القاضي: «وإني أحلف بالله أنه ما من أحد ترك شيئًا لله عَزَّوَجَلَّ ثم أحس بفقده».

* * *

الوقفة الثالثة: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، فالعزيز أيها الكرام: هو الذي لا يمانع ولا يخالف، القوي القادر على كل شيء، والعليم: الذي يعلم كل شيء، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ومن تدبر القرآن وجد أن كثيرًا ما إذا ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ المخلوقات العظيمة في الكون كخلق الليل والنهار والشمس والقمر، يختم الكلام جَلَّ جَلَالُهُ بالعزة والعلم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧-٣٨].

ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢]، وذلك -والله أعلم- لعِظم هذه المخلوقات، فهي تحتاج إلى القدرة والقوة، وأيضًا إلى العلم المحيط الواسع بما يصلح لكل شيء في الكون، فيخلق ربي تلك المخلوقات العظيمة بقوته وعزته، ثم بعلمه وحكمته يسخرها، ويودع فيها من المنافع والخيرات، ما يبهر الألباب، وما يدل أولي النهى على عظمة رب الأرباب ومسبب الأسباب، كلٌّ في مجاله وأفلاكه، فسبحان الله العزيز العليم.

ختامًا: في هذه الآيات وغيرها الكثير في كتاب الله دلائل عقلية على وجود الله جَلَّ جَلَالُهُ، من خلال تدبير هذا الكون بنظام بديع دقيق، لو اختل قليلًا لما استقام العيش، ولا طابت الحياة على الأرض، وفيها أيضًا دعوة إلى التأمل والتفكر في هذه المخلوقات وعظمها وسيرها، لنستدل بها على عظمة خالقها جَلَّ جَلَالُهُ، فيزداد الإيمان واليقين في القلوب، بعظمة علام الغيوب جَلَّ جَلَالُهُ.

ولنستمع هنا بقلوبنا لا بآذاننا للقرآن، وهو يُذكرنا بآيات الله في أنفسنا وفي الكون من حولنا، لعل قلوبنا أن تلين، فتخشع وتوجل بين يدي رب العالمين، يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم: ٢٠-٢٥].

* **ختام القلادة الثامنة**: الكون حولنا يسبح:

نعم، كل ما في الكون حولنا يسبح، في موكب رهيب ومنظر مهيب، يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، والتسبيح أيها الكرام له فضل عظيم، فقد ورد في الأحاديث الصحيحة: أن أحب الكلام إلى الله: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، وأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»[1]، وقد قال إبراهيم لنبينا عليهما الصلاة والسلام، حين رآه في رحلة المعراج:

(١) أخرجه مسلم (٨/ ٧٠ رقم ٢٦٩٥).

«إن الجنـة قيعـان، وإن غراسـها: سـبحان الله، والحمـد لله، ولا إلـه إلا الله، والله أكبر»، وفي الصحيح: «من قال سـبحان الله وبحمده مائة مرة غُفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحـر»، فلا تكن الجمادات والنباتات خيرًا منا، فلنكثر من تسـبيح الله، ولنحمد الله على فضله وكرمه وجوده وإحسـانه، أن جعل في كلمات يسيرات ذلك الفضل العظيم والخير العميم. وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

القلادة التاسعة

الوقفة الأولى: نورٌ وضيـــاء.

الحمد لله القائل في كتابه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وأصلي وأسلم على من أرسله ربه بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

أما بعد:

فقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، حذَّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آخر الآية المؤمنين من طاعة أولياء الشيطان في تحليل ما حرم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كالميتة، فإنهم أخذوا يجادلون المسلمين بما أوحى إليهم الشياطين، فيقولون: كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله، فما قتل الله فلا تأكلونه، وما ذبحتم أنتم تأكلونه، فقال الله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ فاستحللتم وأكلتم الميتة ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، فهذا هو الشرك، أن تقدم على أمر الله وشرعه قول غيره من البشر، وأن تحل ما حرم الله، أو تحرم ما أحل الله، وقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] الآية، وفسرها الحبيب صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لعدي بن حاتم، حين قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ، اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَنَ». وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ»[1].

لذا كان ينبغي على المؤمن إذا أتته أوامر الله جَلَّ جَلَالُهُ وما أحل وما حرم، ألّا يعرض ذلك على العقل، بل يجب التسليم والإيمان بالقلب، وإن خفيت الحكمة، ليقين المؤمن بأن الله هو أحكم الحاكمين، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد وسع كل شيء رحمةً وعلمًا.

قال أهل العلم: «نصوص الوحي نور وضياء، والعقول مع تلك النصوص، كالأبصار مع الضياء والنور، فإن جعلت النور والضياء أمامك ومشيت خلفه أرشدك وهداك، وإن عرّضت بصرك له مباشرة أحرقك وأعماك، فالعقول يجب ألّا تعارض النصوص، فمتى ما صح النص وجب الاتباع والتسليم».

ختامًا: قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فنسأل الله أن يرزقنا التسليم لأمرك، والمسارعة إلى مرضاتك، إنك سبحانك ولي ذلك والقادر عليه.

* **إشراقة[2]: الهداية والفوز:**

«خلق الله الإنسان وقد فطره على العقيدة الصحيحة، وتستأثر به بعد ذلك بيئته ومحيطه، فيقويان فيه نوازع الفطرة، أو ينحرفان به عن الطريق السوي.

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ١٧٣ رقم ٣٠٩٥) والبيهقي في سننه الكبير (١٠/ ١١٦ رقم ٢٠٤٠٩)، والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٢ رقم ٢١٨). وحسنه الألباني. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧/ ٨٦٥).

(٢) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

والعقل الإنساني مع ما له من قيمة أساسية في الشريعة لا يكفي وحده في هداية الإنسان وتبصيره، ما لم يتوصل باستخدامه إلى الإيمان المطلق بالله، والاعتراف بعظيم قدرته وسعة علمه وشمول إحاطته، وما شطحات الفلاسفة والحكماء إلا إحدى نتائج اعتمادهم المطلق على العقل وحده في معرفة الحقائق الغيبية الكامنة ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، ومهمة الرسل والأنبياء -صلوات الله عليهم- توجيه الناس وإرجاعهم إلى ما فطرهم الله عليه من اتجاه سليم، ليستجيب لهم من أراد الله له الهداية والفوز، ومن النتائج الحتمية لانصراف الناس عن دين الله اضطراب نظامهم الاجتماعي والخُلقي».

وفي أهل الإلحاد والمجتمعات الغربية مثال ظاهر على ما ذكره الجد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

* * *

الوقفة الثانية: فَعَلِمَ وَعَلَّم

قال ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]، وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ، أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»(١).

وفي الحديث وفي قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَعَلِمَ وَعَلَّمَ» يظهر فضل العلماء العاملين الربانيين، الذين تعلموا العلم لله، فنفعوا أنفسهم، ثم علَّموا العلم ونشروه، لا يبتغون إلا رضا الله، فنفعوا الناس.

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢٧ رقم: ٧٩)، ومسلم (٧/ ٦٣ رقم: ٢٢٨٢).

قال الإمام أحمد: «العلم لا يعدله شيء، لمن صحت نيته»، قيل: وما النية الصحيحة؟ قال: «رفع الجهل عنه وعن الناس».

ولنتأمل هنا أيها الأحبة الثواب العظيم، لمن تعلم الخير والعلم، فنشره بين الناس، فَعَلِمَ وَعَلَّم، روى الترمذي عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلاَنِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ، لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ»[1]. قال ابن القيم: «فإنه لما كان العالم سببًا في حصول العلم، الذي به نجاة النفوس من أنواع المهلكات، وكان سعيه مقصورًا على هذا، وكانت نجاة العباد على يديه، جوزي من جنس عمله، وجعل من في السماوات والأرض ساعيًا في نجاته من أسباب الهلكات، باستغفارهم له، وإذا كانت الملائكة تستغفر للمؤمنين فكيف لا تستغفر لخاصتهم وخلاصتهم؟».

وقال معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في فضل تعلم العلم وتعليمه: «تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عباده، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة...»، -تأملوا: خشية وعبادة، تسبيح وجهاد، صدقة وقربة - ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «... إنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقوامًا، فيجعلهم في الخير قادة، تقتص آثارهم، ويقتدى بفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، ويبلغ العبد بالعلم منزلة الأخيار، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة».

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٤١٦ رقم ٢٦٨٥). وصححه الألباني. ينظر: صحيح الجامع الصحيح وزيادته (٢/ ٧٧٦).

ختامًا:

الفخـر بالعلم لا بالجـاه والمال	**والجَـدّ بالجِدّ لا بالجـد والخال**
كم من مليء وضيء الوجه تحسبه	**للعلم خـلًّا ولكن فكـره خال**
وصاحب العلم لا ينفك صاحبه	**معظـم القدر في حـل وترحال**
إن عاش عاش أعز الناس منزلة	**أو مات مـات بإعظام وإجلال**

* **ومضة: من ثمار العلم:**

وللعلـم ثمرات جليلة، منها بل من أعظمهـا: الأعمال الصالحة للقلب والجوارح، التـي تقرب العبد من رضا الله، كقيام الليـل، واعتدال الرجاء والخوف في قلب المؤمن، تأمّـل معـي قـول الله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، علمهـم بـالله أورثهـم ذلك القنـوت والقيام والخـوف والرجاء، ومـن تأمل القـرآن وجد الثناء عـلى أهـل العلـم بأعمالهم، فعلم بلا عمل جسـد بـلا روح، ويوم القيامـة يكون –ذلك العلـم بلا عمل– حُجة على صاحبه، وتأمـل أيضًا قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]، ومن أجل أعمال القلوب خشية الله؛ لذا قـال أهـل: رأس العلم مخافـة الله، وقالوا: من لم يخش الله ليس بعـالم، وأن ألَّف وصنَّف ودرَّس، وقد جاءت هذه الآية بعد بيان اختلاف الألوان في المخلوقات حولنا: كالجبال والحيوانـات والثمار والإنسـان أيضًا، يقول الله قبلهـا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ﴾ [فاطر: ٢٧–٢٨]، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ لذا:

«فالعلم -كما قال أهله- الذي يقبل المسلم عليه، ويستفتح أبوابه بقوة، ويرحل لطلبه من أقصى المشارق والمغارب، ليس علمًا معينًا محدود البداية والنهاية، فكل ما يوسع النظر، ويزيح السدود أمام العقل النهم إلى مزيد من العرفان، وكل ما يوثق صلة الإنسان بربه من خلال التفكر والنظر في عجائب المخلوقات مثلًا، وكل ما يفتح له آمادًا أبعد من الكشف والإدراك، وكل ما يتيح له السيادة في العالم، والتحكم في قواه، والإفادة من ذخائره المكنونة، ذلك كله ينبغي التطلع له والتضلع فيه، ويجب على المسلم والداعية بوجه خاص: أن يأخذ بسهم منه، فعلوم الحياة مساوية لعلوم الآخرة في خدمة الدين وتجلية حقائقه».

وقد قيل في الحرص على كسب علوم متنوعة، ليبلغ الطالب للعلم المراتب العليا:

احرصْ على كل علم تبلغ الأملا ... ولا تواصل لعلم واحد كسلا
فالنحل لما رعت من كل فاكهة ... أبدت لنا الجوهرين الشمع والعسلا
الشمع بالليل نور يستضاء به ... والشهد يُبري بإذن البارئ العِللا

* * *

الوقفة الثالثة: وسوسة الشيطان

أورد لنا القرآن الكريم قول إبليس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، وروى الطبري في هذه الآية عن ابن عباس أنه قال: «﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أشككهم في آخرتهم، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ أرغبهم في دنياهم، ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾ أشهي لهم المعاصي»، وقال في رواية أخرى: «ولم يقل من فوقهم؛ لأن الرحمة تنزل من فوقهم»، والمقصود: أنه يصدهم عن الخير، ويحببهم في الشر من كل وجه؛ ولذلك ورد في الحديث سؤال الله الحفظ من الجهات كلها، روى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم، وقال:

صحيح الإسناد عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي. -فحريٌّ بنا والله ونحن المذنبون الضعفاء المحافظة عليها؛ ليحفظنا الله بحفظه، واقتداء بمن أمرنا الله بالاقتداء به، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم- كان يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم أني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك من أن أغتال من تحتي».

فمن أراد الحفظ والرعاية فليحافظ على مثل تلك الأوراد فإنها الحصن المنيع من الشيطان بإذن الله.

* **ختام القلادة التاسعة**: ما وزنك يوم القيامة؟!

قال ربنا جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨]، وروى البخاري ومسلم في الحديث الصحيح: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ. وَقَالَ: اقْرَءُوا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]»[1]، وقارن بين من هذه حاله -والعياذ بالله- وبين عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حقه: «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟» قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ. فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي المِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ»[2]. فالوزن هناك بالأعمال لا بالأجساد والأموال، فيا ترى ما وزني ووزنك يوم القيامة؟ يا رب ثقل موازيننا يوم نلقاك.

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٩٣ رقم ٤٧٢٩) ومسلم (٨/ ١٢٥ رقم ٢٧٨٥).
(٢) أخرجه أحمد (٧/ ٩٩). وصححه محققو المسند. ينظر: (٧/ ٩٩).

ختامًا:

مرّ ابن المبارك براهب وبجانبه مقبرة ومزبلة، فقال له: «يا راهب هذا كنز الرجال، وهذا كنز الأموال، وفيهما معتبر».

القلادة العاشرة

الوقفة الأولى: الظاهر والباطن

الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحـده لا شريـك له، شـهادة عبده وابن عبده وابـن أمته، ومن لا غنى له طرفة عين عن فضله ورحمته، وأشـهد أن محمدًا عبده ورسـوله، بلَّغ الرسـالة، وأدَّى الأمانـة، ونصـح الأمـة، وجاهد في الله حـق جهاده حتى أتـاه اليقين، فصـلاة ربي عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فيا أيها الكرام، في هذه الوقفة سـنذكر لطائفَ مسـتنبطة من آيات تُبين جزءًا يسـيرًا مـن ثواب الله العظيم لعباده الصالحين في الدنيا والآخرة: ففي سـياق الآيات مثلًا التي نزلـت في بيـان أحـداث معركـة بـدر، قـال ربنـا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفـال: ١١]، أي: مـن حـدث أصغـر أو أكـبر وهـو تطهـير الظاهر، ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، أي: من وسوسـة أو خاطر سـيئ، وهو تطهير الباطن، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾، أي: بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء، وهو شجاعة الباطن، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ عند اللقاء، وهو شجاعة الظاهر. والله أعلم.

كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أيضًا في حق أهل الجنة يوم القيامة: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١-٢٢]، ففي الآيات نعيم في الجنة عظيم، وقد دلت على النعيم القولي والفعلي والظاهري والباطني، فأما الظاهري: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾، والباطني: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾، وهما الأساور مع الشراب نعيم فعلي، وأما النعيم القولي: فسماعهم لقول ربهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢].

فنسأل الله العظيم من فضله، كما نسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يرزقنا وإياكم وأهلينا ومن نحب الفردوس الأعلى من الجنة.

* **إشراقة[1]: كيف نبدأ:**

لم يفارقني إيماني العميق بالله، ولم يتخل عني اطمئناني إلى وعي شعبنا وإدراكه وعمق مفاهيمه لحظة واحدة، وكنت كثيرًا ما أتساءل؟ تُرى إلى أي مدى يسيء الناس ظنهم بهذا الشعب المسلم المحافظ؟ وهل لأوهامهم التي يطلقونها عليه نصيب من الصحة والواقع؟ وأتريث في الإجابة لأتمكن من الإلمام بدوافعها، ولكن الحقيقة الواضحة تأبى دائمًا إلا أن تفرض وجودها على الرغم من كل الشبهات والأباطيل.

ألا ترى الشمس وهي تنطلق من مشرقها كل صباح، هل تحجب أنوارها فلول الليل المنهزمة؟ أم هل تواري إشراقتها الأستار والحُجب؟ كذلك هي الحقيقة إذا وُجدت فلا مكان للأباطيل، ولا مجال للأوهام.

والسؤال الآن بعد هذه الحقيقة، كيف نبدأ؟ والجواب عنه: أن نبتدئ دائمًا من القاعدة، مني ومنك، فكل إصلاح لا تؤيده الأعمال الفردية بادئ الأمر «هراء وباطل»،

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فلنبتدئ بأنفسنا ثم بأسرنا وبمحيطنا المحدود، نحارب فيهم الانحراف والتخلف، ونبني بهم صرح الخُلق والحياء والكرامة والفضيلة في عزيمة مخلصة وسعي دائب.

وإن صدقنا في ذلك، فسنجد أن وجه مجتمعنا سيتغير حتمًا، نحو المستوى الأفضل، دون كبير عناء؛ لأن إصلاحه بدأ من قاعدته.

* * *

الوقفة الثانية: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

قال ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]، أخرج الطبري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قوله: «أمر الله المؤمنين ألّا يقروا المنكر بين ظهرانيهم، فيعمهم الله بالعذاب»[(١)]، وروى الإمام أبو داود أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالمَعَاصِي، هُمْ أَعَزُّ مِنْهُمْ وَأَمْنَعُ، لَا يُغَيِّرُونَ، إِلَّا عَمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ»[(٢)].

ومما ينبغي أن يُعلم هنا:

- «أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر، ليحصل من المعروف ما يحب الله ورسوله، فإن كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر من المنكر نفسه، فذاك أمر بالمنكر ومعصية لله ورسوله»[(٣)].
- لذا ينبغي أن تكون الدعوة إلى الخير على بصيرة، وأن يُستعمل في ذلك الحكمة والموعظة الحسنة، فيؤمر بالمعروف بمعروف، ويُنهى عن المنكر بلا منكر؛ ليترتب على ذلك بإذن الله استقرار المعروف والخير بين الناس.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١١٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٢١٤ رقم ٤٣٣٩) وابن ماجه (٥/ ١٤٢ رقم ٤٠٠٩). وصححه الألباني. ينظر: مشكاة المصابيح (٣/ ١٤٢٢).

(٣) إعلام الموقعين، لابن القيم، (٣/ ١٢).

- وأيضًا أيها الكرام ينبغي على الداعية إلى الله، وعلى كل مصلح معلم للخير، يريد إنكار المنكر أن يعلم، وأن يستقر في قلبه: أن الطبيب لا يكره المريض، بل يشفق عليه ويكره مرضه، وكذلك الداعي إلى الله لا يكره العاصي، بل يشفق عليه ويكره المعصية، ويحاول أن يخلصه منها.
- وقد قيل لأبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في شأن أحد العصاة: ادعوا عليه، قال: لا، بل أدعو له، قالوا: ألا تكرهه؟ قال: لا، أكره معصيته، فإن تاب منها، فهو أخي.

في ختام الوقفة: يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «السنة شجرة، والشهور فروعها، والأيام أغصانها، والساعات أوراقها، والأنفاس ثمراتها، فمن كانت أنفاسه في طاعة، فثمرة شجرته طيبة، ومن كانت في معصية، فثمرته حنظل، وإنما يكون الحصاد يوم المعاد، فيتبين هناك حلو الثمار ومرها».

أسأل الله أن يجعل أنفاسنا في طاعته، وأن يملأ قلوبنا بمحبته، وأن يجعلني وإياكم من المفلحين، الذين قال الله عنهم: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

* **ومضة: وهب بن منبه والتحذير من الخوارج:**

جاء رجل إلى وهب بن منبه، وعلم وهب أنه يريد الحرورية، «أي يريد اعتناق فكر الخوارج»، فقال له وهب: «أتريد أن تكون حروريًّا، تشهد على من هو خيرٌ منك بالضلالة؟ فماذا أنت قائلٌ لله غدًا، حين يُوقفك الله بين يديه، أنت ومن شهدت عليه، فالله يشهد له بالإيمان، وأنت تشهد عليه بالكفر، والله يشهد له بالهُدى، وأنت تشهد عليه بالضلالة، فأين تقع إذا خالف رأيك أمر الله، وشهادتك شهادة الله؟»، ثم قال عن الخوارج: «إني أدركت صدر الإسلام، فوالله ما كانت الخوارج جماعةً قط، إلا فرّقها الله على شرّ حالاتهم، وما أظهر أحدٌ منهم قوله، إلا ضرب الله عنقه، ولو مكّن الله لهم من

رأيهم لفسدت الأرض، وقُطّعت السُّبل، والحج، ولعاد أمر الإسلام جاهلية، وإذًا لقام جماعةٌ، كلٌّ منهم يدعو إلى نفسه الخلافة، مع كل واحد منهم أكثر من عشرة آلاف، يُقاتل بعضهم بعضًا، ويشهد بعضهم على بعض بالكفر، حتى يصبح المؤمن خائفًا على نفسه ودينه ودمه وأهله وماله، لا يدري مع من يكون». فقال الرجل: «أشهد أني قد نزلت عن رأي الحرورية»، وتاب إلى الله[1].

* * *

الوقفة الثالثة: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾

أيها الكرام، جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَأَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، ثُمَّ عَقَلَهَا، ثُمَّ صَلَّى خَلْفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى رَاحِلَتَهُ، فَأَطْلَقَ عِقَالَهَا ثُمَّ رَكِبَهَا، ثُمَّ نَادَى: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا، وَلَا تُشْرِكْ فِي رَحْمَتِنَا أَحَدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَقُولُونَ هَذَا أَضَلُّ أَمْ بَعِيرُهُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: لَقَدْ حَظَرْتَ، رَحْمَةُ اللهِ وَاسِعَةٌ، إِنَّ اللهَ خَلَقَ مِئَةَ رَحْمَةٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ رَحْمَةً وَاحِدَةً، يَتَعَاطَفُ بِهَا الخَلَائِقُ، جِنُّهَا وَإِنْسُهَا وَبَهَائِمُهَا، وَعِنْدَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ، أَتَقُولُونَ: هُوَ أَضَلُّ أَمْ بَعِيرُهُ؟»[2].

فيستفاد من الحديث: أن رحمة الله أيها الأحبة واسعة، بل وسعت كل شيء، قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، فمن أرادها فليسمع قول الله بعدها: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧]، إلى آخر الآيات. فأسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم.

---

(١) وردت هذه القصة في ترجمة وهب بن منبه، في سير أعلام النبلاء (ص: ١٣٦١).

(٢) أخرجه أحمد (٨/ ٤٢٨٢ رقم: ١٩١٠١). قال الهيثمي: «ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي عبدالله الجشمي ولم يضعفه أحد». ينظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: (١٠/ ٢١٣).

ولنتأمل رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في هذا الحديث الشريف: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ»[1].

ويقول سفيان الثوري: «لا أحب أن يحاسبني أبي، فالله أرحم بي منه».

وتأملوا رحمة الله في دفع العقوبة عن عبده المؤمن بأسباب متعددة، يقول شيخ الإسلام: «والمؤمن إذا فعل سيئة، فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب: أن يتوب فيتوب الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، أو يستغفر فيغفر الله له، أو يعمل حسنات تمحوها، فإن الحسنات يذهبن السيئات، أو يدعو له إخوانه المؤمنون ويستغفرون له حيًّا وميتًا، أو يهدون له من ثواب الأعمال ما يشفع الله به، أو يشفع فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو يبتليه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الدنيا بمصائب تكفر عنه، أو يبتليه في البرزخ بالصعقة، فيكفر بها عنه، أو يبتليه في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه، أو يرحمه أرحم الراحمين، فمن أخطأته هذه العشر، فلا يلومن إلا نفسه».

وما أجمل قول بلال بن سعيد:

يا أهل الإيمان إن لكم ربًّا، ليس إلى عقاب أحدكم بمسارع.. يقيل العثرة، ويقبل التوبة، ويغفر الذنب، يثيب المقبل عليه، ويشفق على المدبر عنه». سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رحمته سبقت غضبه، وعفوه عقوبته، وحلمه انتقامه، يحب التائبين، ويبدل السيئات إلى حسنات:

فيا من عدا ثم اعتدى ثم اقترف ... ثم انتهى ثم استحى ثم اعترف
أبشر بقول الله في آياته: ... إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٧ رقم ٤٢)، ومسلم (١/ ٨٢ رقم ١٢٨).

* **ختام القلادة العاشرة:** أبيات أعجبتني:

أخي الكريم، تأمل قول الله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: ٥٤]، «فلا تتردد أبدًا في الرجوع إلى الله، وإن كثرت ذُنوبك، فَالذي سَترك وأنت تَحت سقف المعصية، لَن يخزيك وأنت فوق جَناح التوبة».

وما أجمل قول الشاعر التائب:

يا من عصيتك جاهلًا فسترتني ... وترد حين أسيء بالإحسان
كم جئت بابك سائلًا فأجبتني ... من قبل حتى أن يقول لساني
واليوم جئتك تائبًا مستغفرًا ... نورٌ بقلبي للهدى ناداني
عيناي لو تبكي بقية عمرها ... لاحتجت بعد العمر عمرًا ثاني
إن لم أكن للعفو أهلًا خالقي ... فلأنت أهل العفو والغفران
روحي لنورك يا إلهي قد هفت ... وتشققت عطشًا له أركاني
فاقبل بفضلك توبة القلب الذي ... قد جاء خوفًا من دجى العصيان
واجعله في وجه الخطايا ثابتًا ... صلبًا قويًّا راسخ الإيمان

القلادة الحادية عشرة

الوقفة الأولى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين، وأرسل رسوله رحمة للعالمين، أحمده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حمدًا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»[1]، وروى الإمام أحمد في الحديث الذي صححه الألباني عن تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الكُفْرَ»[2]، وَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ يَقُولُ: قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، لَقَدْ

(١) أخرجه مسلم (٦/ ٥٢ رقم: ١٩٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (٧/ ٣٧٤٥ رقم ١٧٢٣١). وقال الهيثمي: «رجال أحمد رجال الصحيح». ينظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: (٦/ ١٤).

أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الخَيْرَ وَالشَّرَفَ وَالعِزَّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلَّ وَالصَّغَارَ وَالجِزْيَةَ».

وفي الآية والحديثين بشائر عظيمة، والمؤمن الصادق ملء قلبه يقين، بأن الله قوي قادر، له الحكمة البالغة في كل ما يقضيه ويقدره –فهو يحسن الظن بربه في كل أحواله، وفي كل شئون حياته، فيظن النجاح والخير والتوفيق والفوز والفلاح، ويحذر دائمًا من ظن السوء، فقد ذمه الله في كتابه، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في المخلفين من الأعراب، الذين كذبوا، وقالوا: شغلتنا أموالنا وأهلونا: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢]، فمن ظن أن الله لا ينصر أمة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد وقع في ظن الجاهلية، الذي ذمه القرآن، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] ويقول جلّ في علاه عنهم: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦] وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠]، قال ابن القيم في الآية الأولى: «فُسّر هذا الظن بأن الله لن ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفُسّر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته، فَفُسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء، وهو ظن المنافقين والمشركين»، عياذًا بالله، وقال الشيخ محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن ظن أنه –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– يُديلُ الباطل على الحق إدالة مستقرة، يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدّره لحكمة بالغة، يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة، فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار».

وقبل الختام: أيها الكرام، على المؤمن الصادق أن يقرن بين حسن ظنه بمولاه، وبين التوكل العظيم على الله، والعمل بالأسباب التي تضمن انتصار هذا الدين وانتشاره إلى أصقاع الأرض بصورته الطاهرة، فكن ممن توكل على الله، وأحسن الظن برب العالمين.

ولله درّ القائل:

ولقد بلغت من التفاؤل أوجَهُ وقلائلٌ من يفعلــون قلائلُ
حتى تفاعيل البحور قرأتها متفائــلٌ متفائــلٌ متفائــلُ

* **إشراقة[1]: إلى شباب بلادي:**

الكلمة أسـوقها إلى شـبابنا الغالي، الـذي أراد الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ له أن يكـون في مركز القيادة الروحية لكل مسـلم على وجه الأرض، وهي المسـؤولية الكبرى تختلف نظرة الأمم إليها، لكنها عندما تكون قدرًا لأمة في الأرض؛ فإنها تعني أعنف تجربة رائعة يخوضها «رجال» على مسار التاريخ الطويل، هي عنيفة، لأنها تتطلب النوعية العالية، التي تستوعب كل التزامات القيادة، منعكسة على الواقع والتعامل والإدراك، ثم هي مسؤولية الريادة التي تستهدف فيها تستهدف الصبر والطموح والعزيمة، وكل أمة تتنكر لدورها تظل تائهة حيرى.

فالإسـلام دعـوة لـكل العالمين، تحمل لهـم البشر والخـير والعدالة والمسـاواة، ولا يمكـن أن ينطلق أثرهـا دون أن يعتمد على تأثر معتنقيه به، فالشـباب مطالب بأن يطبق تعاليم دينه في كل زمان ومكان، ومطالب أن يرفع رأسه افتخارًا بانتسابه إلى دينه، الذي رضيه الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ واختاره له، ومطالب أن ينقل سماحة هذا الدين لمن يلقى، ويدافع عن ساحته ضد مكائد أعدائه.

ختامًا: أقول لكل شــابٍّ في بلادي: إنك مع الشرف عــلى موعد، ومع النجاح على لقــاء، إن كنت قادرًا على أداء دورك الذي أراده الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ لك، ورســالتك التي هيأك لحملها.

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

* **إشراقة**[1]:

لكي يظل شبابنا على صلة بأهدافهم: «هدفنا هو إعلاء كلمة الله في الأرض، ونشرها في آفاق الدنيا، وإيضاح كمالها وسموها والدفاع عنها ضد كل الظالمين والحاقدين، والسعي لجمع كلمة المسلمين على الحق، وتوحيد صفوفهم، والإخلاص لله وحده، والعمل صفًّا واحدًا في سبيله»، هذه هي رسالتنا تبني ولا تهدم، وتجمع ولا تفرق، وتصلح ولا تفسد، ولا مكان فيها لليأس والملل؛ لأنها «رسالة الله في الأرض».

* * *

الوقفة الثانية: علم الله جَلَّ جَلَالُهُ

أيها الأحبة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فسبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، تقول الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] وقال لقمان: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]، فسبحان من لا يخفى عليه ما كان وما يكون وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، واسمع ما جاء في أعظم آية في كتاب الله، يقول ربي عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال الشيخ السعدي: «وذلك في حق جميع خلقه، من الأمور المستقبلة التي لا نهاية لها، ومن الأمور الماضية التي لا حدّ لها، فلا تخفى عليه خافية». وقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧]، وتأمل علم الله عَزَّوَجَلَّ فيهم

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وإحاطته بهم، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال ربنا: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وغيرها من الآيات.

ختامًا: إن يقين المؤمن الصادق بعلم الله الواسع، يعلق القلب بالله عَزَّوَجَلَّ أولًا حياء ورجاء، وثانيًا توكلًا واعتمادًا، فالحياء والرجاء لعلمه باطلاع الله عليه وسعة علمه جَلَّجَلَالُهُ، فيحرص دائمًا على إصلاح قلبه ونيته وسريرته، ويسأل الله القلب السليم والنية الصالحة الصادقة، أما التوكل والاعتماد على الله وحده، فليقينه بأن الغيب لا يعلمه إلا الله جَلَّوَعَلَا، فلا يعلق القلب إلا بالله، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قد قال على لسان خير خلقه محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، فكيف بمن دونه.

فنسأل الله أن يملأ قلوبنا بحسن الحياء منه، وصدق التوكل عليه، فلا حول ولا قوة لنا إلا به، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* **ومضة: حياة القلوب:**

لحياة القلب وبصيرته علامات، ولموته وعماه دلائل، وقد بين الله أنها ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فمن حياة القلوب: الحزن على فوات الطاعة، والندم الشديد على المعصية، مع المبادرة إلى التوبة ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ومن حياة القلوب، الوجل عند سماع ذكر الله، وزيادة الإيمان بعد تلاوة القرآن ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

ومن حياة القلوب، الإعراض عن اللغو، وعدم شهود مجالس الكذب، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

ومن حياة القلوب، الإكثار من الطاعات مع الخوف من عدم قبولها ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

ومن حياة القلوب أيضًا، تدبر القرآن والعمل به ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

ومن حياة القلوب أخيرًا، حب الصلاة والخشوع فيها وتعلق القلب بالمساجد ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]، «وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ»[1].

ختامًا: لو أن الأمة تعود إلى القرآن لشفاء أمراض قلوبها، كما تعود إلى الطبيب لأمراض أبدانها، لتبدل حالها، ولعادت بحق خير أمة أخرجت للناس.

اللهم املأ قلوبنا بما يرضيك عنا، ويقربنا إليك، وأخرج منها ما يغضبك منا، ويبعدنا عنك، فإنه لا حول ولا قوة لنا إلا بك، وأنت حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

الوقفة الثالثة: خيمة من لؤلؤة

وقفة مع الجنة ومع ما أعده الله لعباده الصالحين، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقال رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاء في الصحيحين: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ، إِلَّا رِدَاءُ

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٣٣ رقم ٦٦٠)، ومسلم (٣/ ٩٣ رقم ١٠٣١).

الكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»[1]، وفي الحديث الآخر أيضًا في الصحيحين: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الجَنَّـةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِـتُّونَ مِيـلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[2]. نسأل الله من فضله.

ولقد صلى رسـول الله ﷺ بعد الكسـوف بأصحابه، فقالوا له: يا رسـول الله رأيناك تناولت شيئًا في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكعت، قال: «إِنِّي أُرِيتُ الجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا»[3].

ولنقـف هنا مع قول ربنـا جَلَّ وَعَلَا: ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ** ﴾ [السـجدة: ١٦-١٧]، قـال ابـن القيـم: «تأمل كيـف قابل ما أخفوه مـن قيام الليل بالجـزاء الذي أخفاه لهـم، مما لا تعلمه نفس، وكيف قابل قلقهـم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم حين قيامهم إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة».

في ختام الوقفة: ولتعلم أخي المبارك الفضل العظيم يوم القيامة في جنات عدن، لمن أحسـن العمل في الدنيا، تأمل معي ما أعـده الله عَزَّوَجَلَّ لأدنى أهل الجنة منزلة ولأعلاهم منزلـة، في الحديـث الصحيـح الـذي رواه مسـلم، قـال رسـول الله ﷺ: «سَـأَلَ مُوسَـى رَبَّـهُ: مَا أَدْنَى أَهْـلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَـالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِـيءُ بَعْدَمَا أُدْخِـلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّـةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُـلِ الجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّـاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِـمْ؟ فَيُقَـالُ لَهُ: أَتَـرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْـكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُـوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ،

(١) أخرجه البخاري (٦/ ١٤٤ رقم ٤٨٧٨)، ومسلم (١/ ١١٢ رقم ١٨٠).
(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١١٧ رقم ٣٢٤٣)، ومسلم (٨/ ١٤٨ رقم ٢٨٣٨).
(٣) أخرجه البخاري (١/ ١٥ رقم ٢٩)، ومسلم (٣/ ٣٣ رقم ٩٠٧).

فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، الآيَةَ»[1].

* **ختام القلادة الحادية عشرة: سير القلوب:**

من تأمل القرآن وتدبر آياته علم يقينًا بأن السير إلى الله سير قلوب لا سير أبدان، فإن أردت أيها المبارك أن تكون مع السابقين، ففتش عن قلبك، وأخرج منه ما يعوقك ويؤخرك، واسأل الله القلب السليم.

فأعمال القلوب كالخشية والتوكل والرجاء والخوف والحب وحسن الظن وغيرها، لها شأن عظيم، بها يتفاوت الخلق عند الله، وبها تختلف الدرجات والمنازل.

وتأمل: إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، اتخذه الله خليلًا، وجعله إمامًا للناس، ووصفه بأنه أمة لوحده، وجعل كل الأنبياء من ذريته، وتأمل السبب: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤].

والقلب السليم كما قال ابن القيم، هو الذي سلم من جميع أمراض القلوب، كالحسد والبغضاء والكبر والرياء والعجب والتعلق بغير الله بمحبة أو توكل أو خوف أو رجاء.

ختامًا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، ولا تخزنا يا رب يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٢٠ رقم ١٨٩).

القلادة الثانية عشرة

الوقفة الأولى: أعظم وظيفة على وجه الأرض

الحمد لله القائل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، وأصلي وأسلم على من أرسله ربه رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

«فإن سناء الهمة في نشدان الكمال الممكن، ومن أراد المنزلة العليا من الجنة، فعليه أن يكون في المنزلة القصوى في هذه الحياة الدنيا، واحدة بواحدة، ولكل سلعة ثمن». وأعلى منزلة في الدنيا هي منزلة الدعوة إلى الله، ووراثة وظائف النبوة، التي ليس أشرف منها إلا منزلة النبوة نفسها. فالدعوة إلى الله أعظم وظيفة على وجه الأرض، وتأمل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، وهنا أمرٌ مهم، يتضمن جزأين:

أولًا: ليس على العالم ولا الداعية ولا على غيرهم من باب أولى إلا الظاهر في حكمهم على من سواهم؛ لذا ينبغي عليهم في كل أحوالهم عدم تكلف ما لم يحيطوا به علمًا، فهم يسيرون على هدى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولقد ابتلينا في زماننا هذا بحدثاء الأسنان سفهاء الأحلام، يدّعون العلم، والعلم بريء منهم براءة الذئب من دم يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يخرجون من أرادوا من الإسلام، ويكفرون الناس، ولو عادوا

إلى أنفسهم لوجدوا فيها من الخلل والزلل ما يُشغلهم عن غيرهم، ويكف أذاهم عمّن سواهم، أخرج عبدالرزاق عن قتادة. رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: «ما بال أقوام يتكلفون علم الناس، فلان في الجنة، وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه، قال: لا أدري، لعمري أنت -بنفسك- أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئًا ما تكلفه الأنبياء قبلك، قال نبي الله نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢]، وقال نبي الله شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦]، وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لنبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١]».

ثانيًا: مهمة العلماء والدعاة والمصلحين الدعوة والبلاغ على بصيرة وبحكمة وموعظة حسنة، وجدال بالتي هي أحسن، أما الهداية والنتائج فمن الله وحده، وقد لام أحدهم رجلًا صالحًا يدعو إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، بأن دعوته ليس لها أثر، وأنه أتعب نفسه في معالي الأمور بلا جدوى، فرد عليه، وقال:

عجبت لهم قالوا: تماديت في المنى ... وفي المثل العليا، وفي المرتقى الصعب
فأقصر، ولا تجهد يراعك إنما ... ستبذر حبا في ثرى ليس بالخصب
فقلت لهم: مهلا، فما اليأس شيمتي ... سأبذر حبي، والثمار من الرب
إذا أنا أبلغت الرسالة جاهدا ... ولم أجد السمع المجيب فما ذنبي

لذا فالداعية العالي الهمة -كما قال أهل العلم- يتمثل دومًا قول الصالحين قبله: ﴿مَّعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، فإن لم يستطع الدعاة تحقيق كل غاياتهم، فحسبهم أنهم كانوا «أجراء عند الله، أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا عملوا، وقبضوا الأجر المعلوم، وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير، فذلك شأن صاحب الأمر، لا شأن الأجير»، وحسبهم أن من الأنبياء من يأتي يوم القيامة ومعه الرجل والرجلان، وقد يأتي النبي وليس معه أحد، وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢] لأشرف خلقه وصفوة رسله، فكيف بمن دونه.

ختامًا: يكفي الداعية إلى الله عزَّ وشرفًا آية وحديثًا، أما الآية: فقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]، فكمال الشرف أن تكون من أتباعه، وأما الحديث فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرَضِينَ، حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الحُوتَ، لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ»[1].

اللهم اجعلنا معلمين للخير، مباركين أينما كنا، وشرفنا حتى نلقاك بالدعوة إليك، ودلالة الخلق عليك.

* **إشراقة[2]: نوع فريد من الدعاة:**

نحتاج إلى نوع فريد من الدعاة إلى الله، دعاةً يستشعرون مقومات الداعي، وأسلوب الدعوة، ولهم رصيدهم من التحمل والصبر، ومعهم مواهبهم من سعة الأفق، وبُعد النظر، ونفاذ البصيرة، حتى نستطيع بعون الله، ثم بجهودهم الهادئة المتزنة أن نعيد الشارد، ونوقظ النائم، ونرشد الجاهل، في حب وود وحنان.

نريدهم دعاة «استصلاح» لا أدوات بتر، نريدهم بأفعالهم المخلصة أن يزيلوا في رفق كل الحواجز التي تفصل بينهم وبين الآخرين، نريدهم أن يدعوا إلى الله والبسمة تعلو وجوههم، الحنان يغمر حركاتهم، والاستصلاح يسيطر على تصرفاتهم، نريدهم أن يحرصوا على احتضان الضالين واللاهين والغافلين، والتدرج بهم ومعهم، حتى يصلوا بهم في النهاية إلى شاطئ الأمان، نريدهم مبشرين لا منفرين، وميسرين لا معسرين، ومرشدين لا معنفين، ويوم تكثر هذه النوعية في كل مجتمع مسلم، نجد أن العائدين إلى الله أضعاف اللاهين عن أوامره.

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٤١٦ رقم: ٢٦٨٥). وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب». وحسنه الألباني. ينظر: مشكاة المصابيح (ص: ٧٥).

(٢) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وبكل اختصار، نريد «دعاة» إلى الله من نوع جديد، منهجهم قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، ولن نُعدم -بإذن الله- هذا النوع من الرجال.

* * *

الوقفة الثانية: ﴿إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾

لعظم أمر الإيمان باليوم الآخر، الذي هو من الإيمان بالغيب، أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبيه أن يقسم به أن المعاد واليوم الآخر حق، وقد جاء ذلك في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس: ٥٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سبأ: ٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، والإيمان باليوم الآخر أيها الأحبة له أثر عظيم على حياة المؤمن في إقباله ومسارعته إلى الطاعات، وفي تركه للمعاصي والمنكرات؛ لذلك كان أول وصف للمتقين في مطلع القرآن العظيم أنهم يؤمنون بالغيب، قال الله عَزَّوَجَلَّ في أول سورة البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢-٣]، ثم ذكر القرآن ثمرة إيمانهم باليوم الآخر، وكيف ترجموا ذلك الإيمان إلى أعمال صالحة من صلاة وزكاة، فقال الله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢-٣].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في موضع آخر من كتابه: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠] قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية: «والعبد إذا علم أن جهده وعمله غير ضائع، هان عليه العمل، وسهلت عليه المكاره، واستقل من عمله كل كثيره» بنحوه. لذا من لم يؤمن باليوم الآخر، حتى وإن عمل في الدنيا فإنه يجازى فيها فقط، وما له في الآخرة من خلاق، يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ

﴿ٱلْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٤٧] «فإن أعمال من لا يؤمن باليوم الآخر، لا يرجو فيها ثوابًا، وليس لها غاية تنتهي إليها، فلذلك اضمحلت وبطلت».

وفي الإيمان بالغيب أيها الكرام سرٌّ عظيم، فهو ما دام غيبًا، وكان اليقين به قويًّا، كان دافعًا للعمل والبناء في الدنيا، مع الطاعات والعبادات التي هي الأساس، أما لو انكشف وأصبح ظاهرًا كسماع تعذيب أهل القبور، أو مشاهدة الملائكة عيانًا، أو غير ذلك، لأصبح مُعرضًا عن البناء والصناعات، فيشتغل الناس جميعهم بالآخرة، وتتعطل الدنيا، فسبحان من له الحكمة التامة، وهو جَلَّجَلَالُهُ الحكيم الخبير.

ختامًا: ما أجمل قول أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، حين قال: «احرص على الموت توهب لك الحياة»، فمن استعد للموت في كل أوقاته أصلح جميع أعماله، لحرصه على الخاتمة الحسنة، وعلى أن يأتيه الأجل وهو على عمل صالح، فإن كان في بيت الله خشع في صلاته، وإن كان في بيته برّ والديه، وأحسن إلى أهله، وإن كان في مكتبه أخلص في عمله، وهكذا، فإن فعل ذلك بارك الله له في عمره ووقته، وأحبه والداه، وترقى إلى المراتب العليا في عمله، فتأتيه الدنيا وهي راغمة، مع أن الآخرة هي التي في قلبه، وذلك من عاجل بشرى المؤمن.

وقال بعض العالمين بالله بعد أن قرأ هذه الآية: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾ [العنكبوت: ٥] قال: «لما علم الله شوق المحبين إلى لقائه، ضرب لهم موعدًا للقاء تسكن به قلوبهم».

فيا رب ارزقنا حسن الوفادة عليك، وأكرمنا بلذة النظر إلى وجهك الكريم، واجعلنا ممن رضيت عنهم ورضوا عنك، وممن أحببتهم وأحبوك يا رب العالمين.

* **ومضة: وصية لمن فقد البركة في وقته:**

قال أحد السلف: كلما زاد حزبي من القرآن، زادت البركة في وقتي، ولا زلت أزيد حتى بلغ حزبي عشرة أجزاء.

«قال إبراهيم المقدسي موصيًا الضياء المقدسي، لما أراد الرحلة لطلب العلم: «أكثر من قراءة القرآن ولا تتركه، فإنه يتيسر لك الذي تطلبه على قدر ما تقرأ»، قال الضياء: فرأيت ذلك وجربته كثيرًا، فكنت إذا قرأت كثيرًا تيسر لي من سماع الحديث وكتابته الكثير، وإذا لم أقرأ لم يتيسر لي».

وقال قتادة: «ما جالس القرآن أحد إلا فارقه بزيادة أو نقصان» ثم قرأ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، فهذا النقصان، وأما الزيادة ففي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

ولنتأمل حال سلفنا الصالح مع آيات القرآن، وكيف تأثروا بآياته تأثرًا عظيمًا:

يقول أحدهم: «عجبت لمن خاف شيئًا كيف يغفل عن قول: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، والله يقول بعدها: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤]. وعجبت لمن ابتلي بالضر كيف يذهل أن يقول: ربي إني ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، والله يقول بعدها: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٤]. وعجبت لمن ابتلي بالغم كيف يغفل عن قول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، والله يقول بعدها ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]. وعجبت لمن كوبد في أمر، كيف يغفل عن قول: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول بعدها: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ [غافر: ٤٥]. وعجبت لمن أنعم الله عليه بنعمة خاف زوالها، كيف يغفل عن هذه الآية: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]».

* * *

الوقفة الثالثة: القرآن مصدر الفرح والسعادة الحقيقية

أيها الأفاضل، القرآن كتاب هداية وسعادة وإعزاز للأمة: فهو كتاب هداية: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، وهو كتاب لإخراج الناس من الظلمات إلى النور: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]، وهو كتاب لسعادة الإنسان: ﴿طه ١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١-٢]، وهو كتاب لإعزاز الأمة: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]»[1].

وتأملوا معي قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، ثم قال الله بعدها مبينًا أن الفرح الحقيقي إنما يكون بالقرآن وبالعمل به: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

ولعلم النبي ﷺ بذلك الأثر العظيم كان كثيرًا ما يخطب بالقرآن، قال ابن القيم في بيان هدي النبي ﷺ في خطبته: «كان النبي ﷺ كثيرًا ما يخطب بالقرآن»، وقد روى مسلم عن أم هشام بنت حارثة، قالت: «ما أخذت ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١] إلا من لسان رسول الله ﷺ يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس».

(١) مقاصد القرآن: قراءة معرفية وتقويمية، محمد المنتار (ص: ١).

فإن أردت السعادة فعلق قلبك دائمًا بكلام ربك، ولا تفوت يومًا دون أن تقلب ناظريك في صفحات القرآن العظيم، فالذي خلق القلب وحرّكه، وأجرى الدم في عروقه، أدرى بما يُطمئن هذا القلب ويُسعده، واسمع قول من هو أرحم بك من أمك: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]. فوالذي نفسي بيده لا تطيب الدنيا إلا بذكر الله.

وقد قال أهل العلم: «ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن، لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]»، وإذا غمرتنا رحمة الله فلا تسل بعدها عن الفرح والسعادة والعز والمجد في الدنيا والآخرة؛ لذا فلنحي أيها الأحبة بيوتنا بالقرآن».

وهنا وقبل الختام ينبغي التحذير من موانع تلك السعادة والبركة من القرآن، فلكي يتحقق الفرح والعز والمجد ينبغي الحذر من موانع منها: «أن يكون التالي للقرآن مصرًّا على ذنب أو متصفًا بكبر أو مبتلىً بهوى مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة، وتوبة القلب وفلاحه وسعادته بإماطة الشهوات مثل الجلاء للمرآة»[1].

ختامًا: قيل: «المرء بأصغريه: قلبه ولسانه»، والتقوى محلها القلب، والقول السديد محله اللسان، فمن عمل بهذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾ [الأحزاب: ٧٠]، تحققت له أعظم غاية: ﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧١]». فيا رب نسألك في الدنيا أسباب السعادة، وفي الآخرة الحسنى وزيادة.

---

(١) مختصر منهج القاصدين، لابن قدامة، ص: ٤٥.

* **خاتمة القلادة الثانية عشرة:**

قال أهل العلم: «وتلاوة القرآن حق تلاوته، هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب والجوارح، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار، وحظ الجوارح عمل الصالحات والمسابقة إلى الخيرات، فاللسان يرتل، والعقل يفسر، والقلب يتعظ، والجوارح تعمل».

وإن من أعظم الوسائل المعينة على تدبر القرآن، واستخراج عظيم كنوزه وجميل هداياته، الحرص على تلاوته حق تلاوته، ومما يعين على ذلك ثلاثة أمور: خلو القلب، وخلو الفكر، وخلو البطن. ويجتمع ذلك غالبًا في رمضان، وخصوصًا لمن اعتكف في العشر الأخيرة منه، فالبطن خالٍ إلا من القليل من الطعام، والفكر خالٍ إلا من التأمل في كتاب الله، والقلب خالٍ إلا من الله وآياته، فيفتح الله برحماته إن شاء لعبده، ويفهمه من كنوز آياته، ما لا يدركه في أحوال أخرى من حياته، فتمر على القلب في تلك الأحوال لحظات فرح، هي أسعد لحظات الحياة، فمن أراد بذل الأسباب في تحصيل درر الآيات بعد التوكل على الله والاستعانة به، فعليه بتلك الثلاث، والله أعلم. اللهم ارزقنا الفهم في كتابك، وافتح علينا من كنوزه وبركاته، واجعلنا من أهله الذين هم أهلك وخاصتك.

القلادة الثالثة عشرة

الوقفة الأولى: قضاء الله كله خير

الحمد لله الذي جعل الحمد أول آية في كتاب رحمته، وأول ما يقال عند دخول جنته، وأصلي وأسلم على خير الخلق أجمعين، نبينا الصادق الأمين، وعلى آله الطيبين، وأصحابه الغر الميامين. أما بعد:

فقال ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ٩-١١]، قال ابن كثير: «يخبر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن الإنسان، وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم ربي من المؤمنين، أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة، حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة للمستقبل، وكفر وجحود لماضي الحال، كأنه لم ير خيرًا قط، ولم يرج بعد ذلك فرجًا. وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ [هود: ١٠]، أي: يقول: ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾، أي فرح بما في يده فرح بطر، يفخر به على غيره، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بعدها: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي: على الشدائد والمكاره ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: في الرخاء والعافية ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: بما يصيبهم من الضراء ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء، وقد جاء في الحديث الصحيح: «مَا

يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»[1]. وفي الصحيح: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[2].

ولتعلم أن قضاء الله كله خير، وان لم تعلم ذلك، اسمع قول نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ، كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، تَخَافُونَهُ عَلَيْهِ»[3]. قال ابن الجوزي: «تفكرت في قول شيبان الراعي لسفيان: «يا سفيان عُدّ منع الله إياك عطاء منه لك، فإنه لم يمنعك بخلًا، إنما منعك لطفًا»، فرأيته كلام من قد عرف الحقائق، فإن الإنسان قد يريد المستحسنات الفائقات فلا يقدر، وعجزه أصلح له؛ لأنه لو قدر عليهن تشتت قلبه».

وقال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في توطين النفس على الصبر والرضا عند الشدائد، وكيف تنقلب بذلك الرضا المحن إلى منح، ويتحول الألم إلى أمل، يقول: «مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس لها، وتمرينها عليها، ومعرفة ما تؤول إليه، تتقلب – عند أرباب البصائر – مِنحًا يُسرّون بها، ولا يبالون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

وقال ابن القيم: «ما أغلق الله على عبده بابًا بحكمته، إلا فتح له بابين برحمته»، وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا عَنْهُ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ١١٤ رقم ٥٦٤١)، ومسلم (٨/ ١٦ رقم ٢٥٧٣).

(٢) أخرجه مسلم (٨/ ٢٢٧ رقم ٢٩٩٩).

(٣) أخرجه أحمد (١٠/ ٥٦٢٤ رقم: ٢٤١١١). وصححه الألباني. ينظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٣٧٢).

(٤) أخرجه البخاري (٧/ ١١٤ رقم: ٥٦٤٠)، ومسلم (٨/ ١٤ رقم ٢٥٧٢).

وعن ابن مسعود عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى إِلَّا حَاتَّ اللهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ، كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ»(١).

وأيضًا ورد في السنة: «مَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»(٢).

ختامًا: وتعمدت أن أختم بهذا الحديث، الذي يبين جميل تقدير الله لعباده، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد يبتليهم أحيانًا بالمصائب ليطهرهم من المعايب، ويقدر عليهم المكاره ليوصلهم بها إلى الدرجات العلى من الجنة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللهِ المَنْزِلَةُ، فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ، فَلَا يَزَالُ اللهُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا»(٣).

* **إشراقة**(٤): **السعادة**: لمن تصفو الحياة؟

كثيرون يسألون أنفسهم هذا السؤال، وكثيرون يعجزون عن الإجابة عنه؛ لأنها تختلف باختلاف تحديدهم لمفهوم السعادة والراحة، والاتفاق على تحديد هذا المفهوم أصبح من المستحيلات.

فقال قوم: إن السعادة هي «الصحة»، وقال آخرون إنها «الإيمان»، وقال غيرهم إنها في «الطمأنينة»، وهناك من يراها في «الغِنى»، وأصحاب هذا الفهم نراهم يُذهبون لحظات السعادة الحقّة في دنياهم بحثًا وراء ما يسمونه وهمًا بالسعادة.

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ١١٥ رقم ٥٦٤٧)، ومسلم (٨/ ١٤ رقم ٢٥٧١).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٢٠٤ رقم ٢٣٩٩). وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

(٣) أخرجه ابن حبان (٧/ ١٦٩ رقم ٢٩٠٨)، والحاكم في مستدركه (١/ ٣٤٤ رقم ١٢٧٨)، وأبو يعلى (١٠/ ٤٨٢ رقم: ٦٠٩٥)، وأورده ابن حجر في المطالب العالية (١١/ ٧٦ رقم ٢٤٥٧/ ١). قال الهيثمي: «رجاله ثقات». ينظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: (٢/ ٢٩٢). وقد صححه الألباني. ينظر: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٤/ ٤٥٥).

(٤) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

والمتاعب واقعة لأنها توجد مع الإنسان، تُهادنه حينًا، ولكنها لا تفارقه، ولربما اعتبرها بعض المكافحين إحدى وسائل اللذة، فالمكافح قد يتطرق السأم إلى قلبه ونفسه لو طال به الأمد، ولم يلتق بما يُضاعف عزيمته، ويقوي إقدامه من العقبات والمتاعب؛ لأنها لمواهبه الدفاعية كالشحذ للمطواة، يقوي من مضائها وفتكها، وكلما اجتاز عقبة زاده تغلبه قوة، حتى يصبح الكفاح من مقوماته ومتطلباته، لينتهي به المطاف إلى درجة الإقدام والتضحية تمامًا، كما يقول الشاعر:

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأيسر ما يمر به الوحولُ

ولكني أرى السعادة الحقة في الإيمان المطلق بالله، والتسليم بعظيم قدرته، وشمول إحاطته وعلمه، وإن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وإن الأمة لو اجتمعت على نفع أو ضُرّ لم تقدر على بذل الأول، أو دفع الثاني إلا بأمر الله وتقديره.

* **إشراقة**[1]:

«ظاهرة مؤسفة؛ ألا يجد الناس لذة الضراعة إلى الله ودعائه إلا خلف أبواب العمليات، أو حول أسرة المرضى، أو قبل موسم الامتحانات».

* * *

الوقفة الثانية: الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة

قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ كانوا يظلمون الناس فلا يعدلون في الكيل والميزان، وكانوا يفسدون في الأرض، ويعبدون الأصنام، وفوق ذلك استهزأوا بنبيهم، وأرادوا إخراجه من قريتهم، واستعجلوا العذاب، فاستحقوا أن يجمع الله عليهم ثلاثة أصناف من

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

العذاب، وهم أمة واحدة: الرجفة، والصيحة، وعذاب يوم الظلة. وقد ذكر الله في كل سياق ما يناسبه من أصناف العذاب، ففي الأعراف لما قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ [الأعراف: ٨٨] ناسب أن تُذكر الرجفة، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١]، وفي سورة هود لما أساءوا الأدب في مقالتهم على نبيهم و﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] على سبيل السخرية والاستهزاء، وقالوا أيضًا: ﴿يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، لما أساؤوا الأدب في تلك المقالات ناسب ذلك مجيء الصيحة التي أخمدتهم وأسكتتهم، ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤]، وفي سورة الشعراء لما قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧] قال الله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] فأتاهم ما أرادوا. «وبعد أن ساق ابن كثير هذه الفائدة قال: وهذه من أسرار العلم الدقيقة، ولله الحمد والمنة كثيرًا دائمًا».

فنسأل الله أيها الأحبة أن يرزقني وإياكم الفهم في كتابه، وأن يزيدنا علمًا وعملًا، وأن ينفعنا بما علمنا، وقد أبلغ في النصح من قال:

كن في أمورك كلها متمسكًا ... بالوحي لا بزخارف الهَذَيانِ
وتدبر القرآن إن رُمت الهُدى ... فالعلم تحت تدبرِ القرآنِ

* **ومضة:**

علاج أمراض النفس وشفاؤها: كالقلق والاضطراب والاكتئاب والوسواس وغيرها بإذن الله في ثلاثة أمور مهمة –والله أعلم– بيّنها القرآن في ثلاث آيات: أولها:

زيادة الإيمان واليقين. وثانيها: الحرص على تنزل الرحمة. وآخرها: المداومة والإكثار من ذكر الله. ويجمع تلك الأمور كلها المداومة على تلاوة القرآن الكريم، والإكثار من استماع آياته، تأمل قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، فهنا يزداد الإيمان واليقين، في قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وهنا تتنزل الرحمات، في قوله ﴿وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وهنا اطمئنان القلب بذكر الله، في قوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، والقرآن أعظم الذكر على الإطلاق، فجمع ذلك كله تلاوة القرآن واستماعه، والمداومة على ذكر الله، ومتى ما زاد الإيمان في صدر المؤمن، وتنزلت الرحمة حتى غشيته، واطمأن القلب لم يعد هناك مكان للأمراض والعلل والآفات النفسية، فمن أصابه شيء من ذلك، فعليه بالإكثار من الاستماع إلى تلاوة القرآن العظيم، وصدق الله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] اللهم اشف كل مريض يا أرحم الراحمين شفاءً لا يغادر سقمًا.

* * *

الوقفة الثالثة: القرآن كمل من كل الوجوه

وصف الله عَزَّوَجَلَّ القرآن في كتابه العزيز بالمجد، فقال: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١] قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الوجوه كثير البركات، جزيل المبرات، والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام يوصف بهذا، هذا القرآن الذي احتوى علوم الأولين والآخرين، والذي حوى من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمها وأحسنها، وهذا موجبٌ لكمال اتباعه، وسرعة الانقياد له، وشكر الله على المِنة به».

وتأملوا الكمالات التي اجتمعت في القرآن الكريم، قال الله جَلَّجَلَالُهُ عن كتابه العظيم: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، قال أهل العلم: «وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تؤثر في النفوس، لهذا -وتأملوا معي الكمالات- أنزل الله أشرف الكتب -وهو القرآن- بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، في أشرف بقعة من الأرض، وفي أشرف الشهور، فكمل القرآن من كل وجه.

ومن كمال القرآن أيضًا ومجده وعظمته كمال هدايته، قال الزرقاني في مناهل العرفان: «هداية القرآن تمتاز بأنها عامة، وتامة، وواضحة، أما عمومها: فلأنها تنتظم الإنس والجن، في كل عصر ومصر، وفي كل زمان ومكان، وأما تمامها: فلأنها احتوت على أرقى وأوفى ما عرفت البشرية، وعرف التاريخ من هدايات الله والناس، وانتظمت كل ما يحتاج إليه الخلق في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات على اختلاف أنواعها، وجمعت بين مصالح البشر في العاجلة والآجلة، ونظمت علاقة الإنسان بربه وبالكون الذي يعيش فيه، ووفقت بطريقة حكيمة بين مطالب الروح والجسد، والقلب والعقل، وأما وضوح هذه الهداية: فلعرضها عرضًا رائعًا مؤثرًا، توافرت فيه كل وسائل الإقناع، بأسلوب فذ معجز في بلاغته وبيانه، واستدلال بسيط عميق يستمد بساطته وعمقه من كتاب الكون الناطق، وأمثال خلابة تخرج أدق المعقولات في صورة أجلى الملموسات، وحكم بالغات تبهر الألباب، وقصص حكيم مختار يقوي الإيمان واليقين، ويهذب النفوس والغرائز، ويصقل الأفكار والعواطف، ويدفع الإنسان دفعًا إلى التضحية والنهضة»[1].

لذا فقد اجتمع لهذا القرآن الكريم من المجد والعظمة وكمال الهدايات، ما لا يعلمه إلا الله، وتأمل وصف الله لكتابه العزيز، وصف الله القرآن العظيم بأنه الحق والصدق، وبأنه عزيز كريم، عليٌّ عظيم، قيم ومهيمن، مباركٌ ونورٌ وبرهان، شفاءٌ

(١) محمد عبدالعظيم الزرقاني، مناهل العرفان (١/ ٢١).

وبصائـر وفرقـان، ورحمـة وبشرى، وروحٌ وهـدى وذكرى، وما ذلـك إلا ليُعظم عباده قدر القرآن الكريم ويفهموه، فإن فعلوا ذلك، استخرجوا منه الشفاء لقلوبهم، والعلاج لمشكلاتهم، والصلاح لأحوالهم، والهداية في كل شؤونهم».

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فما من شيء إلا وعلمه في القرآن، غير أن آراء الرجال تعجز عنه».

وقبل الختام: القرآن، شفاء ورحمة، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢] «فالشفاء الذي تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب، من الشبه والجهالة، والآراء الفاسدة، والانحراف المقيت، والقصود السيئة، فالقرآن مشتمل على العلم اليقيني، الذي تزول به كل شبهة وجهالة، تعُوق القلب عن السير إلى الله، وعلى الوعظ والتذكير الذي تزول به كل شهوة، تخالف أمر الله، وأيضًا فهو مشتملٌ على شفاء الأبدان من آلامها وأسقامها، وأما الرحمة، فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التي يحث عليها، متى فعلها العبد فاز بالرحمة والسعادة الأبدية، في الدنيا بالحياة الطيبة، وفي الآخرة بجنة عرضها السماوات والأرض».

أمـا الختـام، فالمسـلمون روحهـم القرآن، فمتـى ما عملـوا بـه، وسرت هداياته في عروقهم، كما يسري الماء في أغصان الشجر وأوراق الزهر، عادت إليهم حياتهم، وأبصروا بتعاليمه العز والمجد والشرف والسؤدد. فيا رب ردنا جميعًا إلى كتابك ردًّا جميلًا.

القلادة الرابعة عشرة

الوقفة الأولى: الرجاء والخوف

الحمد لله على حلمه بعد علمه، وعلى عفوه بعد قدرته، أحمده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حمدًا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين. أما بعد:

فمن عادة القرآن العظيم أيها الكرام ذكر آيات الرجاء مقرونة بآيات الخوف، وآيات الخوف مقرونة بالرجاء، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، والحكمة –والله أعلم– لِيعتدل الرجاء والخوف في قلب المؤمن، فلا يطغى الرجاء فيصل بالإنسان إلى الإرجاء، فيتساهل في الذنوب والمعاصي، ولا يغلب في الجانب الآخر الخوف، فيصل بالإنسان إلى القنوط من رحمة الله، فلا يبادر إلى التوبة والرجوع، فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء يُكثر من الطاعات.

وقد قال أهل العلم: إن الأولى بالمؤمن في صحته وقوته أن يغلب جانب الخوف قليلًا، ليرتدع عن الذنوب، وعند انقطاع أجله يغلب جانب الرجاء، ليُقبل على ربه،

وهـو حسـن الظن بـه جَلَّوَعَلَا، قال النبـي الكريـم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الحديـث الصحيح: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ»[1].

وقـد ذكر ابـن القيم في تفصيل جميـل أنواعًـا للرجاء والخوف، فقـال -بتصرف- متحدثًـا عن الخوف أولًا: «الخوف من أجلّ منـازل الطريق، وخوف الخاصة أعظم من خـوف العامة، وهم إليه أحوج، وهم به أليـق وله ألزم، أما خوف العامة فمن عقوبات المعـاصي والذنـوب، وأما خوف الخاصة فمـن تقلب الأبصار والقلـوب، فالأول ثمرة الإيـمان بالوعـد والوعيـد، والثاني ثمـرة اليقين بـأن الله فعّال لما يريـد، وكلاهما يدفعان المؤمـن الصـادق دفعًا إلى التوبة النصـوح، وتكرارها ودوام الإنابة إلى الله، وسـؤال الله الثبات على ما يرضيه حتى لقياه.

وأمـا في جانب الرجاء، فيقول ابن القيم: «أجمـع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل، قال أهل العلم: علامة صحة الرجاء حسن الطاعة، والرجاء ثلاثة أنواع: نوعـان محمودان، ونوع مذموم، فالأولان رجاء رجل يعمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راج لثوابه، ورجل أذنب ذنوبًا ثم تاب منها، فهو راج لمغفرة الله وعفوه وإحسـانه، وأمـا الثالـث فرجل متـماد في التفريط والخطايا، مسرف على نفسـه، يرجـو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب».

واختلفوا هنا في النوعين المحمودين أيهما أقوى؟ رجاء المذنب التائب غفران ذنوبه وعصيانه، أم رجاء المطيع ثواب ربه وفضله وإحسـانه، وفي هذا يقول يحيى بن معاذ: يا رب «يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال؛ لأني أجدني أعتمد في الأعـمال على الإخلاص، وكيف أصفّيهـا وأحرزها؟ وأنا بالآفات معروف، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟».

(١) أخرجه مسلم (٨/ ١٦٥ رقم ٢٨٧٧).

وهنا وقفة: يجب على العالم والداعية إلى الله ومعلم الناس الخير أن يقتدي بأسلوب القرآن في الدعوة، وفي الجمع بين الترغيب والترهيب، ويعلم متى يُغلب هذا أو ذاك، فإن رأى خوفًا أو يأسًا أو شيئًا من القنوط، استعمل الترغيب والرجاء، كما قال ربنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وإن رأى في الجانب الآخر تهاونًا وإهمالًا وإسرافًا، استخدم الترهيب والتخويف، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، وفي أكثر المواقف التي لا يغلب فيها جانبٌ الآخر يجمع بينهما، كما هو ديدن كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

قبل الختام: لاعتدال واجتماع الرجاء والخوف في قلب المؤمن ثمرات جليلة، منها ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية العظيمة، يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، فعلمهم بالله أورثهم اعتدال الرجاء، والخوف في قلوبهم، فكانت الثمرة دوام الإنابة إليه، وشرف الخضوع بين يديه، فأثنى الله عليهم بقنوتهم آناء الليل سُجدًا وقيامًا، وتأمل ارتباط الرجاء والخوف في قلب المؤمن بقيام الليل في الآية، وأيضًا في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، وكأن -والله أعلم- من أعظم الأدلة على اعتدال وامتلاء القلب بخشية الله ورجائه ومحبته، قيامك بين يديه حُبًّا له، وخوفًا من عذابه، ورجاءً لرحمته، وفي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩] دليل على عظيم شرف العلم بالله، وما يورثه ذلك العلم من أعمال قلبية جليلة وأيضًا من أعمال جوارح كقيام الليل، ومن تأمل القرآن وجد الثناء على أهل العلم بأعمالهم، فعلم بلا عمل جسد بلا روح، ويوم القيامة يكون -ذلك العلم بلا عمل- حُجة على صاحبه، فنسأل الله علمًا نافعًا وعملًا صالحًا.

ختامًا: قال بعض السلف: أكمل الأحوال في القلب، اجتماع الرجاء والخوف والحب، فالحب هو المركب، والرجاء حاد، والخوف سائق، والله هو المُوصل بمنه وكرمه.

اللهم املأ قلوبنا حبًّا لك، وحياءً منك، وإقبالًا عليك.

* **إشراقة**[1]: **العلم والقراءة:**

طالما شغلني هذا التساؤل المهم، وهو: «كيف نفسر إحجام الشباب وغيرهم عن القراءة الحرة، وكيف ندفع بهم إلى اعتيادها والإقبال عليها؟»، فالملاحظ أن الكثير من شبابنا، وحتى الجامعيين منهم باتوا بمعزل عن المصدر الدائم والمتجدد للعلم والثقافة؛ ربما لأنهم قنعوا بالإجازات التي يحملونها، والتي لا تعني أكثر من نقطة البدء في عالم متطور لا تنقضي عجائبه، ولا تحد كنوزه، أو لأنهم عجزوا عن إقناع أنفسهم بفضيلة القراءة المنظمة التي تصلهم بآفاق المعرفة التي لا يحصرها حيز، وحَسِبوا أن عليهم أن ينصرفوا لواجبهم العملي وحده في تعليل مخادع للواقع السيئ الذي يعيشونه، وربما لم يستطيعوا أن يُخضعوا حياتهم لما تحتاج إليه من تنظيم يجب أن تحتل في ظلاله قراءة الكتب أثمن الأوقات وأهدأها، وسواء كان هذا السبب أو ذاك، فنحن نعيش معهم واقعًا بالغ الأثر والتأثير في نهضة بلادنا، وسيترك بلا شك ملامحه الكئيبة على كل جوانب حياتنا، فالغالبية العظمى من رجالات الدولة وشبابها والعاملين بها لا يقرؤون بصفة منتظمة، والبعض منهم ربما يمضي عليه العام والعامان، وهو لم يفرغ من قراءة كتاب واحد، وحسبه من القراءة أن يلم بالصحف والمجلات، ويحسب أنه قد نال ما يبتغي، وحصل على ما يريد، ولعل هذا هو السر الذي يختفي وراء ما نلحظه جميعًا من تدني مستوى الإنتاج وعدم القدرة على التطوير، ولست بحاجة إلى تدليل فالمكتبات العامة لا يرتادها

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

إلا النزر اليسير، والمكتبات الخاصة التي تأخذ مكانها في بعض المنازل، ربما كانت عند الكثير إحدى وسائل التجميل للمنزل أو أمام الأصدقاء.

ولكي نعالج هذه الظاهرة، ليُحاول كل واحد منا أن يخصص ساعة من كل يوم للقراءة الهادفة المختارة، ثم ليشهد بعد قليل من الوقت ما تمده تلك العادة من ثقة بنفسه وتركيز لآرائه وقدرة على تحقيق آماله.

* * *

الوقفة الثانية: موكب الملائكة

قال ربنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه بالليل والنهار، حافظان وكاتبان، فهو بين أربعة ملائكة بالنهار، وأربعة آخرين بالليل، الكاتبان عن يمينه وشماله يكتبان الأعمال، والحافظان من أمامه وخلفه يحفظانه ويحرسانه. وقد جاء في الصحيح: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ وَصَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»[1]. وتذكر قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

وأقول: لا يحافظ على تلك الصلاتين إلا من امتلأ قلبه حبًّا لمولاه، وذاق لذة القرب من الله، فتجده إن ابتعد قليلًا هاج من قلبه، وسال من عينه ما لا يمكنه رده وإخفاؤه، فيعود إلى ربه سريعًا تائبًا نادمًا، وتأمل وصف من صدقت محبته:

(١) أخرجه البخاري (١/ ١١٥ رقم ٥٥٥)، ومسلم (٢/ ١١٣ رقم ٦٣٢).

بَكى وحُقَّ له إرســـالُ دمعتِهِ عبدٌ تَباعَـــدَ عن مولاه وانْتزَحَا
سَـــقَتْه لوعَتُهُ أنـــواعَ عَبرَتِهِ إذا انْقضى قَدَحٌ أهْدَتْ لهُ قَدَحَا
كذا المُحِـــبُّ إذا صَحَّتْ مَوَدَّتُهُ أيَّامَ فُرْقَتِهِ لا يَعْـــرِفُ الفَرَحَا

– فهنيئًا لمن حافظ على إقامة الصلوات جماعة وخصوصًا صلاتي العصر والفجر، فهما ما قصده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «مَنْ صَلَّى البَرْدَيْنِ دَخَلَ الجَنَّةَ»[1]، ويكفي المحافظ عليهما فضلًا ومكانة أن ملائكة الرحمن تشهد له، وتثني عليه وعلى إخوانه أمام خالقهم، فتقول: «تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»، وهذا والله هو الشرف والمجد، والعز والسؤدد، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

* **ومضة: من قلائد الحكمة:**

قال الأستاذ حمد القاضي وصدق: «من يقرأ ويكتب لا يمكن أن يشعر بفراغ».

وقد قال أحد الأدباء: «أنا أقرأ لأني لا أريد أن أعيش حياة واحدة، فإذا قرأت عشت أكثر من حياة»، ومن طالع أخبار من مضى فقد أضاف عمرًا إلى عمره.

ومن أجمل ما قيل عن الكتاب، قولهم:

– «الكتاب نِعمَ الأنيس في ساعة الوحدة، ونعم المعرفة في دار الغربة، بستان يحمل في –كف–، وروض يقلب في حجر».

– «ينطق عن الموتى، ويترجم عن الأحياء، إن وعظ أسمع، وإن ألهى أمتع، وإن أبكى أدمع، يفيدك ولا يستفيد منك، ويزيدك ولا يستزيد منك».

(١) أخرجه البخاري (١/ ١١٩ رقم ٥٧٤)، ومسلم (٢/ ١١٤ رقم ٦٣٥).

- «هو قبر الأسرار، ومخزن الودائع، وقيد العلوم، ومنبع الحكم، ومعدن المكارم، إن أطلت النظر إليه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجود بيانك، وفخم ألفاظك».
- «إن ألّفته خلد على الأيام ذكرك، وإن درّسته رفع في الخلق قدرك».
- «يجلو العقل، ويشحذ الذهن، ويحيي القلب، ويقوي القريحة، ويبعث نتائج العقول، ويستثير دفائن القلوب، ويمتع في الخلوة، ويؤنس في الوحشة، ويضحك بنوادره، ويسر بغرائبه».

قال ياقوت الحموي يصف حبه لكتابه «معجم الأدباء»:

ولو أنني أنصفته في محبتي ... لجلدته جلدي وصندقته عظمي
ولو أنني أستطيع من فرط حبه ... لمازال عن كفي ولا غاب عن كمي

****

الوقفة الثالثة: المثل الناري والمائي

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمثلة الماء والنار موجودة في الكتاب والسنة، فقد ضرب الله في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين: ناريًّا ومائيًّا، وهما قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٧-١٨]، ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، وضرب الله للكافرين في سورة

النور مثلين: الأول قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور: ٣٩] الآية، والسراب يكون في شدة الحر، كما ورد في الصحيحين: أن اليهود يردون النار، فإذا هي كالسراب يحطم بعضها بعضًا، ثم قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في المثل الآخر: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]. أما أمثلة السنة، فقد جاء في الصحيحين أن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[1]، فهذا مثل مائي، وقال صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الآخر في الصحيحين أيضًا: «مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجِزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا، قَالَ: فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ: هَلُمَّ عَنِ النَّارِ. هَلُمَّ عَنِ النَّارِ. فَتَغْلِبُونِي تَقَحَّمُونَ فِيهَا»[2]. وهذا المثل الناري. والله أعلم.

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في بدائع الفوائد: «من فوائد ضرب الأمثال في القرآن التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل، كنِسبة المحسوس إلى الحس». ثم قال: «وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر».

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢٧ رقم: ٧٩)، ومسلم (٧/ ٦٣ رقم ٢٢٨٢).
(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٢ رقم ٣٤٢٦)، ومسلم (٧/ ٦٣ رقم ٢٢٨٤).

وفي ختام وقفتنا: كان أحد السلف إذا قرأ مثلًا في القرآن ثم لم يفهمه، بكى على نفسه، ثم قرأ قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وما بكاؤه إلا خوفًا ألّا يكون منهم.

فاللهم زدنا علمًا، وانفعنا بما علمتنا، واجعلنا ممن فقه في دينك، وانتفع بما بعثت به نبيك، فعَلِمَ وعَلَّمَ.

* **ختام القلادة الرابعة عشرة**: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾:

يعجز العباد عن تعداد نعم الله، فضلًا عن شكرها، وقد جاء في صحيح البخاري: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «الحَمْدُ لله كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلَا مُوَدَّعٍ، وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنَا»[1]، فالحمد لله عدد كل رحمة غمرتنا، ولطف خفي غاب عنا، الحمد لله عدد كل نعمة نسينا فلم نذكرها، وغفلنا فلم نشكرها.

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٨٢ رقم: ٥٤٥٨).

القلادة الخامسة عشرة

الوقفة الأولى: الحياة الطيبة.

الحمد لله عدد كلماته التي فاضت على البحور، وتضمنت الهدى والنور، والصلاة والسلام ما تعاقبت الأيام والشهور، على من أكرمه ربه، وشرفه بالمقام المحمود يوم البعث والنشور. أما بعد:

فيقول الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، في الآية وعدٌ من الله، والله جَلَّ وَعَلَا لا يُخلف الميعاد، لمن آمن وعمل صالحًا بأن الله سيحييه حياة طيبة، ولقد فُسرت الحياة الطيبة أيها الأحبة بعدة أمور: بالرزق الحلال الطيب، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وجماعة، وبالقناعة عن علي بن أبي طالب وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وعكرمة، وبالسعادة في قول آخر عن ابن عباس، وبالعمل بطاعة الله والانشراح بها عن غيرهم، والصحيح: أن الحياة الطيبة تشمل ذلك كله، كما قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

أما القناعة فهي أصل الأنس والرضا والراحة، وقد قال الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ»[1]، وقد قيل

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٠٢ رقم ١٠٥٤).

لأحد الصالحين: ما مالك؟ قال: الرضا عن الله، والغنى عن الناس، قالوا: مسكين، قال: كيف ومولاي ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ [طه: ٦].

وأما السعادة التي يبحث عنها كل أحد، فهي -والله أعلم- التوفيق لنيل الخيرات في الدنيا والآخرة، وهي في الدنيا الحياة الطيبة، التي تشمل جميع ما ذكرناه من الرزق الحلال الطيب والقناعة به والتوفيق للطاعة، وشرطيها: الإيمان والعمل الصالح، وأما السعادة في الآخرة ففي الجنة. نسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهلها.

وهنا وقفة، ينبغي أن يُعلم أيها الأحبة أن من أراد الهداية والحياة الطيبة، واطمئنان القلب والفرح والسعادة، فعليه بتدبر القرآن والعمل به، وتأملوا: الهداية ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، الحياة الطيبة ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ [النحل: ٩٧]، الاطمئنان ﴿بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، الفرح ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: ٥٨]، والسعادة ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [هود: ١٠٨].

واسمعوا قول أحد السلف، وقد تدبر القرآن، فسرى في عروق قلبه، حب كتاب ربه، قال: «إن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قضى على نفسه أمورًا في كتابه -ولا مُلزم على الله جَلَّ وَعَلَا-، منها أن من آمن به هداه: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، ومن توكل عليه كفاه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وأن من أقرضه جازاه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وأن من دعاه أجابه وأعطاه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فيا رب نسألك الهداية لنورك، والحياة الطيبة بالإيمان بك، واطمئنان قلوبنا بذكرك، والفرح بفضلك ورحمتك، والسعادة بدخول جنتك.

* **إشراقة[1]: نورٌ رغم الظلمات:**

عجبت لمن يتخذ الإخلاص منهجًا، والشرف رفيقًا، ثم لا يوطن النفس على قبول الشدائد ومواجهة الصعاب، فالأعمال الكبيرة تحتنكها دائمًا المتاعب والمشاق، ولولاها لما تميز بالخير فاعل، ولا عُرف بالإقدام بطل، تمامًا كما قال الشاعر:

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يُفقر والإقدام قتّالُ

وهي ضريبة «الأمجاد» يبذلها العباقرة والرواد في طواعية ولذة، فتضيء في صفحات المجد أسماؤهم، وتردد الدنيا بطولاتهم.

فيا من تتمسك اليوم بمبادئ دينك أمام كل إغراء منحرف أو تأثير ماكر، ويا من تحافظ في كل حياتك على الفضيلة والصدق، تتخذهما صفتين لازمتين لك، ولمن تملك أمره عن رغبة واقتناع، ويا من سموت بنفسك عن -الضعف- فلم تدنسها بالخيانة أو الرشوة أو الاختلاس على الرغم من حاجتك واستطاعتك، ويا من تراقب الله في عملك فتؤديه بكل طاقتك، فلا يهدأ لك بال حتى ترى نتائج جهودك تضيء الطريق لك، ويا من تُغالب مع مطلع كل يوم جديد متاعب احتياجك ووطأة مطالبك، لتجعل من دخلك الطيب وحده السبيل إلى تحقيق الممكن منها.

لك يا أخي أقول: أنت على حق وإن أطفأوا كل مضيء في طريقك، وعلى فوز لأن الله معك.

* * *

الوقفة الثانية: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾

سميت سورة النحل بسورة النعم، لتعدد نعم الله التي ذكرت في آياتها، ومن قرأها بتدبر وتفكر علم يقينًا أنه غارق في نعم الله جَلَّجَلَالُهُ، وأنه لن يستطيع شكرها، ولو

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

سجد لله حياته كلها، فلا أقل من أن يستقر في قلب العبد الانكسار والافتقار والتقصير، وأنه عاجز عن شكر نعم الله التي تحيط به من كل جانب، في نفسه وجسده وفي الآيات والكائنات من حوله، ولنتأمل ما ورد من النعم في أثناء آيات السورة الجليلة، فبعد أن ذكر الله من النعم خلق السماوات والأرض بالحق، وخلق الإنسان من نطفة، وخلق الأنعام والخيل والبغال والحمير وما فيها من الدفء والمنافع والجمال وحمل الأثقال في السفر، ذكر الله المطر وكونه شرابًا وسببًا في نبات أشجار الزيتون والنخيل والأعناب وكل الثمرات، ثم ذكر الله تسخيره لليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، وما خلق في الأرض كالجبال والحيوانات والمعادن والنباتات والورود والأزهار وغيرها، وكيف تعددت ألوانها كلها وتمايزت، ثم ذكر تسخيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للبحار والمحيطات، وما فيها من أنواع الأسماك والحيتان واللؤلؤ والمرجان والحلية، التي تستخرج من القاع، وتسخير الفلك تمخر عباب البحر بأمواجه العالية، وتنتقل من مكان إلى مكان بما فيها من أطنان الحمولة والشحن، ثم ذكرت السورة الجبال الرواسي والأنهار التي تقطع المئات من الكيلومترات، بل الآلاف وما يتفرع منها من الأودية والجداول والسواقي وغيرها، فينتفع بها الناس، فيشربون ويسقون، وما في الأرض من علامات كالهضاب والمرتفعات والأحجار التي ترشد المسافرين في النهار، وفي الليل يهتدون بالنجوم المضيئة التي سخرها الله زينة للسماء بأنوارها وجمالها، ومن النعم أيضًا في السورة الألبان يخرجها من الأنعام من بين فرث ودم لبنًا سائغًا للشاربين، وأيضًا الشراب من ثمرات النخيل والأعناب، والعسل الذي يخرج من بطون النحل، ثم ذكرت السورة أيضًا نعمة خلق الإنسان ورزقه بالسمع والأبصار والأفئدة، وتسخير الله لبني البشر ليبنوا البيوت والأثاث من أصواف الغنم وأوبار الإبل وأشعار المعز، وما خلق الله أيضًا من الظلال وحصون الجبال وسرابيل الثياب واللباس من القطن والكتان والصوف يقي الحر والبرد، والحديد في لباس الحرب كالدروع، ليقي البأس وغيرها الكثير الكثير من نعم الله، التي لا تعد ولا تحصى، وهنا وقفة تأمل، لاحظوا أيها الأحبة ما جاء بعد

أن ذُكرت أكثر هذه النعم في أول السورة، ثم ما جاء بعد ذكر تمام النعم في آخرها، أما في أولها فقد قال الله جَلَّجَلَالُهُ بعد ذكر النعم: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٧-١٨]، أي: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير ويجازي على اليسير.

وقال ابن جرير في تفسير الآية: «أي: إن الله لغفور لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته، رحيم بكم، لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة»، فلا إله إلا الله. وأما في آخر السورة فبعد أن ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقيت النعم، قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]، قال المفسرون: «أي لعل هذه النعم تكون لكم عونًا تستعينون بها على طاعة ربكم وعبادته»، ثم قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٢-٨٣]، وجاء أيضًا في آخر السورة قول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فيا رب أوزعنا أن نشكر نعمتك التي أنعمت علينا وعلى والدينا، وأن نعمل صالحًا ترضاه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

ختامًا: رُوي «أن أعرابيًّا مرض، فقيل: إنك ستموت؟ قال: وإذا مت إلى أين أذهب، قالوا: إلى الله عَزَّوَجَلَّ، قال: فَلِمَ أكره الذهاب إلى من لم أر الخير إلا منه»، وقال شاعر وصدق:

نِعَمٌ توالى لو نقوم بحقها ... لله بتنا راكعين وسجدا

فالحمد لله عدد ما خلق، والحمد لله ملء ما خلق، والحمد لله عدد ما في السماوات وما في الأرض، الحمد لله عدد ما أحصى كتابه، والحمد لله ملء ما أحصى كتابه، والحمد لله عدد كل شيء، والحمد لله ملء كل شيء.

* **ومضة: أربعة أصناف:**

قال أهل العلم: «الناس مع نعم الله على أربعة أصناف -كما قال أهل العلم-: صنف لا يعرف النعم إلا بعد زوالها، كما قال الله: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]، وصنف ثانٍ يعرف النعم، ولكنه يدعي أنها أتته من جهده أو عرقه أو نسبه، كما حكى القرآن عن قارون ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وصنف يعرف النعم، ولكنه ينشغل بها عن شكرها، ينشغل بالأموال والمتع والدنيا، وقد نهى القرآن ونهت السنة عن ذلك، وصنف أخير يعرف نعم الله، وأنها من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيقيدها بالشكر بأنواعه، وقد قال الله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، وهذا الصنف قليل: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾، فاللهم اجعلنا منهم، وأدخلنا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين».

* * *

الوقفة الثالثة: اللبن والعسل

اللبن والعسل نعمتان عظيمتان، قال ربنا عَزَّوَجَلَّ في الأولى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، وفي ذلك نعمة عظيمة، قلّ من يتنبه لها، يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية: «أي ما بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كلٌّ إلى موضعه إذا نضج الغذاء في معدته، فيصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر، ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير به. فسبحان الله العلي العظيم.

ويقول ربي جَلَّوَعَلَا في العسل والنحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩]، قال ابن كثير: «هدى الله وأرشد وألهم النحل أن تتخذ من الجبال بيوتًا تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم هي محكمة -تلك البيوت- في غاية الإتقان في تسديسها ورصّها، بحيث لا يكون في بيتها خلل، ثم أذن الله لها إذنًا قدريًّا تسخيريًّا أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مذللة لها، أي: مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم، والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، فتبني الشمع من أجنحتها، وتقيء العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها».

فسبحان الله الذي سخرها وهداها، الذي: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

* **ختام القلادة الخامسة عشرة**: الجود والكرم:

رأى الحسن بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ غلامًا في حائط من حوائط المدينة، يأكل من رغيف لقمة، ويطعم كلبًا هناك لقمة، فقال له: «ما حملك على هذا؟»، قال: «إني أستحيي من أن آكل ولا أُطعمه»، فقال له الحسن: «لا تبرح مكانك حتى آتيك»، فذهب إلى سيده فاشتراه، واشترى الحائط الذي هو فيه، فأعتقه وملّكه الحائط، فقال الغلام: «يا مولاي قد وهبت الحائط للذي وهبتني له».

وقيل للحسن بن سهل وقد كثر عطاؤه على اختلال حاله: «ليس في السرف خير»، فقال: «بل ليس في الخير سرف»، فردّ اللفظ واستوفى المعنى.

ورأى الأحنف في يد رجل درهمًا، فقال: لمن هذا؟ قال: لي، قال: لا، حتى تخرجه في أجر أو اكتساب شكر، وتمثل:

أنت للمـــال إذا أمســـكته وإذا أخرجتـــه فالمـــال لك

ختامًـا: لا ترد سـائلًا، وإن كنت على فاقة، سُـئل الحسـن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لأي شيء نراك لا ترد سـائلًا، وإن كنت على فاقة»، فقال: «إني لله سـائلٌ، وفيه راغب، وإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عـودني عادة، عودني أن يفيض نعمه عليّ، وعودته أن أفيض نعمه على الناس، فأخشـى إن قطعت عادتي أن يمنعني عادته».

لذا أقول: والله أعلم، لا تجد تاجرًا أو رجل أعمال مؤديًا لزكاة ماله، كثير الصدقات يحـب الإنفـاق في وجـوه الـبر، لا تلهيـه الصفقـات والاجتماعـات عـن ذكـر الله وعن الصلـوات الخمـس جماعـة في بيـوت الله، إلّا وجـدتَ أن الله مبارك لـه في رزقه وعمله وتجارته، فإن الله يقول: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧]، ثم اسـمع الجزاء: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النـور: ٣٨] وان ابتـلاه الله بـشيء ليرفع درجتـه، رزقه في طياته الصـبر والرضا والقناعـة، فمن لم تلهه تجارته وبيعه عن ذكـر الله، رزقه الله من حيث لا يحتسـب، فـإن أردت البركة في الرزق والبيـع والحياة، فاعمل بتلـك الآيات، وكن على يقين بأن ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

القلادة السادسة عشرة

الوقفة الأولى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾

الحمد لله الذي سيّر بقدرته الفُلك والفَلَك، ودبّر بصنعته النور والحَلك، أحمده سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حمدًا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأصلي وأسلم على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها الأفاضل، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأمر بتسبيح الله يقتضي تنزيهه عن كل عيب وسوء، وإثبات المحامد التي يُحمد عليها، فيقتضي ذلك تنزيهه وتحميده وتكبيره وتوحيده»، وأقول -والله أعلم-: من هنا يُعرف فضل هذا الذكر الجليل، ألا وهو قول: «سبحان الله وبحمده»، فقد وردت العديد من الآيات والأحاديث في بيان فضل هذا الذكر بالتحديد كما سيأتي معنا، ومن هنا أيضًا يُعرف معنى قولنا: «سبحان الله وبحمده»، فبالتسبيح تنزه الله عن كل نقص وعيب، ثم في نفس اللحظة بالتحميد تحمده -بعد تنزيهه- على كماله وكمال صفاته، وعلى رحمته ولطفه وسعة جوده وفضله وعلمه، وعلى سائر أفعاله وصفاته، فتنزه الله عن النقص، وأنت تحمده على الكمال، جل جلال ربنا وتقدست أسماؤه، وتأمل كيف أتى الحمد بعد التسبيح في القرآن، حين أثنى ربنا على ذاته العليّة: قال الله: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢]، ولنعلم أيها الأحبة أن

كل المخلوقات حولنا في هذا الكون الفسيح تسبح لله جَلَّوَعَلَا، يقول الله تَبَارَكَوَتَعَالَ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ويقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿كُلٌّ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١]، وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: «كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل»، كما ثبت أيضًا أن: «سبحان الله وبحمده» صلاة كل شيء، وبها تُرزق الخلائق، كما صحّ عن عبدالله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن نوحًا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قال لابنه عند موته: «آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً، قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ الخَلْقُ»(١)، وفي الصحيح: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ. فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ»(٢)، فسبحان الله وبحمده: عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته.

قبل أن أختم: تبين معنا أيها الأفاضل مما سبق أن التسبيح له شأن عظيم، كما أن آثاره الطيبة في حياة المؤمن لا تعد ولا تحصى، ومن ذلك أثره الجميل في ذهاب ضيق الصدر، كيف لا وهو من أشرف الذكر، وقد قال الله: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وتأمل قول الله عز وجل لنبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩-٤٠]، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في موضع آخر: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]، ولعل هناك حكمة ولطيفة والله أعلم، وهي أن التسبيح فيه تنزيه للخالق عن كل عيب ونقص، جلَّ

(١) أحمد (٣/ ١٣٨٦ رقم ٦٦٩٤). قال الهيثمي: «ورجال أحمد ثقات». ينظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: (٤/ ٢١٩)، وصححه الألباني. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٢٦ رقم ٣٢٩٣)، ومسلم (٨/ ٦٩ رقم ٢٦٩١).

جلاله وتقدست أسماؤه، فسبحان الله الذي له الجلال والكمال والجمال كله، فإذا تذكرت أن الله جَلَّوَعَلَا قد بيّن في القرآن الكريم: أن أقوامًا قد تجرّأوا على خالقهم ومولاهم -نعوذ بالله من ذلك- فذكر القرآن مقالتهم، ثم نزّه المولى جَلَّجَلَالُهُ نفسه بالتسبيح والتقديس، إذا تذكرت ذلك فسبحت الخالق، هان عليك ما تلقاه أنت من مضايقات أو كلام سوء في سبيله جَلَّوَعَلَا، فيكون ذلك بلسمًا وشفاء لضيق صدرك، فيعود القلب والصدر صابرًا راضيًا منشرحًا، يرجو الثواب من الله عَزَّوَجَلَّ، فيا من أساء الناس إليك بكلامهم، عليك بالتسبيح، ففيه بإذن الله الدواء والشفاء، وأيضًا هي رسالة إلى كل من ضاق صدره، وزاد همه: أكثر من تسبيح الله وذكره، وسيُذهب الله ضيقك والحزن، ويحل الأنس والفرح بإذن الله.

أما الختام: فمن تيقن من ثلاث ارتاح قلبه واطمأنت نفسه: لا راحة في الدنيا، ولا نجاة من الموت، ولا سلامة من الناس، نعم لا سلامة من الناس، وأعجبني ما قاله الشاعر في أبياته الجميلة -وقد صدق-:

والله لو صحب الإنسان جبريلا ... لم يسلم المرء من قال ومن قيلا
قد قيل في الله أقوال مصنفةٌ ... تُتلى إذا رُتِّل القرآن ترتيلا
قد قيل إنّ له وُلدًا وصاحبةً ... زورًا عليه وبهتانًا وتضليلا
هذي مقالتهم في الله خالقهم ... فكيف لو قيل فينا بعضُ ما قيلا!

* **إشراقة[1]: القراءة الحرة:**

والحديث عن جدوى القراءة الحرة يجب أن يظل متجددًا تجدد العلم الذي لا يقف عند حد، فالشاب ينتهي من مراحل دراسته، وينال شهادته، وينقطع عن ممارسة إنماء

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

مداركه وذوقه ومعارفه، ولا يدري أنه بذلك يحكم بالفشل على واقعه، والفراغ في محيط ما يعلم، فالشهادات لم تكن يومًا نهاية المرحلة العلمية، لكنها بدايتها، والعبرة بما يؤديه حامل الشهادة من إنتاج وتضحية وإصلاح، وتظل المكتبة هي الجامعة الأم، يبتدئ المرء بها مرحلته العلمية الحقة اطلاعًا وشمولًا وإدراكًا، والنماذج التي تشهدها المجتمعات لعجز الكفاءات عن العطاء، إنما يعود لأمرين، أولهما الغرور بما وصل إليه الدارس من مرحلة، والثاني عجزه عن مواصلة الاطلاع والبحث.

ولا أزال أتذكر الحكمة البليغة القائلة: «لا يزال الإنسان عالمًا ما طَلَبَ العلم، فإذا ظنّ أنه عَلِم فقد جَهِل»، هذه هي الحقيقة، وإن وجدها البعض مُرة، ولكن مواجهة الحقائق أجدى من تجاهلها، والرجال وحدهم هم المرشحون لتحقيق أماني أوطانهم.

* * *

الوقفة الثانية: سيد ولد آدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قال ربنا جَلَّ وَعَلَا، لنبيه وخليله من اصطفاه وزكاه، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨-٧٩]، يقول أهل العلم: أيها الأحبة إنَّ «للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمورًا شرفه الله بها يوم القيامة، لا يساويه فيها أحد، فهو أول من تنشق عنه الأرض، ويُبعث راكبًا إلى المحشر، وله اللواء الذي آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فمن دونه تحت لوائه، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر واردًا منه، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لفصل القضاء بين الخلائق، وتلك الشفاعة هي المقام المحمود، الذي قال الله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] حين يسأل الناس آدم ثم نوحًا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فكل يقول: «لست لها»، حتى يأتوا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول: «أنا لها»، ومن خصائصه أيضًا أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أول الأنبياء قضاءً بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته، وهو أول شفيع في الجنة، وأول داخل إليها، وأمته قبل الأمم كلهم، ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم، وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة لا تليق إلا له، وإذا أذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الشفاعة للعصاة، شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولا يشفع أحد من الخلق مثله، أو يساويه في ذلك، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

ووالله إن تلك الخصائص لا تزيد المؤمن إلا حبًّا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واتباعًا لسنته، وسيرًا على منهجه، وما أجمل قول المحب:

ما زرت دارك في شوق يؤرقني ... إلا تزايد عندي الشوق واتقدا
ولا أرى جبلًا في الأرض منفردًا ... إلا تذكرت مشتاقًا له أُحدا

ولله در الدكتور ناصر الزهراني، حين أثنى على نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال:

يكفيك عن كل مدحٍ مدحُ خالقه ... وأقرأ بربك مبدأ سورة القلم
من نهرك العذب يا خير الورى اغترفوا ... أنت الإمامُ لأهل الفضل كلهمِ

فيا رب إنا لم نرَ نبينا فدته أرواحنا في الدنيا، ولقد تقطعت قلوبنا شوقًا إليه، فلا تحرمنا بذنوبنا لقياه يوم القيامة، وأحينا في الدنيا على سنته، وتوفنا على ملته، واحشرنا في زمرته، واسقنا من يديه الشريفتين شربة لا نظمأ بعدها أبدًا.

* **ومضة: أين السعادة؟**

استنبط أحد الأفاضل –في اجتهاد جميل– من سورة الانشراح أسباب السعادة وانشراح الصدر، وكأنها معادلة للسعادة، ولنتأمل ما قال الله عَزَّوَجَلَّ في مطلع السورة:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] وانشراح الصدر هو أحد مظاهر السعادة، ثم بينت الآيات ارتباط تلك السعادة والانشراح بأمور:

أولًا: غفران الذنوب: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ٢]، وكلما أتى المؤمن بأسباب تكفير السيئات التي وردت في الكتاب والسنة وواظب عليها كالتوبة النصوح والحسنات الماحيات وقيام الليل والإكثار من الصدقات، زاد أمله بأن الله قد عفا عنه، وتجاوز عن سيئاته، وذلك بلا شك يزيد سعادته وانشراح صدره.

ثانيًا: الذكر الحسن: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، وكلما كان المؤمن مخلصًا لمولاه ساق الله له ذكرًا حسنًا بين أهله وأقاربه والناس، فيزداد أمله بأن يكون ذلك الذكر من عاجل بشرى المؤمن، فهو لم يعمل إلا الله، ولكن كما جاء في الحديث: إن الله إذا أحب عبدًا أحبه أهل السماوات ووُضع له القبول في الأرض.

ثالثًا: التفاؤل: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]، والتفاؤل لُب السعادة، ولن يغلب عسر يسرين.

رابعًا: العمل المتجدد: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح: ٧]، وذلك لأن الفراغ بوابة الهموم والأحزان، فإذا فرغت من عمل صالح، وحققت فيه أهدافك، فضع أهدافًا أخرى، وانصب في عمل جديد، فالشعور بالإنجاز من أهم محاور السعادة وانشراح الصدر؛ لذا كان أكثر الناس سعادة هم العاملون المحققون لأهدافهم، الذي يضعون لهم أهدافًا إلى الجنة، وكلما حققوا هدفًا وعملوا عملًا صالحًا جدّوا في آخر، وهكذا.

خامسًا: دوام الرجوع إلى الله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: ٨]، «فمن سعادة العبد أن يرزقه الله الإنابة»، وقد أثنى الله على أحد أنبيائه في كتابه بقوله: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، أي: كثير الرجوع إلى الله، ولا ريب بأن الأواب المنيب إلى الله في كل شؤون حياته، له النصيب الأوفى من الاطمئنان والسعادة في الدنيا والآخرة.

ختامًا: من أتى بأسباب المغفرة، وأخلص العمل لله فرزقه ربه الذكر الحسن، وكان متفائلًا دائمًا حسن الظن بمولاه، متجدد الأهداف إذا انتهى من عمل صالح بدأ بآخر، دائم الإنابة والرجوع إلى الله في كل شؤونه -رزقه الله بإذن الله السعادة وانشراح الصدر.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ١-٨].

* * *

الوقفة الثالثة: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾

الكهف أيها الأحبة عادة ما يكون ضيقًا، وعلى الرغم من ذلك قال الله لأولئك الفتية: ﴿فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الكهف: ١٦]، فهم لمّا فروا بدينهم في سبيل الله، وخرجوا من أوطانهم لله، نشر ربهم في الكهف رحمته، فأصبح لهم أرحب وأوسع من الدنيا.

ولنتأمل رحمة الله في ذلك الكهف المبارك، نشر ربنا رحمته في الكهف الضيق، فكان باب الكهف شمالًا، فيأتيهم ضوء الشمس دون أن يوقظهم، ونام الفتية بأعين مفتوحة لئلا يسرع إليها البلى، وقلب ربي أجسادهم كي لا تأكلها الأرض، وكلبهم راقد بالباب كأنه يحرسهم، ووضع عليهم المهابة، لئلا يدنو منهم أحد، فإذا اطلع عليهم ولى منهم فرارًا وملئ منهم رعبًا. فسبحان الله، قال الله: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الكهف: ١٧] ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: ١٨]. والله أعلم.

ولنقف هنا وقفة مع مواطن «التوحيد» و«الرحمة» في سورة الكهف: أما التوحيد ففي أول السورة: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٤] وفي آخرها: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، ومع أصحاب الكهف: ﴿لَّن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤]، وفي قصة صاحب الجنتين: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٨]، وأما الرحمة: ففي قصة أصحاب الكهف: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الكهف: ١٦]، وفي قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والخضر: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الكهف: ٦٥]، وفي قصة ذي القرنين: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ [الكهف: ٩٨]، فأقول –والله أعلى وأعلم–: من أراد الرحمة والفرج بعد الشدة والعلم والقوة والتمكين والتوفيق والنجاة من الفتن فعليه بالتوحيد: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

ختامًا: من أجمل الدعوات التي علمنا إياها ربنا عَزَّوَجَلَّ في القرآن دعوة أصحاب الكهف، وقد امتلأت قلوبهم إخلاصًا لربهم وخالقهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، ومتى ما هيأ الله لعبده الأمور وأحاطه برحمته، نال السعادة والنجاح، والفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، فيا رب آتنا من لدنك رحمة، وهيأ لنا من أمرنا رشدًا.

* **ختام القلادة السادسة عشرة:** من قلائد الحكمة:

«إن أردت الراحة والاطمئنان في الحياة فعليك بثلاث لاءات، وهي أعظم ثلاث وصايا على طريق شفاء النفس وتقويم السلوك:

١. لا تعلق قلبك إلا بالله، وليصفو لك قلبك، اجعل الهموم همًّا واحدًا: «رضا الله».
٢. لا ترفع سقف توقعاتك من الآخرين، لكيلا تصدمك ردات أفعالهم، وعامل الناس بأخلاقك لا بأخلاقهم.

٣. لا تتحسر على ما فات، ولا تعش في الماضي وتتذكر آلامه، فلا تتحسر على شيء تمنيت فعله في الماضي ولم تستطع، أو على شيء فعلته ثم ندمت وتبت منه، بل تذكر دائمًا الجميل، وتب من القبيح، وأصلح ما بقي من عمرك، يغفر ما مضى من ذنبك.

قبل الختام: تذكر: لا تعلق قلبك إلا بالله، ولا ترفع سقف توقعاتك من الآخرين، ولا تتحسر على ما فات.

أما الختام: فنسأل الله أن يشرح صدورنا، وأن ييسر أمورنا، وأن يرزقنا في الدنيا أسباب السعادة، ويوم القيامة الحسنى وزيادة.

القلادة السابعة عشرة

الوقفة الأولى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجًا، الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلًا، الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا، والصلاة والسلام على أشرف البشر نسبًا، وأعظمهم خلقًا، وعلى آله وصحبه ما أشرقت شمس وأمطرت سُحبًا. أما بعد:

فيا أيها الكرام قال ربنا جَلَّجَلَالُهُ في سورة الكهف: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، في الآية أيها الأحبة دليلٌ جلي على أن الرجل الصالح يحفظ الله له ذريته، وتشملهم بركة صلاحه وعبادته في الدنيا كما في الآية، وفي الآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت به السنة، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير الآية: «حُفِظا والحكمة بصلاح أبيهما، ولم يُذكر لهما صلاحًا». أخرجه ابن جرير الطبري.

لذا -والله أعلم- إن من أعظم البر بالوالدين، ومن أجلِّ صور الإحسان إلى الأبناء صلاحَ نفسك، فصلاحك لا يقتصر نفعه عليك فحسب، بل يمتد ليشمل

والديك وأبنائك، بل وذريتك من بعدك في الدنيا والآخرة، ولقد دل على القسمين الكتاب والسنة:

أما القسم الأول وهو انتفاع الوالدين بصلاح ابنهما في الدنيا والآخرة: فبعد فراقهما للدنيا وإقبالهما على الآخرة ينتفعان بدعائه إن كان صالحًا، لحديث نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ...»[1]، وذكر منها: «... أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»، أما في الدنيا فالولد الصالح قُرة عين والديه، يفرحان بصلاحه لعظيم بره بهما، فرأس الصلاح البر بالوالدين، وخفض الجناح لهما إحسانًا ورحمة.

أما القسم الثاني: وهو تعدي نفع صلاح الآباء لأبنائهم وذرياتهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا تدل عليه هذه الآية: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، وأما في الآخرة فقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، فيرفع الله إن شاء ذرية عبده الصالح في الجنة إلى نفس منزلة والدهم، لتقر عينه بهم، كرامة من الله وثوابًا ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. والله أعلم.

ختامًا: من أراد صلاح نفسه وثبطه من حوله، ولم يجد المعين، فليعلم أن من أعظم الدين، حسن الظن برب العالمين، قال الله: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ [آل عمران: ١١٥]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، ويقول جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، فالله جَلَّ جَلَالُهُ لا يضيع عنده شيئًا مما تعمل، فمن جاءك يهون عليك الطاعات من شهود الجماعات وحضور مجالس العلم، وغير ذلك من أبواب الخير والبر، فلا تلتفت له،

(١) أخرجه مسلم (٥/ ٧٣ رقم ١٦٣١).

واعلم أنه كلما زاد حسن ظنك بالله، وتيقنت بالأجور العظيمة عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لم تؤثر فيك مثل تلك الأقوال، بل تزداد تمسكًا وتعلقًا بما يقربك من مولاك، ويدنيك من رحمته، وسترى بإذن الله ما يسرك، ويُرضيك في نفسك ووالديك وأبنائك في الدنيا والآخرة. فنسأل الله من فضله.

* **إشراقة[1]: دورنا الحقيقي:**

الأفكار والمبادئ مهما تكن واضحة قوية، تَمُت وتتلاشَ إن لم تجد من يؤمن بها ويطبقها، ويُدافع عنها، مراحل ثلاث: إيمانك بالفكرة، ثم تطبيقها في واقعك، وبعدها دفاعك عنها لتعم وتنتشر.

فإذا لم تُؤمن بالفكرة، فأنت لن تطبقها أبدًا، وحتى لو وجدت مجتمعك يفرضها عليك، فإنك ستُخادع الناس بمظاهرها، ثم أنت أسرع الناس إلى تحطيمها والتنكر لها، وإذا آمنت بها ولم تطبقها، فأنت خائن لها؛ فالمبادئ السليمة لا يجد الناس في تطبيقها ما يحرجهم أو يخجلهم، والتطبيق هو المظهر الصادق للقناعة بها وقبولها، وإذا آمنت بالمبدأ ثم طبقته في واقعك، فستكون حتمًا في موقف الدفاع عمّا آمنت به وطبقته، وكل ما نشاهد من تناقضات هو نتيجة حتمية لتخلف ترابط تلك المراحل التي سلف ذكرها.

واليوم ونحن نمارس دورنا الحقيقي في الدعوة إلى تضامن المسلمين ووحدتهم، نحتاج إلى (مؤمنين) بالفكرة الإسلامية، و(مطبقين) لها، و(مدافعين) عنها.

لذا فليراجع كل واحد منا نفسه، هل يقتنع بما بدأنا السير إلى تحقيقه، وهل رافق ذلك الاقتناع تطبيق صادق وواقعي لتعاليم الإسلام وآدابه؟ إن كان، وإلا فعليه أن يعيد النظر في واقعه.

---

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

* **إشراقة**[1]:

«إذا طال عهد جيل بوجود القدوة الصالحة في واقعه، فإنه يأخذ طريقه للانحراف بسهولة ويسر».

* * *

الوقفة الثانية: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾

في الصحيح قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «... فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ، فَجَلَسْتُ، فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِذَا الحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الغُرْفَةِ، وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ. قَالَ: فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ، قَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟ قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَمَا لِي لَا أَبْكِي، وَهَذَا الحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَذَاكَ قَيْصَرُ، وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالأَنْهَارِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفْوَتُهُ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ، فَقَالَ: يَا ابْنَ الخَطَّابِ أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ، وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟...»[2]، في هذا الحديث وغيره دلالة على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها، ومتى ما حصلت له وأقبلت عليه أنفقها يمنة ويسرة في عباد الله، وقد قال له ربه جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٧-٨٨].

قال ابن كثير: «يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كما آتيناك القرآن العظيم فلا تنظرن إلى الدنيا، وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه، فلا تغبطهم بما

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.
(٢) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٨ رقم ١٤٧٩).

هم فيه، واستغن بما آتاك الله من القرآن العظيم، عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزنًا عليهم في تكذيبهم لك ومخالفتهم لدينك، وألن جانبك للمؤمنين»، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لصفيه وخليله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]، أي: استنقذهم من عذاب النار بإقامة الصلاة، واصبر أنت على فعلها، فإذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب. والله أعلم.

وقد امتثل نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر ربه، فكان مثالًا في الزهد في الدنيا وعدم الالتفات لها كما بينا، كما أنه كان أشد الناس حرصًا على الصلاة وإقامتها في أوقاتها، وكان يأمر أهله بذلك، فقد كانت الصلاة، قرة عينه في حياته، ووصيته قبل مماته، فهو القائل: «الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»(١).

ختامًا: ما أجمل قول الشاعر حين أراد مدح نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال:

ماذا أقول وما في أحرف البُلغا	**من بعد ما فصّلت حم تنزيلُ**
إذا الضحى أوضحت آياتُ رِفعته	**فما الذي بعدها تُثني الأقاويلُ**
صلّى عليه إله الخلق ما سجعت	**وُرْقٌ لهن على الأغصان تهديلُ**
ولاح ضوء صباحٍ فاستنرّ به	**من الكواكب قنديلٌ فقنديلُ**

نسأل الله أن يوفقنا للاقتداء بنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والحفاظ على الصلاة والحرص عليها، كما نسأله أن يجمعنا به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٧ رقم ٧٠٥٧)، وابن ماجه (٢/ ٥٤٧ رقم ١٦٢٥)، وصححه الألباني. ينظر: إرواء الغليل (٧/ ٢٣٧).

* **ومضة: موعدكم يوم الزينة:**

قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعون وملئه: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ [طه: ٥٩] وهو يوم عيدهم وتفرغهم من أعمالهم ليجتمع الناس، وليشاهدوا قدرة الله ومعجزات نبيه، ثم قال موسى: ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ أي: جميعهم ﴿ضُحًى﴾ أي: ضحوة من النهار، ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم بين واضح، ليس فيه خفاء ولا ترويج؛ ولهذا لم يقل: ليلًا، ولكن نهارًا ضحى، وأقول: هكذا يجب أن يكون شأن أتباعهم من الدعاة والمصلحين، فهم أصحاب حق، وما أجمل صوت الحق إذا كان مرتفعًا بينًا واضحًا، لا خوف فيه ولا لبس ولا خفاء.

وقارن بين ما ذكرناه من قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبين حال أصحاب الجنة في سورة القلم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ [القلم: ٢٣-٢٤]، أخذوا يتخافتون بفعلهم المهين، ونيتهم المخزية بمنع المساكين من الدخول إلى جنتهم، فضلًا عن إعطائهم شيئًا من الصدقة، فنسأل الله العافية والسلامة، كما نسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلنا وإياكم من الصالحين المصلحين، وأن يستعملنا في طاعته، وينصر دينه، ويعلي كلمته.

* * *

الوقفة الثالثة: فأردت، فأردنا، فأراد ربك

في سورة الكهف، وفي قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والخضر جاء الفعل «أراد» بصيغ مختلفة في أثناء القصة، فقال الله عَزَّوَجَلَّ في الأولى على لسان الخضر: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] أي: السفينة، وفي الثانية قال ربنا: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ [الكهف: ٨١] أي: الغلام، أما الثالثة فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، ولعل السبب والله أعلم في اختلاف الصيغ، أدب القرآن، فالأولى ذُكر فيها العيب ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، فنسبها الخضر إلى نفسه

تأدبًا مع الله، وهذه عادة القرآن، أما الثانية ففيها قتل الولد الكافر -وهو بلا شك أصعب من خرق السفينة- ثم الإبدال بخير منه وهو الولد الصالح، والقتل أمره عظيم، ويحتاج إلى جهد ومشقة، وهو في نفسه ليس خيرًا محضًا، بل مآله هنا خير للوالدين والولد، فجاءت ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ بـ(نا) الجمع التي تشير إلى القوة والتمكن، و(نا) لها هذا المعنى في اللغة -والله أعلم-، والقوة والعلم من الله بلا شك، فجاء القتل في حد ذاته منسوبًا إلى الخضر بصيغة الجمع، لما يحتاج من القوة، ولما فيه من المشقة، والإبدال بالخير نُسب إلى الله مباشرة؛ لما في ذلك من علم كبير بمآل الولد الأول وكفره، وأيضًا بصلاح الولد الثاني وبره، فقال بعدها: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ أي: والتقدير: فأردنا بقتل الغلام أن يبدلهما -أي: الوالدين- ربهما به ولدًا صالحًا، فيه خير لهما في الدنيا والآخرة، وكل ذلك عن وحي الله وأمره، أما الثالثة في قصة الجدار فكانت خيرًا محضًا، فناسب أن تأتي ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، والله أعلم، ففي القصة الأولى أمرٌ ظاهره شر وباطنه خير، وفي الثانية إنهاء الشر وإبداله خيرًا، أما الثالثة فخير خالص، وكل ما جرى للخضر بقدر الله ووحيه وأمره وقدرته، وعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في نهاية القصة على لسان الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢]. والله أعلم.

ثم أيضًا لنتأمل مثالًا آخر من نفس القصة، يدل على أن كل كلمة، بل كل حرف في القرآن، أتى في مكانه المناسب لفظًا ومعنى، ولا يمكن لأي حرف آخر أن يحل مكانه: قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آخر قصة موسى والخضر: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، فجاءت لفظة ﴿مَا لَمْ تَسْطِع﴾ خفيفة، بعد أن فسر الخضر ما حصل لهما وبيَّنه ووضَّحه وأزال المشكل، أما قبل البيان، وحين كان الإشكال قويًّا، قال ربنا: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨] بزيادة حرف التاء، فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، فسبحان من هذا كلامه جَلَّوَعَلَا، وصدق الله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

* **ختام القلادة السابعة عشرة**: صفاء القلوب:

فائدة جميلة ذكرها الشيخ المغامسي يقول: «الإنسان إذا صفى قلبه، وطهرت نفسه من الحسد والغل على إخوانه، أثنى على من حوله، وذكر فضلهم، وبيّن ما يتميزون به ولو على نفسه، وهذا يدل على ثقة بالله، وكرم نفس، وعلى روح عالية تسامت عن حظوظ النفس الدنيّة، وتأمل قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يثني على أخيه هارون: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤].

ثم لنتأمل قول ميمون بن مهران الذي دل على صفاء نفسه تُجاه إخوانه، يقول: «ما بلغني عن أحدٍ مساءة -أي: بلغه أن أحدًا ذكره بسوء- إلا كان إسقاطها عنه أحب إليّ من تحققها عليه، فإن قال معتذرًا: لم أقل، كان قوله أحب إليَّ من ثمانية شهود يشهدون عليه»، فلله در تلك النفوس الزكية والقلوب الصافية.

القلادة الثامنة عشرة

الوقفة الأولى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

الحمد لله الذي نصب من كل كائن على وحدانيته برهانًا، وتصرّف في خلقه كما شاء عزًّا وسلطانًا، اختار المتقين فوهب -لهم- بنعمته أمنًا وإيمانًا، وعم المذنبين -التائبين- برحمته عفوًا وجودًا وغفرانًا، -فستر عوراتهم، وآمن روعاتهم- ولم يقطع أرزاقهم جودًا وامتنانًا، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وإمام المتقين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فيا أيها الكرام، التفكر عبادة عظيمة، ولقد أثنى الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه على من تفكر في خلق السماوات والأرض، فاستدل بذلك على عظمة الله جَلَّجَلَالُهُ، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]، وفي المقابل ذم القرآن من أعرض عن آيات الله في الكون، ولم يتفكر فيها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، وقال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، أي: لا يتفكرون في خلق السماء، وما فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر، وما زُينت به من الكواكب السابحة في أفلاكها، وما فيها

مـن الشـمس والقمر والنجوم والمجرات وغير ذلك من آيـات الله، ومن تفكر حقيقة في عظم السماوات واتساعها، والمسافات الشاسعة في الكون، وأعداد النجوم في المجرات والكواكب، وما في السـماوات من الملائكة، ما بين ملك راكع وآخر سـاجد، من تفكر في ذلك حقيقة يكاد يطيش عقله من عظم ذلك الخلق، فلئن استقر عظم خلق السماوات في قلبك، فتأمل آخر آية الكرسي؛ لتعلم عظم خالقها جَلَّ جَلَالُهُ، يقول الله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فكيف بالعرش، ثم تأمل حال تلك السـماوات يوم القيامة: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، كلها بما فيها ﴿مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، فـلا إله إلا الله، وما أعظم التفكر في خلـق الله، إنهـا والله عبـادة جليلة غفلنا عنها، تُرسـخ الإيمان في القلـوب، وتزيد اليقين بجلال علام الغيوب وعظمته، ومن تدبر القرآن وجد أن كثيرًا من الآيات تُختم بالحث والثنـاء عـلى التفكـر في هـذا الكون العظيـم، وبيان أن ما فيـه من الآيات إنـما هي لقوم فقـط يعقلون ويتفكرون، قال الله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وتأمل بعضًا من أخبارهم:

قـال أبو سـليمان الداري: «إني لأخرج من منزلي فما يقـع بصري على شيء إلا رأيت لله فيه نعمة، ولي فيه عبرة». ولما سـئلت أم الدرداء عن أفضل عبادة أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالت: «التفكر والاعتبار»، وقال عمر بن عبدالعزيز: «التفكر في نعم الله عَزَّوَجَلَّ من أفضل العبادة»، وقال غيره: «لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عَزَّوَجَلَّ، وأخيرًا قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ركعتان مقتصدتان في تفكر، خيرٌ من قيام ليلة بلا قلب».

ولله در الشاعر إذ يقول:

الشـمس والبدر من آيات قدرته ... والـبر والبحر فيضٌ مـن عطاياهُ

الطـير سـبّحه والوحـش مجّده ... والمـوج كـبّره والحـوت ناجاهُ

والنمل تحت الصخور الصُمّ قدّسه ... والنحل يهتف حمدًا في خلاياهُ
والناس يعصونه جهرًا فيسترهم ... والعبد ينسى وربي ليس ينساهُ

ختامًا: جاء الأمر أيضًا في القرآن بالتفكر، والنظر في عاقبة الأمم الماضية، ليأخذ المؤمن العبرة والعظة:

فلقد ذكر الله جَلَّ جَلَالُهُ الأمم الماضية التي كذبت الرسل، وكيف أخذهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بسبب كفرهم وطغيانهم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٥-٤٦]، قال أهل العلم: «أي ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة»، وما أحسن ما أورده ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر والاعتبار على لسان أحد الحكماء، يقول: يا من آمن بالله ربًّا «أحي قلبك بالمواعظ، ونوّره بالتفكر، وموته بالزهد، وقوّه باليقين، وذلِّله بالموت، وذكره بالفناء، وبصِّره فجائع الدنيا، وحذره صولة الدهر، وفحش تقلب الأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره ما أصاب من كان قبله، وسيره في ديارهم وآثارهم، لينظر ما فعلوا، وأين حلوا، وعما انقلبوا».

فيا من يصيخ إلى داعي الشقاء وقد ... نادى به الناعيان الشيب والكبر
إن كنت لا تسمع الذكرى ففيم ترى ... في رأسك الواعيان: السمع والبصر
ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل ... لم يهده الهاديان العين والأثر
لا الدهر يبقى ولا الدنيا ولا الفلك الـ ... أعلى ولا النيِّران الشمس والقمر
لَيرحلنّ عن الدنيا وإن كرِهَا ... فراقها الثاويان: البدوُ والحضر

فنسأل الله أن يحسن ختامنا، وأن يوفقنا للتفكر في أنفسنا، وفيما حولنا من دلائل قدرته، وبديع صَنعته، وأن يجعلنا من أولي الألباب، الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض، فيزدادون بذلك إيمانًا وإخلاصًا ويقينًا.

فإن لم تكن عيني تراك فإنني في كل شيء أستبين عُلاكا

* **إشراقة[1]: ماذا نريد!؟**

ماذا نريد؟

سؤالٌ ربما ظنّ الكثير سهولة الإجابة عنه، لكنه في محيط الشعوب والأمم يظل بارزًا؛ لأن الكثير بين متجاهلٍ له، أو جاهلٍ بمدلوله.

نعم ماذا نريد؟

نحن المسلمين ما برامجنا التي نقتبسها من تعاليم ديننا السمح الكريم؟ وماذا نستطيع أن نعمل، وهل في استطاعتنا أن نعمل؟ أنا لا أضع أسئلة بلا إجابة، لكنني أقول لكل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أقول له من مركز الاعتراف بالتقصير والضعف والخطأ: هل فكرت لحظة فيما تريد تحقيقه -بوصفك مسلمًا- لدينك ووطنك وأمتك، وإذا تم ذلك فهل عملت لتحقيق ما فكرت فيه؟ لأنك بتوالي الأيام من عمرك، إنما تسرع الخطو إلى مثواك، وكلنا نعلم أنه «صدع من الأرض» بلا مؤنس، ثم بعد ذلك سؤال وعذاب وعقاب، إلا من رحم الله.

والدنيا بكل مفاخرها وزينتها تتلاشى عندما تضع باختيارك من تحب في صدع من الأرض، ثم تولي الأدبار عنه.

فماذا نريد؟ سؤال ينتظر الإجابة ممن يملكها ويقدّرها.

---

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الوقفة الثانية: كل شيء يسجد لله

قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨]، فكل شيء في الكون يسجد لله، وتأمل، قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: من الملائكة في أقطارها وغيرهم، مما نعلم ولا نعلم، ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: من جميع الحيوانات والجمادات والجن والإنس والدواب والطيور وغيرهم، ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾، وجاء التنصيص هنا لأنها قد عبدت من دون الله، فبينت الآية أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْجِبَالُ﴾ أي: كل جبال الأرض، ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ بأنواعها وأصنافها وأحجامها، وقد روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «جاء رجل فقال: يا رسول الله إني رأيتني الليلة وأنا نائم، كأني أصلي خلف شجرة فسجدتُ، فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا، وضع عني بها وزرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود»، قال ابن عباس: «فقرأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سجدة ثم سجد، فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة»[1].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ختام الآية: ﴿وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، وفي آخر الآية -والله أعلم- إشارة إلى أن الكرامة كل الكرامة هي في السجود لله، وتعفير الجباه بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن حُرم السجود وامتنع فقد أهانه الله، ومن يهن الله فما له من مكرم. فسبحان من سجد له كل شيء. وقد ورد في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا قرأ ابن آدم السجدة، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله -وفي رواية-: يا ويلي، أُمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأُمرت بالسجود فأبيت، فلي النار».

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٥٧٩، ٢٤٢٤)، وابن ماجه (رقم ١٠٥٣)، وابن خزيمة (رقم ٥٦٢)، وابن حبان (رقم ٢٧٦٨). وقال الألباني في الصحيحة، (رقم ٢٧١٠): صحيح.

ختامًا:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد كان فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

* * *

الوقفة الثالثة: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] قال ابن كثير في تفسير الآية: «يختبر الله جَلَّجَلَالُهُ عباده بالمصائب تارة وبالنعم أخرى، فينظر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط»، وروى الطبري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قوله: «﴿وَنَبْلُوكُم﴾ نبتليكم ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أي: بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال»، وأقول: أيها الأحبة من قرأ هذه الآية وتلا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦-١٧] ثم لم يتيقن أن نعم الله عنده إنما هي فتنة واختبار وامتحان، ليظهر شكره لنعمة ربه أو كفره لها، فليعلم أن هذا اعتقاد من لا عقل له، والمخذول حقيقة من ظن أن الله إنما رزقه بالنعم لعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باستحقاقه لها، أو زعم أنها إنما جاءته بجهده فقط وحوله وقوته، ونقول لمن اعتقد ذلك مشفقين اسمع قول قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، ثم اسمع جزاء الله: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

لذا أيها الأفاضل المؤمن الصادق على يقين جازم بأن هذا الدين عظيم جليل، وأنه هو دين الحق الذي أراده الله لعباده، ويقينه هذا لا يهتز أبدًا في السراء والضراء، فهو راضٍ عن الله، يعبد ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كل حال، إن أصابته سراء حمد الله وشكر، وإن أصابته ضراء تسلح باليقين وصبر، وهو في ذلك كله يعلم أن كل ما قدره الله عليه

عاقبته بإذن الله إلى خير، فالله ألطف به من نفسه، وأرحم به من أمه، ولا يكون كالكافر الـذي ذمـه الله، والذي يعبد الله على حرف، قال الله عَزَّوَجَلَّ عنه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]، قـال مجاهد وقتادة: «أي على شـك»، وروى البخاري عـن ابـن عبـاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قـال في الآيـة: «كان الرجل يقـدم المدينـة، فإن ولـدت امرأته غلامًـا، ونتجـت خيلـه، قال: هذا ديـن صالح، وإن لم تلـد امرأته ولم تنتـج خيله، قال: هذا دين سوء».

فنسـأل الله العافية والسـلامة، كما نسـأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعلنا من الراضين بقضائه الشاكرين في السراء والصابرين في الضراء، الذين قال الله عنهم: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾، وذلك والله هو الفوز العظيم.

* **خاتمة القلادة الثامنة عشرة**: سأريكم آياتي فلا تستعجلون:

قـال ربنـا جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، ثـم قـال الله: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، قـال ابـن كثـير في تفسـير الآية: أي: عجـولًا في الأمور، والحكمة في ذكر عجلة الإنسـان ههنا، أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه، وقع في النفوس الرغبة في سرعة الانتقام منهـم، واسـتعجلت ذلك، فقـال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يمـلي للظـالم حتى إذا أخـذه لم يفلته، يؤجل ثـم يعجل، ويُنظر ثم لا يؤخـر؛ ولهذا قال: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي﴾، أي: نقمـي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾. والله أعلم.

القلادة التاسعة عشرة

الوقفة الأولى: نور على نور

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

في هذه الوقفة أيها الأحبة، سنتأمل بإذن الله آية عظيمة في سورة النور، نقف مع هداياتها، ونتفكر في أنوارها، يقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۗ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٣٥]، ولنقف الآن مع معانيها، قال الله في مطلعها: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ قال أهل العلم: «فبنوره أضاءت السماوات والأرض»، ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ قال ابن عباس: أي: مثل نور هداه في قلب المؤمن، والمشكاة موضع الفتيلة من القنديل»، ﴿فِيهَا مِصۡبَاحٌ﴾ وهنا نور، ﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ أي: هذا الضوء في زجاجة شفافة جوهرية صافية، صفتها: ﴿كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ أي: كوكب من در مضيء، وهنا أنوار، ثم قال الله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ أي: لا يحجبها شيء عن ضوء الشمس، قال مجاهد: «ليست بشرقية لا تصيبها الشمس إذا غربت، ولا غربية لا تصيبها الشمس إذا طلعت،

ولكنها شرقية وغربية تصيبها إذا طلعت وإذا غربت»، فيجيء زيتها صافيًا مشرقًا؛ لذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ وصدق الله، فلقد اجتمع في هذا المثل نور المصباح في المشكاة، على نور الزجاجة التي كأنها كوكب دري، على نور الزيت المبارك الذي يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار، ثم قال الله: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، فنسأل الله من فضله، والخاسر -والله أيها الأحبة- والمغبون حقًّا، من حرمه الله من رؤية هذا النور على عظمته، وحرم قلبه من أن يضيء بأنوار الإيمان وأنوار القرآن وأنوار الهداية، ولنعلم هنا وليعلم كل أحد أن أعظم مواطن ذلك النور العظيم بيوت الله في الأرض، واسمع ما جاء بعد آية النور مباشرة، قال الله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٥-٣٨].

فيا من أردت النور قد علمت مواطنه، فعلق قلبك ببيوت الله، واحرص على رضاه، واعلم -كما قال ابن القيم- أن من أعجب الأشياء أن تعرف الله ثم لا تحبه، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة، وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تتعامل مع غيره، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له. نسأل الله أن يباعدنا عن سخطه وغضبه، وأن يزيدنا حبًّا له، وقربًا منه، وأن يهدينا لنوره، وأن يرزقنا قلوبًا معلقة ببيوته.

* **إشراقة[1]: حيرة الشباب:**

الشباب المسلم اليوم لا يعاني من الفراغ، بقدر ما يعاني من الحَيرة، الحَيرة مما يرى وما يسمع وما يقرأ، فالتقدم العلمي أسهم في حيرته أكثر مما أسهم في إنقاذه؛ لأنه نقل إليه عبر

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وسائل الإعلام – بمختلف مستوياتها وإنجازاتها – مقروءة أو مرئية أو مسموعة – الكثير مما يخالف دينه، ويُضعف يقينه، ويزعزع الثقة في نفسه ومبادئه، وربما كان أثر ذلك سريعًا؛ لأن دعاة الشر وأعداء دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى كانوا أقوى مبادرة من غيرهم، وأكثر تنظيمًا، وأقدر على تذليل كل الصعاب والعقبات، التي تقف أمام باطلهم، واستطاعوا تسخير الكثير من المنجزات العلمية لأهدافهم وأفكارهم، فساهموا في حيرة شبابنا، وعدم وضوح الرؤية في واقعهم، مع استغلال ذكي لكل النوازع النفسية والجسدية في عقولهم الشابة المتوثبة، ثم جاء أكثر الآباء والموجهين ليعملوا –ربما دون قصد– على ترسيخ المزيد من الحيرة في نفوس شبابنا، بعدم إعطاء القدوة الحسنة لهم من أنفسهم؛ لِيبقى الأمر بعد ذلك متأرجحًا، دونما مواجهة ناجحة بين باطل يأخذ كل المسالك، ورجال يأمرون غيرهم بما لم يفعلوا، وفي الجانب الآخر مخلصون يتحدثون في وادٍ، والشباب عنهم في وادٍ آخر.

والكارثة هي هذه الجفوة التي تزداد عُمقًا ورسوخًا بين علمائنا ومفكرينا، وبين الشباب المتطلع إلى ملامح مستقبله، إنها تبعث الحيرة والأسى في نفوس المخلصين؛ لأنها تعني في حالة ازديادها تباعد المفاهيم، وتسمح «للعابثين» بأن ينقلوا لكل فريق ما يزيده بُعدًا ونفورًا عن الفريق الآخر، والشباب هم «أبنائي وأبناؤك» إن لم يجدوا منا قلوبًا رحيمة، ومعالجة بصيرة، وتعرفًا على واقعهم وأحداثه، مع مد الجسور إليهم، وتشجيع نوازع الخير في نفوسهم، وإعطائهم القدوة الصادقة من غيرهم، إن لم نفعل ذلك، فسيظل كل فريق يعمل منفردًا، ويعطي الدور للعابثين، لكي يعملوا على إضعاف الرابطة الرائعة، التي يجب أن تسود علاقتها.

وشبابنا «بشهادة الأعداء» يمتاز بالرجولة، واحترام الغير، وسرعة العودة إلى الحق، لا أعني بذلك عصمتهم، فهم بشر يلقَون من المكائد والمغريات ما لم يلقه أسلافهم، فهم أجدر

بمـن يقـف بجانبهم موجهًا لا مؤنبًا، ومحبًّا لا ناقمًا، ويوم يتم ذلك سـنجد تلقائيًّا أن الكثير من المظاهر «الشاذة» المنقولة قد انحسرت؛ لأنها لم تجد التربة الصالحة لنموها واستمرارها.

هي دعوة مخلصة يعلم الله مدى اهتمامي بها، وقلقي من عدم الإحساس بدورها.

* * *

الوقفة الثانية: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾

سـبحان مـن لا يغيـب عن علمـه شيء في الأرض ولا في السـماء، يعلـم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السـماء ومـا يعرج فيها، وهو مع خلقه أينما كانوا، لا يحجب عنه سـماءٌ سـماءً ولا أرض أرضًا، ولا جبل إلا يعلم ما في وعره، ولا بحر إلا يعلـم ما في قعـره، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشـجار ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ولعلـم الله بخلقه وبما يصلحهم، يقدر لهم المقاديـر، ويدبر الأمور بحكمته وعدله ورحمتـه، ومن ذلـك إنعامه على خلقـه بالماء، تلك النعمـة العظيمة التـي جعل الله منها كل شيء حـي، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]، قال ابن كثير: «أي بحسـب الحاجة، لا كثيرًا يفسـد الأرض والعمـران، ولا قليلًا فلا يكفي الزروع والثمار، حتـى إن الأراضي التي تحتاج ماءً كثيرًا لزرعهـا، ولا تحتمل أرضها إنزال المطر، وهي: الأرض الجرز، يسـوق الله إليها الماء من بـلاد أخـرى، كما في أرض مـصر، يسـوق الله إليها ماء النيـل معه طين أحمـر يجترفه من بـلاد الحبشـة في زمان أمطارهـا، فيأتي الماء يحمـل طينًا أحمر، فيسـقي أرض مصر، ويقر الطـين على أرضهم ليزرعوا فيه، فسـبحان اللطيف الخبير، وهـو القائل جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا

﴿يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧]، وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية له تشربه، ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى، ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: لو شئنا ألّا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجًا، لا يُنتفع به لشرب ولا لسقي لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض، بل يسري على وجهها لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه، ولا تنتفعون به لفعلنا، والله القائل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: ٣٠]، ولكن الله بلطفه ورحمته يُنزل الماء من السحاب عذبًا فراتًا زلالًا، فيُسكنه في الأرض، ويسلكه ينابيع فيها، فتتفتح العيون، وتجري الأنهار، فيشرب الناس ويغتسلون، وتشرب أنعامهم، وتسقى زروعهم وثمارهم، فلله الحمد والمنة.

ختامًا: تأملوا قول الله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠]، فيا رب لك الحمد عدد كل رحمة غمرتنا، ولطف خفي غاب عنا، الحمد لله عدد كل نعمة نسينا فلم نذكرها، وغفلنا فلم نشكرها.

* **ومضة: من لطائف التفسير: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**

أرشد القرآن الكريم إلى وصايا عظيمة، ينبغي على كل مؤمن يخالط الناس الحرص عليها ومحاولة التحلي بها، فهي أخلاق أهل الإيمان، ومن أهمها إحسان الظن بالمؤمنين، يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مؤدبًا عباده في حادثة الإفك: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] أي: قاسوا هذا الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى. وما أجمل ما قال أبو أيوب لامرأته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ففي قصتها دروس وعبر، فقد رُوي أن امرأة أبي أيوب قالت له: «يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؟»، قال: «نعم، وذلك الكذب، أكنت

فاعلة ذلك يا أم أيوب؟»، قالت: «لا والله ما كنت لأفعله»، قال: «فعائشة والله خير منك». فلله دره! رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

ومن وصايا القرآن أيضًا في هذا السياق: الإحسان إلى من أساء إليك، فلقد أرشد الله عَزَّوَجَلَّ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الترياق النافع والدواء الناجع في دفع العداوات، وتحويلها إلى محبة وأخوة وصداقات، فمن أحسن إلى من أساء إليه، استجلب خاطره، واستل ضغائنه، فتعود عداوته صداقةً وبغضه محبةً، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي: وما يلهم هذه الوصية، ويوفق لهذه الصفة، إلا الذين صبروا على أذى الناس، فعاملوهم بالجميل مقابل القبيح، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

والجزاء أيها الكرام من جنس العمل، فكما تتجاوز عن المذنب إليك يغفر الله لك، وكما تصفح يصفح الله عنك، وفي قصة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقريبه مسطح عبرة وعظة، فقد حلف أن يقطع عنه ما كان يعطيه من نفقة؛ لأنه كان ممن تكلم في حق ابنته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في حادثة الإفك، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، فعند ذلك قال الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «بلى والله إنا نحب -يا ربنا- أن تغفر لنا»، ثم أرجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: «والله لا أنزعها منه أبدًا». وفي القصة دلالة على عظيم حلم الله عَزَّوَجَلَّ وكرمه ولطفه ورحمته بعباده مع ظلمهم لأنفسهم، فشرع الله في هذه الآيات -وله الفضل والمنة- يُعطف الصديق على قريبه المحتاج مسطح، فقد كان ابن خالته، وكان أيضًا من المهاجرين في سبيل الله، فاستجاب الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لنداء ربه، فقد كان -من فضل الله عليه- معروفًا بالمعروف، وله الأيادي البيضاء على القريب والبعيد. فإن أردت أيها المبارك أن

يسامحك الله ويعفو عنك، فاعف عمن أساء إليك، وتجاوز عنه، واسأل الله العفو والمغفرة، في يوم نقبل فيه على الله أنا وأنت بلا ثقة من العمل، ولا براءة من الذنب.

* * *

الوقفة الثالثة: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾

قال الله جَلَّجَلَالُهُ في آيات تضمنت صفات جليلة وأعمال قلوب عظيمة، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١]، لقد بينت الآيات صفاتٍ وصف الله بها عباده الصالحين، من أهمها: أنهم مع إحسانهم وإيمانهم، يعملون العمل الصالح، وهم خائفون وجلون، ألّا يتقبل الله منهم، لعلمهم بتقصيرهم في العمل، وأن أعمالهم مهما بلغت، فإنها لا تليق بأن تُعرض على الله جَلَّوَعَلَا، وهذا من أعلى مراتب الإيمان، فالمؤمن إذا عرف ربه حق المعرفة، ثم عرف قدر نفسه، وجد مثل ذلك في قلبه، وقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: يا رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عَزَّوَجَلَّ قال: «لا، يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عَزَّوَجَلَّ» وفي رواية: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يتقبل منهم ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٦١]»، وقد قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المؤمن يجمع إحسانًا وشفقة، وإن الكافر يجمع إساءة وأمنًا». رواه الطبري.

ولتنهض الهمم وليتم الاقتداء بإذن الله: لنتأمل هنا حال الصالحين في الدنيا والآخرة، كما جاء بيان ذلك في أثناء آيات القرآن العظيم: أما في الدنيا فقد كانوا ﴿يُؤْتُونَ

﴿مَآ ءَاتَوا۟﴾ من الأعمال الصالحة ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾، يخشون ألّا يتقبل الله منهم، فهم يحفظون قول ربهم: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وأما في الآخرة، فقد ذُكِرَ لنا القرآن قولهم، وهم في الجنة، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٦-٢٨]، فمن خاف أيها الأحبة في الدنيا وأصلح العمل، أمن يوم القيامة، ومن أمن العذاب وأفسد هنا، خاف هناك، والله أعلم.

ولنضرب هنا مثالًا للصالحين في الدنيا، وكيف كان إشفاقهم وبما امتلأت قلوبهم، ويأتي على رأسهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

فهذا أبوهم خليل الله إبراهيم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، كان لقلبه حال عجيبة مع الله: فكم كانت له من صلوات، وكم كان له من ذكر وكرامات وطاعات، وعلى الرغم من ذلك، وعلى الرغم من منزلته العظيمة عند ربه، تأمل في دعواته في القرآن، خاف الخزي يوم القيامة، فدعا ربه: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩]، وخاف على نفسه وذريته من الشرك ومن عبادة الأصنام، على الرغم من أنه هو من حطمها بإذن الله، فدعا وقال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، وخاف على نفسه وذريته من التفريط في الصلاة، فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وخاف من عدم القبول، وهو يعمل أعظم الطاعات التي تقرب إلى الله، بناء بيت الله الحرام، فكان دعاؤه وهو يبني: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ولقد كان أحد السلف يتذكر ذلك فيبكي ويقول: «يا خليل الرحمن تبني بيت الرحمن وأنت مشفق ألّا يتقبل الله منك». وما ذلك إلا للعلم الجليل الذي يحمله إبراهيم خليل الرحمن في قلبه عن ربه جَلَّ وَعَلَا.

فنسأل الله أن يملأ قلوبنا تعظيمًا له وإجلالًا، وأن يوفقنا للاقتداء بالصالحين، كما نسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو البرّ الرحيم: أن يمُنّ علينا بالجنة، وأن يقينا عذاب السموم.

* **ختام القلادة التاسعة عشرة**: من قلائد الحكمة:

أخي الحبيب، احذر أن يكون ارتكابك للمعصية -لضعفك- وأنت كاره لها، مانعًا يمنعك من فعل الخير ونشره بين الناس، فتلك حيلة من حيل الشيطان، بل سابقْ إلى الخيرات، وفي نفس الوقت جاهد نفسك للخلاص من الذنوب، فلعل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعل من ثواب فعلك للطاعة، ودعوتك الناس للخير، أن يوفقك للتوبة النصوح من معصيتك، ثم يرزقك الثبات عليها حتى تلقاه، فلا تعود بعدها للذنب أبدًا.

ونحن اليوم لا نعدم الصالحين، فهم كثر بحمد الله، ولكننا في حاجة ملحة، إلى الصالحين المصلحين، الذين ينتفعون بما علمهم الله من الخير، ثم ينشرونه بين الناس، وبذلك تصلح المجتمعات وينشر الخير.

ولقد قال أحد الصالحين المصلحين: «الإنسان الذي يعرف أكثر من الآخرين، ويملك قدرة على إبلاغ الخير للناس ودعوتهم إليه، يجب عليه أن ينهض بهذا العمل، حتى وإن قعد به ضعفه عن فعل ما يدعو إليه، مع مجاهدته الدائمة لنفسه على فعل الخير، وندمه الصادق، وتوبته المستمرة من كل ذنب، فالحقيقة والفضيلة أكبر من أن يحجبهما عن الناس ضعف الداعي، كما أن انتظار الكامل الذي لا أخطاء له، لكي يقدم للناس الحق والخير، انتظار سوف يطول مضيعًا على الناس الكثير من فرص الانتفاع بالحق».

«ولو أن كل امرئ -كما قال عمر بن عبدالعزيز- لا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر، حتى يلزم بذلك نفسه، لما كان هناك أمر بمعروف ولا نهي عن المنكر، ولقلّ الواعظون والساعون إلى الله بالنصيحة».

وقال سعيد بن جبير: «لو كان المرء لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، حتى لا يكون فيه شيء، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى أحد عن منكر»، وعقب على ذلك الإمام مالك بقوله: «صدق سعيد، فأين هذا الذي ليس فيه شيء؟!!».

وقد قيل:

ولو لم يعظ في الناس من هو مذنب فمـــن يعظ العاصـــين بعد محمد

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

ختامًا: يا من أردت نشر الخير والدعوة إلى الله: اعلم أن «قيام الليل وترتيل القرآن ومداومة الذكر، في خفاء وإخلاص، زادٌ إيماني عظيم على طريق الدعوة، به يُرزق العبد بإذن الله التوفيق والسـداد، والهُدى والرشاد، وهو من أعظم الأسباب المعينة على تحمل المشاق والصعاب في الحياة عمومًا، وفي الدعوة إلى الله، ونشر الخير بين الناس خصوصًا، يقول شـيخ الإسـلام: «ما رأيت شـيئًا يغذي العقل والروح، ويحفظ الجسـم، ويضمن السـعادة أكثر من إدامة النظر في كتـاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، وتأمل ما أمر الله به نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أوائـل الدعـوة، قـال الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا﴾ [المزمل: ١-٦].

فاللهـم علّق قلوبنـا بكتابـك، وأكرمنا بالإخلاص لـك، وشرفنا بالدعـوة إليك، ودلالة الخلق عليك، حتى نلقاك.

القلادة العشرون

الوقفة الأولى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾

الحمد لله الذي لا تغيض ينابيع فضله، ولا تضطرب موازين عدله، أحمده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حمدًا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها الكرام، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢].

زعم أهل الكفر وقد كذبوا -كما بين الله في هذه الآية- أن أهل الإيمان إن أطاعوهم، واتبعوا ملة الكفر: أن آثامهم -إن كانت هناك آثام بزعمهم- عليهم وفي رقابهم، فقال الله في تتمة الآية: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، وقال الله جَلَّوَعَلَا في آية أخرى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، فيوم القيامة لا يحمل أحد وزر أحد، ولكن من دعا إلى الضلالة، فإنه يحمل أثقاله وأثقال من تبعه، مع بقاء الإثم على التابعين، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]، فأخبر الله في الآية عن الدعاة إلى الكفر والضلالة، أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم، وأوزارًا أخرى بسبب من أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئًا، كما قال جَلَّوَعَلَا:

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]، وفي الحديث الصحيح عند مسلم: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»(١)، وفي الصحيح أيضًا: «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ»(٢)، فليحذر الذين ينشرون البدع والمنكر والفحشاء في قنواتهم أو مجلاتهم من هذا الوعيد، فالأمر خطير، نسأل الله العافية والسلامة لنا ولجميع المسلمين، والظلم أيضًا سبب لحمل أثقالك، وأثقال غيرك من الآثام والذنوب، فقد قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظلم، فإن الله يعزم يوم القيامة، فيقول: وعزتي وجلالي لا يجوزني اليوم ظلم، ثم ينادي مناد، فيقول: أين فلان بن فلان؟ فيأتي فيتبعه من الحسنات أمثال الجبال، فيشخص الناس إليها أبصارهم، حتى يقوم بين يدي الرحمن عَزَّوَجَلَّ، ثم يأمر المنادي فينادي: من كانت له تباعة أو ظلامة عند فلان بن فلان فهلم، فيقبلون حتى يجتمعوا قيامًا بين يدي الرحمن، فيقول الرحمن: اقضوا عن عبدي، فيقولون: كيف نقضي عنه؟ فيقول: خذوا لهم من حسناته، فلا يزالون يأخذون منها، حتى لا يبقى منها حسنة، وقد بقي من أصحاب الظلامات، فيقول: اقضوا عن عبدي، فيقولون: لم يبق له حسنة، فيقول: خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه، ثم نزع النبي ﷺ بهذه الآية الكريمة: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]»(٣)، وله شاهد في الصحيح: «أَتَدْرُونَ مَا المُفْلِسُ؟» قَالُوا: المُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ، وَلَا مَتَاعَ فَقَالَ: «إِنَّ المُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ

(١) أخرجه مسلم (٨/ ٦٢ رقم ٢٦٧٤).
(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٣٣ رقم ٣٣٣٥)، ومسلم (٥/ ١٠٦ رقم ١٦٧٧).
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٣٠٣٩، ٣٠٤٠).

هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[1].

نسأل الله العافية والسلامة، كما نسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعلنا مباركين أينما كنا، مفاتيح للخير مغاليق للشر، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، لا نطلب بذلك إلا رضا الله يوم نلقاه.

* * *

الوقفة الثانية: ﴿تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾

قال الله عَزَّوَجَلَّ في قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد أن سقى للمرأتين: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص: ٢٥]، قال ابن كثير: أي: «مشي الحرائر»، كما روي عن أمير المؤمنين عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «كانت مستترة بكم درعها»، وروى ابن أبي حاتم والطبري بإسناد صحيح أن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «جاءت تمشي على استحياء، قائلة بثوبها على وجهها، ليست بسلفع من النساء، ولّاجة خرّاجة»، قال الجوهري: «السلفع من الرجال: الجسور، ومن النساء: الجريئة السليطة». ثم قال الله عنها: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥]، وهذا تأدب في العبارة، لم تطلبه طلبًا مطلقًا لئلا يوهم ريبة، فلم تقل: إنا ندعوك..، بل قالت مباشرة: إن أبي يدعوك ليجزيك أجرَ ما سقيت لنا، وهذا يدل على الإيمان والحياء والعفة. وفي القصة من الدروس والعبر ما هو ظاهرٌ لأولي الألباب، فنسأل الله أن يوفق نساءنا للاقتداء بها وبأمهات المؤمنين، وأن يزينهن ربي بالحياء والحجاب والعفاف والحشمة، إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولي ذلك، والقادر عليه.

* **ومضة: شعراء الإسلام:**

قال الله عَزَّوَجَلَّ: -أذكر الآيات من أولها-: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦].

(١) أخرجه مسلم (٨/ ١٨ رقم ٢٥٨١).

ثم استثنى القرآن الكريم في أواخر الآيات شعراء الإسلام من سياق الذم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، فوصفهم الله بأربع صفات: الأولى: أنهم آمنوا بربهم وخالقهم، وظهر ذلك الإيمان في قصائدهم، الثانية: صدقوا ذلك الإيمان بالأعمال الصالحة، التي تقربهم إلى الله، والثالثة: ذكروا الله ذكرًا كثيرًا في كل مكان وزمان، في بيوتهم وأبياتهم، ومع أبنائهم وفي خلواتهم، فذكر الله على ألسنتهم في كل وقت وحين، أما الرابعة: فهي انتصارهم من بعد ما ظُلموا، بالذب عن الدين، والدفاع عن المؤمنين، وهجاء الكفار والأعداء والمنافقين، وهو جهادهم، فقصيدة شاعر الإسلام كنانته، وأبياته نبله وسهامه، إذا رأى أعداء الله أرسلها عليهم، قال الحبيب صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لحسان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كما عند البخاري: «اهْجُهُمْ أَوْ هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ»[1]، وروى الإمام أحمد عن كعب بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: إن الله عَزَّوَجَلَّ قد أنزل في الشعراء ما أنزل، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ النَّبْلِ»[2]، فعلى كل شاعر أن يحرص على التحلي بتلك الصفات الجليلة، فيقرن الإيمان بالعمل الصالح، ويكثر من ذكر الله على كل حال، كما يجب أن يأخذ على عاتقه رفع الهمم، لتقود أمته الأمم، مع الذب عن دينه والدفاع عن وطنه، ورفع الوعي في مجتمعه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر الأخلاق الفاضلة بشعره وقصائده، وليعلم وليستقر في قلبه أنه:

وما من كاتبٍ إلا سيفنى ... ويَبقي الدهرَ ما كتبت يداه

فلا تكتب بمينُك غير شيءٍ ... يسرك في القيامة أن تراه

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١١٢ رقم ٣٢١٣)، ومسلم (٧/ ١٦٣ رقم ٢٤٨٦).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٣٧١ رقم ١٦٠٢٦)، قال الهيثمي: «رواه كله أحمد بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح». ينظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: (٨/ ١٢٣). وقال الألباني: «وهذا صحيح على شرط الشيخين». ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ١٧٢).

الوقفة الثالثة: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

رُوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «ما في القرآن آية أشد توبيخًا من هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣]». ومعناها: أي: هلا كان ينهاهم الربانيون والأحبار عن ذلك، وقد رُوي أن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطب فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي، ولم ينههم الربانيون والأحبار، فلما تمادوا في المعاصي، أخذتهم العقوبات، فمُروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقًا ولا يقرب أجلًا».

وروى أبوداود وابن ماجه عن جرير قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يَعْمَلُ فِيهِمْ بِالمَعَاصِي، يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ فَلَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا أَصَابَهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمُوتُوا»(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»(٢).

وكل تلك الأحاديث تُبين عظم شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأمل ما ميز الله به أمة النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بين الأمم، «قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وجاء نص الآية قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ وليس «من الناس»، وفي هذا فائدة -والله أعلم- أن الأمة يجب أن تنشر الخير للناس، وتدعو إلى الحق والنور والسعادة والجنة، كل من عاش على هذه الأرض».

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٢١٤ رقم ٤٣٣٩)، وابن ماجه (٥/ ١٤٢ رقم ٤٠٠٩). وصححه الألباني. ينظر: التعليقات الحسان (١/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٤١) برقم (٢١٦٩)، وقال: «هذا حديث حسن».

فنسأل الله أن يردنا إليه ردًّا جميلًا، وأن يوفق ولاة أمرنا القائمين على تلك الشعيرة في بلادنا الغالية لكل خير، وأن يجعلنا جميعًا من أتباع النبي ﷺ الذين قال الله عنهم على لسان نبيه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]. إنه ولي ذلك، والقادر عليه، وصلى الله على نبينا محمد.

* **إشراقة[1]: دورنا في الكفاح:**

جناية أن نتخلف عن الميدان، وننزوي عن المعركة، وجناية ألا نتفاعل مع الأحداث بمشاعرنا، وأفكارنا، وأعصابنا، وجناية – أن ندع المنظار القاتم يصور لنا كفاح المخلصين «تهورًا»، وعزائم الأبطال «مغامرة»، وجناية أن نتجاهل الجهود المبذولة، ونتعامى عن الواقع الماثل، لنفترض وهمًا، أو نتخيل باطلًا.

والأحداث والشدائد تُحسن دائمًا إلى الأمم، فتجمع صفوفها، وتوحد جهودها، وترتفع بأفكارها وعلاقاتها، بعيدًا عن الخلافات، والأحقاد، والنزاعات، فتُحيل الضعف «قوة»، والتساهل «حزمًا»، والتهاون «حرصًا»، وهي تقترب بالمكافحين من آمالهم وأهدافهم، وكأني بالشاعر العربي يريد هذا المعنى، حيث قال:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرًا وإذا افترقن تكسرت آحادا

وداعية الخُلف والفُرقة –في معترك الأحداث– أقسى من الأحداث وأخطر من سببها؛ لأنه يذيب روح الوحدة والاجتماع في أمته، ويعين الأحداث عليها، والويل لها إن تشاغلت بباطله عن واقعها، وهي في ساعة شدة وفترة حرج!

وكما أن الأحداث تصنع المعجزات في توحيد الصف والجهد، فهي تصنع أكثر منها في كشف الحقائق وإيضاح النفوس، لمن يعتبر!

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولست أدري ممن يتكون هذا الكيان الكبير، إن لم يكن مني ومنك؟ ولست أدري -كذلك- ما الذي يمكن أن نؤديه لديننا ووطننا وأمتنا إن لم نتآخى، ونوحد أهدافنا، وندرك دقة أحداثنا، ونتبين معالم مستقبلنا؟

ولقد تعرضت بلادنا الحبيبة اليوم لمثل هذا الدور، وأثبت شعبها المسلم -كعادته- فهمه العميق لدوره، وحرصه الأكيد على مستقبله، وتعلقه المخلص بقادته، والوقائع الماثلة هي الدليل الواضح لما أقول، والحمد لله.

* **خاتمة القلادة العشرون**: أدب القرآن:

ظهر أدب القرآن في آيات عديدة، منها ما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على لسان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، فأسند إبراهيم المرض إلى نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكنه أضافه إلى نفسه أدبًا، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ آمرًا المصلي أن يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، فأسند الإنعام إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والغضب حذف فاعله أدبًا، وأسند الضلال للعبيد، كما قالت الجن أيضًا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، وهذا هو أدب القرآن ودأبه، ومن ذلك نتعلم نحن الأدب مع الله جَلَّ جَلَالُهُ، في الحديث عنه، وفي دعائه، وفي البلاغ عنه والدعوة إليه.

القلادة الحادية والعشرون

الوقفة الأولى: عباد الرحمن

(الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور)، والصلاة والسلام على الخليل المصطفى، الحبيب المجتبى، أطهر تقي، وأشرف نبي، وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربهم واقتفى، عدد قطرات الماء في المحيطات والبحور، وعدد اللحظات والثواني في الأيام والشهور، أما بعد: فيا أيها الأحبة، بعد أن بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أواخر سورة الفرقان -تأكد-، أن من يدعو مع الله إلها آخر، أو يقتل نفسًا بغير حق، أو يزني، سوف ﴿يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾، بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعدها كرمه وسعة رحمته، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، فباب التوبة مفتوح، والتائب الصادق من الذنب كمن لا ذنب له، بل إن من رحمة الله وكرمه، كما مر في الآيات أن يبدل سيئات التائب إلى حسنات، وقد جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولًا الجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا: رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ:

نَعَـمْ، لَا يَسْـتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ، وَهُوَ مُشْـفِقٌ مِنْ كِبَـارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْـهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَـيِّئَةٍ حَسَـنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْـيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُـولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِـكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ»[1]. وروى الطـبراني «عَنْ أَبِي طَوِيلٍ شَـطَبِ الْمَمْدُودِ أَنَّهُ أَتَى رَسُـولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُـلًا عَمِلَ الذُّنُوبَ كُلَّهَا، فَلَـمْ يَتْرُكْ مِنْهَا شَـيْئًا، وَهُوَ فِي ذَلِكَ لَمْ يَتْرُكْ حَاجَةً وَلَا دَاجَـةً إِلَّا أَتَاهَا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: «فَهَلْ أَسْـلَمْتَ؟» قَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَشْـهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّكَ رَسُـولُ اللهِ، قَـالَ: «نَعَمْ، تَفْعَلُ الْخَـيْرَاتِ، وَتَتْرُكُ السَّـيِّئَاتِ، فَيَجْعَلُهُـنَّ اللهُ لَكَ خَيْرَاتٍ كُلَّهُـنَّ»، قَـالَ: وَغَـدَرَاتِي وَفَجَـرَاتِي؟ قَـالَ: «نَعَـمْ» قَـالَ: اللهُ أَكْبَرُ، فَـمَا زَالَ يُكَـبِّرُ حَتَّى تَوَارَى»[2]، وفي الحديث دلالة على سعة رحمة الله وعظيم فضله وجوده وكرمه.

ولنقـف هنـا مـع صفات عباد الرحمـن، وهم عبـادٌ أثنى الله عَزَّوَجَلَّ عليهـم في أواخر سـورة الفرقان، وكفى بذلك شرفًا وعزًّا، وكرامة وفضلًا، فما صفاتهم؟ وبم اسـتحقوا ذلك الفضل العظيم؟

أمـا الصفات فسـنعددها في هذه الوقفة، لعل قلوبنـا أن تنبض، وهممَنا أن تنهض، فنلحق بركب القوم، قبل الندامة واللوم:

قال الله عَزَّوَجَلَّ في صفاتهم:

- ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].
- ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾.

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٢١ رقم ١٩٠)، (١/ ١٢٢ رقم ١٩٠).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٣١٤ رقم ٧٢٣٥). قال الهيثمي: «رجال البزار رجال الصحيح غير محمد بن هارون أبي نشيط وهو ثقة». ينظر: مجمع الزوائـد ومنبع الفوائد: (١٠/ ٢٠٢)، وقال ابن حجر: «عـلى شرط الصحيـح». ينظر: الإصابة في تمييـز الصحابة: (٥/ ١٢٦). وصححه الألباني. ينظر: سلسـلة الأحاديث الصحيحة (٧/ ١١٦٣).

- ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾.
- ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: ٦٥].
- ﴿إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان: ٦٧].
- ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨].
- ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾
- ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾.
- ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾.
- ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.
- ﴿إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾.

وأخيرًا: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

فكان الجزاء والثواب: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، فنسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم ومعهم.

* **إشراقة[1]: هي كلمات:**

ليس البخيل الذي يبخل بماله فقط، لكنه الذي يبخل بإبداء مشاعر الشكر لمن أعانه، أو أسدى إليه معروفًا، أو وقف بجانبه لحظة احتياجه وضعفه، فالناس ليسوا جميعًا محتاجين إلى النقود، لكنهم يحتاجون في كثير من المواقف إلى ابتسامة رضا، وكلمة عرفان، ومشاعر نبل.

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

يحتـاج من قام بواجبه، أن تقول له: أحسـنت بما فعلت، ويحتـاج الكثير من الجنود المجهولين في معركة الحياة، الذين تعودت نفوسـهم على الوفاء والشـهامة، أن يُقال لهم بصوت مرتفع: أحسـنتم، حتى الشخص الذي كان نصيبه خدمتك، يحتاج إلى أن تقول له بين الحين والآخر: إنك تقدر إخلاصه وجهوده، وتعتذر عن إزعاجه.

هي «كلمات» لا تكلف قائلها شيئًا، لكن لها تأثيرًا كبيرًا في الناس، وتدفع بسامعها إلى مزيد من العطاء والبذل والإخلاص.

وتلك الكلمات نوعٌ من الوفاء، والوفاء هو السمة البارزة للعظماء من الرجال.

* **إشراقة**[1]:

قالهـا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إحـدى لقاءاتـه مـع الطـلاب، يقـول: «الحيـاة أيها الإخـوة يعبرها المخلصون وغيرهم ، ولكنها لا تتسـع أبدًا إلا لبصمات المخلصين، وملامح إنجازاتهم، رغـم ما يلقاه أكثرهم مـن الجحود والتجاهل، في معركة عجيبـة بين باطل ضارم وحق قائـم، لا بـد أن تنتهي بانتصار الحـق، واندحار الباطل، ولو في ضمائـر الرجال الواثقين بعون الله وصادق وعده».

* * *

الوقفة الثانية: شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأصحاب الأيكة

ذكـر الله عَزَّوَجَلَّ في سـورة الشـعراء قصص الأنبيـاء، وبين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رابطة النسـب والأخـوة بـين الأنبياء وأقوامهم، فـالله بعث لهم من أنفسـهم رسـلًا، يعرفون صدقهم ومكانتهم، وعلى الرغم من ذلك كذبوا المرسلين، ولقد بيّن القرآن أن التكذيب برسول واحد، يعني التكذيب بجميع الرسل، فرسالتهم واحدة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ [الشعراء: ١٠٥-١٠٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٢٤]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٤٢]، وقال ربنا: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٠-١٦١].

على الرغم من أن هؤلاء الأقوام جميعًا لم يروا إلا أنبياءهم، فقد كذبوا بجميع الرسل؛ لأن رسالتهم واحدة، والتكذيب بأحدهم كالتكذيب بهم جميعًا، وهنا فائدة، فبعد أن ذكر الله في السورة رابطة الأخوة بين كل نبي وقومه، تأمل ما قاله عن أهل مدين -أصحاب الأيكة- وهم قوم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال الله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٧٧]، فرغم أن شعيب منهم، كما هو حال سائر الرسل، إلا أن الله هنا لم يذكر إخوته لهم؛ لأنهم نُسبوا في الآية إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة كانوا يعبدونها، فقطع الله نسب الأخوة بينهم، باعتبار ما نُسبوا إليه، وإن كان أخوهم نسبًا.

ومن هنا يُعلم خطورة الشرك بالله، وفي المقابل عظم شأن التوحيد، وأيضًا تبين لنا هذه الفائدة أن كل حرف في كتاب الله، وكل كلمة جاءت في مكانها المناسب، بحيث لا يمكن لكلمة أخرى أن تحل مكانها، أو أن تكون أنسب منها، فكل حرف وكل كلمة لها مقصدها ومغزاها، وإن قصرت عقول الخلق عن إدراك ذلك، فسبحان الله الذي أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجًا، وتبارك الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا.

* **ومضة: الله جَلَّجَلَالُهُ شكور:**

يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿إِن تُقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧]، قال ابن القيم: «الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الشكور، ومن فضله يعطي

العبد، ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، ويشكر عبده بقوله بأن يثني عليه بين ملائكته وفي ملئه الأعلى، ويُلقي الشكر بين عباده، ويشكر بفعله، فإذا ترك له شيئًا أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئًا ردّه عليه أضعافًا مضاعفة، وهو الذي وفقه للترك والبذل، وشكره على هذا وذاك»، فسبحانك يا ربي ما أكرمك وما أرحمك.

«ولأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هو الشكور، فإن أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه من عطلها، واتصف بضدها، وهكذا شأن أسمائه الحسنى، أحب خلقه إليه من اتصف بموجبها، وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها، ولهذا يبغض الله الكفور والظالم والجاهل والقاسي القلب والبخيل والجبان واللئيم، وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جميل يحب الجمال، عليم يحب العلماء، رحيم يحب الرحماء، محسن يحب المحسنين، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، جواد يحب أهل الجود، ستير يحب أهل الستر، عفو يحب العفو»، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، فاللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عنا.

يقول بلال بن سعيد: أيها الناس «إن لكم ربًّا، ليس إلى عقاب أحدكم بمسارع. يقيل العثرة، ويقبل التوبة، يثيب المقبل عليه، ويشفق على المدبر عنه».

فيا رب:

اعْفُ عني وأقل لي عثرتي ... يا غِياثًا لِمُلِمات الزمنْ
لا تُعاقبني فقد عاقبَني ... ندمٌ أقلقَ روحي في البدَنْ
إنْ تُؤاخذني فمن ذا أرْتجي ... وإذا لمْ تَعْفُ عن ذنبي فَمَنْ؟

* * *

الوقفة الثالثة: للمؤمن سعادة الدنيا والآخرة

قال الله جَلَّوَعَلَا عن خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] أي: جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني، والمنزل الرحب، والمورد العذب، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن، وكل أحد يحبه ويتولاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه. وفيما ذكرناه دلالة على أن للمؤمن المصدق بربه السعادة والعز والمجد في الدنيا والآخرة، وليس ذلك في الآخرة فقط، كما يعتقد البعض، بل أولياء الله والصالحون من خلقه، هم أولى الناس بفضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكرمه في دنياهم قبل أخراهم، فيجب على المؤمنين العمل لذلك؛ لتكون لأمة نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفضل والرفعة على غيرها من الأمم، وتكون لها الريادة والقيادة في كل مجال من مجالات العز والمجد والتمكين، قال جرير في مدح من رآه أهلًا لذلك:

فلا هو في الدّنيا مُضيعٌ نَصيبَه ولا عرض الدنيا عن الدّين شاغله

وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن لينال سعادة الدارين، وقد أثنى الله على المؤمنين الصادقين، الذين يدعونه بهذا الدعاء، الذي جمع خيري الدنيا والآخرة: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١].

ختامًا: قال الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾، قال الشيخ السعدي: «عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومراداتها ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: عند الموت بالثبات على الإسلام، والتوفيق للخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين للجواب الصحيح».

قبل الختام: أقول كما قال يحيى بن معاذ: «إلهي، أحلى العطايا في قلبي رجاؤك، وأعذب الكلام على لساني ثناؤك، وأحب الأيام إليّ يومٌ فيه لقاؤك».

أما الختام: فنسأل الله في آخر حلقات هذا البرنامج -الذي أسأل الله أن يجعله مباركًا- أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يرزقنا في الدنيا أسباب السعادة ويوم القيامة الحسنى وزيادة، ربنا أوزعنا أن نشكر نعمتك، التي أنعمت علينا وعلى والدينا، وأن نعمل صالحًا ترضاه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين، واجعلنا للمتقين إمامًا.

* **ختام القلادة الحادية والعشرون**: فتوكل على الله، إنك على الحق المبين:

قالها ربنا تثبيتًا لنبينا ﷺ، وطمأنة لقلبه، وتشجيعًا له ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، أي: فليكن اعتمادك على الله وحده في جميع أمورك، وبلغ رسالة ربك، فإنك على الحق المبين الواضح، وإن خالفك من خالفك، ممن كتبت عليهم الشقاوة، فلا تلتفت لهم، ولا يثنون عزمك في تبليغ دعوة ربك، وهذه آية عظيمة، فإن كنت على الحق الذي يرضي الله، وكثر حولك المثبطون، وأرجف المرجفون، وقل المعين، ردِّد ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] واثبت على الحق.

القلادة الثانية والعشرون

الوقفة الأولى: آيات الله عَزَّوَجَلَّ

الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبده وابن عبده وابن أمته، ومن لا غنَى له طرفة عين عن فضله ورحمته، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده، حتى أتاه اليقين، فصلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فسبحان من خلق من التراب، بشرًا يسير على التراب، يسافر في أقطار الأقاليم، ويركب متن البحار، ويسير في أصقاع الأرض، ينطق ويسمع ويبصر ويتكسب ويجمع الأموال، له فكر ودهاء ومكر ورأي وعلم، كل بحسبه، سيّرهم وسخرهم وصرّفهم في فنون المعايش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفِكر، والحُسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، خلق لهم من أنفسهم أزواجًا، ليسكنوا إليهم، فتطمئن قلوبهم، وتهدأ أرواحهم، وجعل بينهم حبًّا ومودة ورأفة ورحمة، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، خالف بين لغات بني البشر، وميّز ألوانهم وأشكالهم، فكم من لغة في هذا العالم، وجميع أهل الأرض، بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة،

كلٌّ له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان، وليس يشبه واحد منهم الآخر، بل لا بد أن يفارقه بشيء، إما بسمت أو لون أو هيئة أو كلام، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، هيأهم للنوم بالليل لترتاح أبدانهم، وللسعي في النهار يطلبون فضل الله، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣]، يريهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ البرق خوفًا من الصواعق، وطمعًا في المطر والخير، وينزل الماء ليحيي الأرض بعد موتها، ثم تقوم السماء والأرض بأمره يوم القيامة، ويدعو الخلق يومئذ دعوة واحدة، إذا هم يخرجون جميعًا من الأرض، لا يتخلف منهم أحد، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٤-٢٥].

أيها الأحبة، لقد بيّن الله جَلَّجَلَالُهُ في أواخر الآيات السابقة: أن الآيات العظيمة التي ذُكرت ليست لكل أحد، أي: لا ينتفع بها كل من رآها، إنما هي للعالِمين، ولقوم يسمعون ويتفكرون ويعقلون، فهل تفكرنا في آيات الله العظيمة حولنا، وهل قادنا ذلك التفكر إلى الله ومحبته وتعظيمه، لنعلم أيها الكرام أن الله جَلَّجَلَالُهُ قد أثنى في أجل كتاب على قوم، فوصفهم بأولي الألباب، فقال جلّت قدرته، ووسع كل شيء علمه ورحمته: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]، فإن أحببت أيها المبارك أن تكون من أولي الألباب، فاعلم أن من أعظم صفاتهم، ومن أجمل ما أثنى الله عليهم به: الإكثار من ذكر الله على كل حال، والتفكر في خلق السماوات والأرض، والاستدلال بذلك على عظيم علم الله وحكمته وقوته وقدرته، وأنها ما خُلقت إلا

لأمر عظيم، وأنهم سيلاقون الله في يوم لا ريب فيه، وكل ذلك أورثهم زيادة في إيمانهم بالله، ويقينهم بلقائه، وخشيتهم من عقابه، وأنهم لا طاقة لهم بعذاب من هذه قوته وهذه قدرته، فأول ما سألوه أن يقيهم عذاب النار، فيا رب قنا عذابك يوم تبعث عبادك.

ختامًا: يقول ابن القيم في كلام جميل عن التفكر: «أثنى الله جَلَّوَعَلَا في كتابه العزيز على من يتفكرون، وجاءت أواخر كثير من الآيات بالحث على التفكر، والثناء على أهله، وأجمل التفكر وأعلاه:

١. التفكر في آيات ربي المقروءة، وفهم المراد منها، والعمل بها؛ ولذلك أنزل الله القرآن، لا لمجرد تلاوته، بل للعمل به، والتلاوة وسيلة لتلك الغاية العظمى، قال بعض السلف: أُنزل القرآن ليُعمل به، فاتَّخَذوا تلاوته عملًا!

٢. التفكر في آياته المشهودة والمبثوثة في الكون، والاعتبار بها، والاستدلال بها على أسماء الله وصفاته.

٣. التفكر في آلاء ربي وإحسانه، وفي سعة رحمته ومغفرته وحلمه.

٤. التفكر في عيوب النفس وآفاتها، وفي عيوب العمل، وهذا التفكر يكسر النفس الأمّارة بالسوء، ومتى كُسرت عاشت النفس المطمئنة.

٥. التفكر في واجب الوقت ووظيفته، واستغلاله في النافع، وجمع الهم كله عليه، قال الشافعي: صحبت الصوفية فلم أستفد سوى حرفين: الوقت سيف، فإن قطعته وإلا قطعك، والنفس إن لم تشغلها بالحق؛ شغلتك بالباطل»[1].

ولم يصل -والله أعلم- ابن القيم لما وصل إليه -بفضل الله عليه- إلا بجمع فكره على هذه الأنواع الخمسة، التي ذكرها، فنسأل الله العظيم من فضله.

(١) ينظر: الداء والدواء (ص: ٣٥٧-٣٥٩) بتصرف.

كما نسأله جَلَّوَعَلَا: أن يجعلنا من أولي الألباب، الذين نوّه بذكرهم، ورفع شأنهم، الذين يتفكرون في آيات ربهم، فيزدادون به إيمانًا، وله حبًّا، ومنه قربًا ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

* * *

الوقفة الثانية: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد: فيا أيها الكرام، وصفت سورة الأحزاب أحداث تلك المعركة -معركة الأحزاب- كأنها رأي عَين، وبيّنت كيف حاصر المشركون المؤمنين في المدينة، والابتلاء الذي وقع لهم، وكيف اختلفت الظنون: يقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠]، قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ظنون مختلفة، ظن المنافقون أن محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه يُستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيظهره على الدين كله»[1]. وشتان والله بين الظنين وبين الفريقين، وأقول: لقد كان ابتلاءً عظيمًا ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]؛ لذلك تباينت ظنون الخلق بربهم جَلَّوَعَلَا، وقد حكى القرآن، وأظهر تلك الظنون، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، وهذا أقبح الظنون، وهو ظن المنافقين، فقد ظهر نفاقهم، وتكلمت قلوبهم المريضة، نعوذ بالله من النفاق، ثم بيّن الله ظن قوم آخرين: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾، وهؤلاء المُعوّقين لغيرهم الذين ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فكان رد الله عليهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾، ثم بينت السورة ظنًّا سيئًا، وهو ظن من تيقن عنده الموت أو القتل، فأراد الفرار خوفًا

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٤٧).

على نفسه، وظن أن لن ينصره الله، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]، فبين الله كذبهم فيما ادعوه، وأنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة، ثم سُئلوا الفتنة، وهي الدخول في الكفر، لدخلوا في الكفر سريعًا، ثم رد الله عليهم: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٦-١٧]، ثم ختم الله بعدها بآيات بذكر هذا الظن الجميل، وهو ظن المؤمنين: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، أولئك الذين قال الله عنهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وبعد تلك الظنون وسردها، فلنسأل أنفسنا: ما ظننا بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في كل أحوالنا، وخصوصًا عند الشدائد والابتلاءات؟ اللهم املأ قلوبنا بحسن الظن بك.

ولنتأمل معًا كيف كان ظن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في ربهم عَزَّوَجَلَّ في الشدائد فهم قدواتنا، قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين أراد قومه أن يرموه في النار: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾، وقال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ -حين لحق بهم فرعون، ورأوا البحر أمامهم- لقومه حين قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ قال: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾، وقال خاتمهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لصاحبه أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين اقترب المشركون منهم، وهم في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

ثم تأمل كيف كانت عاقبة ذلك الظن الجميل، وكيف أن الله نصرهم، وأعزهم وأظهر دينهم، وخذل عدوهم؛ لذا فلنحسن الظن بالله جَلَّ جَلَالُهُ دائمًا، فالله جَلَّ جَلَالُهُ يقول في الحديث القدسي الصحيح: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي

فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»[1].

ولتعلم أيها المبارك، ولنعلم جميعًا أن من أعظم علامات حسن الظن بالله حسن العمل، فمن أحسن الظن أحسن العمل، ولقد ذم القرآن من جمع بين سوء العمل وحسن الظن -بزعمه- ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦]. نسأل الله العافية.

وقد بيّن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَنَّ المَكْرُوهَ الوَارِدَ عَلَى القَلْبِ، إِنْ كَانَ مِنْ أَمْرٍ مُسْتَقْبَلٍ يَتَوَقَّعُهُ، أَحْدَثَ الهَمَّ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَمْرٍ مَاضٍ قَدْ وَقَعَ أَحْدَثَ الحَزَنَ»[2]، وذهاب ذلك كله في اليقين والتوكل العظيم على الله، والمسارعة إلى طاعته، وإحسان العمل مع الدعاء بإذن الله، وحُسن الظن بالله جَلَّ وَعَلَا، والحرص على ما علمناه إياه نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأدعية الواردة كقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ: أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ١٢١ رقم ٧٤٠٥)، ومسلم (٨/ ٦٢ رقم: ٢٦٧٥).
(٢) ينظر: الداء والدواء (ص: ١٧٨).
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٨٦٤ رقم ٣٧٨٨). صححه الألباني. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٣٨٣).

فتضمن الدعاء أن يحيي قلبه بربيع القرآن، وأن ينوّر صدره، فتجتمع له الحياة والنور، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولمّا كان الحزن والهم والغم يُضاد حياة القلب واستنارته، سأل أن يكون ذهابها بالقرآن؛ فإنها أحرى ألّا تعود، وأمّا إذا ذهبت بغير القرآن من: صحة أو دنيا، أو جاه، أو زوجة، أو ولد، فإنها تعود بذهاب ذلك»[1].

ويقول أيضًا: «الحزن يضعف القلب، ويوهن العزم، ويضر الإرادة، ولا شيء أحب إلى الشيطان من حزن المؤمن -لذلك افرحوا، واستبشروا، وتفاءلوا، وأحسنوا الظن بالله-. يقول ربي جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠]»[2].

لذا ليكن ظنك بربك جميلًا دائمًا، في كل أمر من أمورك، وفي كل شأن من شؤون حياتك، ظن النجاح والخير والتوفيق والفوز والفلاح، وإياك وظن السوء، فقد ذمه الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في المخلفين من الأعراب، الذين كذبوا وقالوا: شغلتنا أموالنا وأهلونا: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢]].

وتأمل ختامًا ظن أولئك الصفوة بربهم جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٢٦).

(٢) ينظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٧٩).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال علماؤنا: لمّا فوَّضوا أمورهم إليه، واعتمدوا بقلوبهم عليه، أعطاهم من الجزاء أربعة معانٍ: النعمة، والفضل، وصرف السوء، واتباع الرضا، فرضَّاهم عنه، ورضِيَ عنهم»[1].

فاللهم إنا نسألك قوة الإيمان بك، وصدق التوكل عليك، وحسن الظن بك، ودوام الفقر إليك، والغنى الكامل بك، فإنه لا حول ولا قوة لنا إلا بك، وأنت حسبنا ونعم الوكيل.

* **إشراقة**[2]:

«للحق قوة لا تستطيع كل قوى الأرض إخمادها أو التغلب عليها، وللباطل جولات ولكنها تتلاشى وتنهار؛ لأنها لا تعتمد على حقائق ثابتة أو قواعد راسخة».

(١) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٤٢٦).
(٢) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

القلادة الثالثة والعشرون

الوقفة الأولى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾

الحمد لله الذي لا تغيض ينابيع فضله، ولا تضطرب موازين عدله، أحمده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حمدًا، يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها الكرام، لقد بيّن القرآن بجلاء أن صلاح السماء والأرض يكون بالطاعة، وأن ظهور الفساد فيهما إنما هو من آثار المعصية وشؤم الذنب، فمن عصى الله في الأرض أو أمر بمعصيته أو زينها أو دعا إليها أو اتخذ من الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فقد أفسد في الأرض، شعر أم لم يشعر، وتأمل قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بعد النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وقال ربنا جَلَّ وَعَلَا: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، أي: بان النقص في الزروع والثمار في الأرض، وفي الأسماك والكائنات في البحر، وغير ذلك مما يكون فيه نفع للناس من الأرزاق فيهما بسبب المعاصي، فارتكاب الذنوب سبب لفساد ما في البر والبحر، كما أن ترك المعاصي والمحرمات سبب في حصول البركات من السماء والأرض، ومن هذا الباب قد ثبت في الصحيح

«أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ، فَقَالَ: مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ»[1]، وفي المقابل فإن أهل العلم استنبطوا من قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩]، أن الصالحين إذا ماتوا تفقدهم بقاع الأرض، التي كانوا يتعبدون الله عليها، وأيضًا يفقده بابه من السماء الذي كان يصعد من خلاله عمله الصالح، فتبكيه السماء والأرض، وقد ورد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «... إِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ...»[2].

وهنا يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنه لمّا كان العالم سببًا في حصول العلم، الذي به نجاة النفوس من أنواع المهلكات، وكان سعيه مقصورًا على هذا، وكانت نجاة العباد على يديه، وكان علمه وخيره الذي نشره سبب للتقرب إلى الله بفعل الخيرات والطاعات، وفي ذلك صلاح السماوات والأرض وما فيهما، بسبب ذلك كله جُوزي العالمُ من جنس عمله، وجُعل من في السماوات والأرض ساعيًا في نجاته من أسباب الهلكات، باستغفارهم له، وإذا كانت الملائكة تستغفر للمؤمنين، فكيف لا تستغفر لخاصتهم وخلاصتهم؟»[3]. نسأل الله العظيم من فضله.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي قحذم، قال: «وجد في زمن زياد أو ابن زياد صُرة فيها حب أمثال النوى -يعني من برّ-، عليه مكتوب: هذا نبت في زمان كان يُعمل فيه بالعدل»[4]، وهنا ينبغي أن يُعلم أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قد أودع في الأرض من الخيرات ما

(١) أخرجه البخاري (٨/ ١٠٧ رقم ٦٥١٢)، ومسلم (٣/ ٥٤ رقم ٩٥٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ٣٥٤ رقم ٣٦٤١)، والترمذي (٤/ ٤١٤ رقم ٢٦٨٢)، وابن ماجه (١/ ١٥٠ رقم ٢٢٣). وحسنه الألباني. ينظر: مشكاة المصابيح (١/ ٧٤).

(٣) ينظر: مفتاح دار السعادة (١/ ٦٤) بتصرف.

(٤) أخرجه أحمد (١٣/ ٣٣١ رقم ٧٩٤٩)، هذا خبر إسناده ضعيف لا يثبت، وليس هو بحديث.

يكفي البشر، إذا استعملوا ذلك وَفق ما يرضي الله، ولا تزال تُخرج الأرض من بَركتها بِقَدَرٍ في كل عصر وزمان، وإنما يختل ذلك الميزان بسبب ذنوب بني آدم وظلمهم، وقد ورد أن الأرض إذا اقتربت القيامة، أخرجت كل ما في جوفها من البركة، فقد ورد في الأحاديث الصحيحة: أنه في آخر الزمان، حين ينزل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ويقتل الدجال، ويحكم بشريعة نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن الأرض تُخرج بَركتها، فيأكل من الرمانة الفئام من الناس، ويستظلون بقحفها، وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأرض، التي هي كلُّها عدلٌ ورحمة، فإذا أقيمت الحدود، ورفع لواء الحق والعدل، انكفَّ أكثر الناس عن المعاصي والمحرمات، فيكثر من جراء ذلك الخير، وتظهر الأرض بركتها، والحمد الله الذي مَنَّ علينا بولاة أمر يقيمون العدل، ويحكمون بالشرع، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم.

ختامًا: أيها الأحبة، بيّن القرآن الكريم أن الله جَلَّ جَلَالُهُ لا يُحب الفساد، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا لا يضيع أجر المحسنين والمصلحين، وقد رُوى أن الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ صاحب الأضواء أراد تفسير قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في درس بين المغرب والعشاء: ﴿**وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا**﴾ [الأعراف: ٥٦]، فغلبه البكاء حتى أُذن لصلاة العشاء، وما ذاك إلا لعلم أولي الفضل بخطورة الإفساد في الأرض على الناس جميعًا، ولا شك أن إراقة الدماء المعصومة، والترويع والتفجير والإرهاب من أعظم صور الفساد، فنسأل الله أن يديم علينا الخير، ويدفع عنا الشرور، وأن يجعلنا جميعًا من الصالحين المصلحين في الأرض، الذين قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عنهم: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٤].

* * *

الوقفة الثانية: (اللسان والقلب)

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، أما بعد: فقد قال ربنا جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾، كان لقمان عبدًا صالحًا، سُمّيت سورة في القرآن باسمه، ورويت عنه الكثير من القصص، التي تدل على حكمته وسداد رأيه، منها ما رواه ابن جرير عن خالد الربعي أنه قال: «كان لقمان عبدًا حبشيًّا نجارًا، فقال له مولاه: اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، قال: أخرج أطيب مضغتين فيها، فأخرج اللسان والقلب، ثم مكث ما شاء الله، ثم قال: اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، قال: أخرج أخبث مضغتين فيها، فأخرج اللسان والقلب، فقال له مولاه: أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها، فأخرجتهما، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها، فأخرجتهما، فقال لقمان: إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا»[1]. وصدق والله العبد الصالح، فإنما يتفاوت الناس بما يجري على ألسنتهم، وبما يستقر في قلوبهم.

وتأملوا رد الغلام على الخليفة عمر بن عبدالعزيز، فقد رُوي أن وفد الحجاز وَفَدَ على عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فاشرأبّ منهم غُلامٌ للكلام، فرأى عمر وراءه أشياخًا سكتوا، وقد شابت لحاهم، فقال: يا غلام، ليتكلم من هو أسَنُّ منك، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين، إنما المرء بأصغريه؛ قلبه ولسانه، ولو أن الأمور بالسِّن لكان هنا من هو أحق بمجلسك منك «يعني الخلافة»، فقال عمر: صدقت، تكلم، فتكَلّم الغلام؛ فأجاد وأفاد[2].

فاللِّسان يرفَعُ من انخفض به السِّن، ولا يرفع السِّنُّ من أعياه المقال، والتقوى بها التفاضل عند الله، والتسابق إلى الدار الآخرة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٨/ ٥٤٨).

(٢) ينظر: زهر الآداب وثمر الألباب (ص: ٤٠).

والتقوى -أيها الأحبة- محلها القلب، والقول السديد محله اللسان، فمن عمل بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ [الأحزاب: ٧٠] نال من ربه الكريم أعظم غاية ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١] وأيضًا -والله أعلم- من أراد القول السديد فعليه بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ في أحواله كلها، وقد دلت على ذلك الآية -والله أعلم-، وقد قيل: «من صح جنانه، فَصُحَ لسانه»، والتقي النقي يُلقّى الحكمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾، ومن اتقى الله حق تُقاته؛ تحاسد الحُسن والسداد في التسابق على ألفاظه وكلماته.

ولنعلم عظم أمر القلب، فإنه محل الإخلاص والنية، وعليه مدار الحديث العظيم، الذي كان يستفتح به الكثير من أهل العلم كتبهم: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى...»[1]، ولا خير والله في الآخرة لعمل فاته الإخلاص لله والنية الصالحة، وأيضًا لتعلم خطورة اللسان تأمل هذا الحديث العظيم: روى الإمام أحمد عَنْ مُعَاذِ بن جَبَلٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ، وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ، قَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ البَيْتَ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ؛ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ. قَالَ: ثُمَّ تَلَا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللهِ. فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ. قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا. فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا

(١) أخرجه البخاري (١/ ٦ رقم ١)، ومسلم (٦/ ٤٨ رقم ١٩٠٧).

نَتَكَلَّمُ بِهِ، فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»[1].

فاحذر أخي المبارك، فالأمر جلل: وقد قيل:

فإنك لا تستطيع ردَّ الذي مضَى إذا القول عن زلّاته فارقَ الفما[2]

لذا قال بعض الفصحاء وصدق: «اعقل لسانك إلا عن حق توضحه، أو باطل تدحضه، أو حكمة تنشرها، أو نعمة تذكرها»[3].

ويُروى أن أعرابيًّا دأب على حضور مجالس الشعبي العلمية، وكان يكثر الصمت، فقال له الشعبي: «ألا تتكلم؟!»، فقال: «أسكت فأسلم، وأسمع فأعلم، وإن حظ المرء من أذنه يعود عليه، أما حظه من لسانه فيعود على غيره»[4]، فظل الشعبي يردد كلمة الأعرابي ما امتدت به الحياة.

* **إشراقة**[5]:

«عوّد نفسك إسداء العون والمعروف، وحتى لا يؤلمك الجحود وطّنها على طلب الثواب من الله وحده».

ختامًا: «نسأل الله أن يرزقنا وإياكم قلوبًا سليمة، وألسنةً صادقة، ونفوسًا مطمئنة».

---

(١) أخرجه النسائي في المجتبى (١/ ٤٥٣ رقم ٢٢٢٣)، والنسائي في الكبرى (٣/ ١٣٥ رقم ٢٥٤٥)، والترمذي (٤/ ٣٦٢ رقم ٢٦١٦)، وابن ماجه (١/ ٥٢ رقم ٧٢). وصححه الألباني. ينظر: إرواء الغليل (٢/ ١٣٨).

(٢) ينظر: حسن السمت في الصمت (ص: ١١١).

(٣) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٨٣).

(٤) ينظر: وفيات الأعيان (٣/ ١٤).

(٥) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وعودًا على العبد الصالح لقمان، لقد خلد الله في كتابه الكريم وصية لقمان لابنه إلى يوم القيامة، التي شعت منها أنوار الحكمة، فقد قالها وهو أشفق الناس عليه، وأرأفهم به، فبدأ بوصيته بالتوحيد والتحذير من الشرك، ثم ببر الوالدين، ثم بتعظيم مراقبة الله في القلب، ليُخشى الله في الغيب والشهادة، وفي السر والعلن، ثم أمره بإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى، والتواضع للناس، والتحذير من الكبر والعُجب والاختيال، وختم وصيته بالترغيب في أن يكون عدلًا وسطًا في مشيته وكلامه، فما أعظمها من وصية، وهي وصية كل أب صالح لأبنائه، مشفق عليهم، يحب لهم الخير، ويريد لهم سعادة الدنيا والآخرة. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٣-١٩].

القلادة الرابعة والعشرون

الوقفة الأولى: (اختلاف الألوان آية)

الحمد لله الذي تمّ نوره فهدى، وعَظُمَ حلمه فعفى، وفاض جوده فأكرم وأعطى، نعمه على خلقه لا تعد ولا تُحصى، وآياته في الآفاق تشهد بأنه الأعلى، وأصلي وأسلم على أشرف من على الأرض مشى، وأكرم من دافع عن الحق وإليه دعا، أما بعد:

فيا أخي الحبيب ويا أختي الغالية، تأمل في الألوان حولك واختلافها، في ورود البساتين، وفي الزهور والرياحين، في الثمرات في الحقول، وفي الحبوب والبقول، كيف خُلقت من ماء واحد، وعلى الرغم من ذلك تباينت ألوانها، تأمل في ألوان الرمال في الشواطئ، وفي ألوان الجبال والسهول، والأودية والصخور، بل تأمل في البشر من حولك، واختلاف ألوانهم، وانظر إلى الدواب والأنعام، ما بين أبيض وأسود، وأحمر وأزرق، وأصفر وأخضر، إلى غير ذلك من الألوان، تأمل ذلك كله، وتخيل، ماذا لو كان كل شيء حولنا بلون واحد، ثم اسأل: من الذي خلق ذلك كله، من الذي خلق الألوان وفرّق بينها، وميّزها بعضَها عن بعض؟ ثم أنصت قليلًا، وسيأتيك الجواب يتردد صداه في أرجاء الكون، بين أوراق الشجر، وبين حبّات المطر، بين السحائب والغيوم، وبين الكواكب والنجوم، بين المجرات تسبح في أفلاكها، وفي السماوات وما يعرج في أبراجها: إنه الله جَلَّجَلَالُهُ وتقدست أسماؤه، واسمع ولينصت الكون:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «العلماء: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير»(١)، فقد ذكر الله ذلك بعد بيان قدرته على خلق المخلوقات، وتمايز ألوانها، فالذين يتأملون تلك الألوان واختلافها، وإبداع خلقها وتمايزها، يزيدهم ذلك علمًا بأن الله على كل شيء قدير، فيزدادون بذلك خشية لربهم، ويقينًا بلقائه، وفي رواية أخرى: قال ابن عباس: «العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك به شيئًا، وأحل حلاله وحرم حرامه، وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه، ومحاسب بعمله»(٢)، وقال سعيد بن جبير عن الخشية: «الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عَزَّوَجَلَّ»(٣)، وقال الحسن البصري: «العالم من خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه، ثم تلا الحسن: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]»(٤)؛ لذلك قال أهل العلم: «إنما العلم الخشية»(٥)، وتأمل فائدة ختم الآيات بالاسمين العظيمين العزيز الغفور -والله أعلم-.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨]، رأى العلماء عزة الله وقوته وقدرته في المخلوقات العظيمة حولهم، وفي تمايز ألوانها، فزادهم ذلك لله خشية، فغفر لهم جَلَّ جَلَالُهُ، وهو العزيز الغفور.

«ثم لنتأمل أوصاف أولئك العلماء في الآيات التي تليها مباشرة -والله أعلم- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٤٨٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٤٨٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٤٨٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٤٨٢).
(٥) ينظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (١/ ٣٨)، إتحاف المهرة لابن حجر (١٠/ ٤٤٣).

﴿تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠]». فأولئك العلماء أورثهم التفكر العظيم في المخلوقات، وتمايز ألوانها، عملًا قلبيًّا جليلًا، ألا وهو الخشية، وأيضًا أعمال جوارح من تلاوة القرآن، وإقامة الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله، فشكر الله لهم ذلك، فغفر لهم ووفّاهم أجورهم، وزادهم من فضله، وهو الغفور الشكور. فيا رب نسألك وأنت بكل جميل كفيل، وأنت حسبنا ونعم الوكيل: أن تجعلنا منهم، وأن تُدخلنا معهم، وإن قصّرت أعمالنا، فإنه لا حول ولا قوة لنا إلا بك، ولا نهلك وأنت رجاؤنا.

* * *

الوقفة الثانية: ﴿فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في سورة سبأ إخبارًا عن المترفين المكذبين: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، افتخروا بكثرة أموالهم وأولادهم، -بلا إيمان ولا طاعة ولا تقوى- واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليُعطيهم هذا في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، ولهذا قال الله بعد الآية الأولى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سبأ: ٣٦] أي: يعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب، فيُفقر من يشاء، ويُغني من يشاء، يؤخر من يشاء بعدله، ويُقدم من يشاء بفضله، ولا يسأله مخلوق عن علة فعله، ولا يعترض عليه ذو عقل بعقله، فله الحكمة التامة البالغة، والحجة القاطعة الدامغة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ثم بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعدها -في سورة سبأ- الأمور التي تُقرب العبد على الحقيقة من مرضاته ونعيم جناته، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ

عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ [سبأ: ٣٧] أي: ليست هذه دليلًا على محبتنا لكم، ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ هذا الذي يقرب من الله، الإيمان والعمل الصالح، وقد جاء في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ، وَأَعْمَالِكُمْ»[1]، ثم ختم الله الآيات ببيان جزاء من تقرب إليه بما يُحب، فقال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾. فنسأل الله العظيم من فضله.

فهؤلاء لم تُلههم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله، وعن المسابقة إلى الخيرات والطاعات، بل رَبُّوا أولادهم على الطاعة، وأنفقوا أموالهم في سبل الخير، فاستحقوا ذلك الفضل العظيم؛ لذا أقول والله أعلم: لا تجد تاجرًا أو رجل أعمال مؤد لزكاة ماله، يُكثر من الصدقات والأعطيات للمحتاجين، ولا تُلهيه الصفقات والاجتماعات عن ذكر الله وعن الصلوات الخمس جماعة في بيوت الله، إلا وقد بارك الله له في رزقه وعمله وتجارته، فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور: ٣٦-٣٧]، ثم اسمع الجزاء: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور: ٣٨].

وتأمل خاتمة الآيات، فمن ترك تجارته وبيعه لأجل فريضة من فرائض الله، رزقه الله من حيث لا يدري بغير حساب، فإن أردت البركة في الرزق والبيع والصفقات، فاعمل بتلك الآيات، ليزيدك الله من فضله، فإن ﴿ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

* **إشراقة**[2]:

«عون الله للمرء يجعله السبّاق فيما يفعل، ولو قاومته كُل قوى الأرض».

---

(١) أخرجه مسلم (٨/ ١١ رقم ٢٥٦٤).

(٢) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وختامًا: اعلم -أخي المبارك- وليعلم كل أحد أنه والله لن يُنال ما عند الله من كرامته إلا بطاعته، ولا سبيل إلى طاعته إلا بتوفيقه ومعونته، فنسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على نبينا محمد.

القلادة الخامسة والعشرون

الوقفة الأولى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، قيمًا لينذر بأسًا شديدًا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا ماكثين فيه أبدًا، والصلاة والسلام على أكرم الناس إيمانًا وعملًا وخُلقًا، خير من وطئت قدماه الثرى، النبي الحبيب المجتبى، وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربهم واهتدى بهديهم واقتفى، أما بعد:

فيا أيها الكرام، قال الحبيب ﷺ في حديث عظيم: «... سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ»[1]. وقال أيضًا رسول الله ﷺ: «مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ»[2]. وفي الحديثين دلالة جلية على فضل ذكر الله ومكانة أولئك الصفوة الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، ويكفي والله في فضل الذكر هذا الحديث القدسي عند البخاري: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٨/ ٦٣ رقم ٢٦٧٦).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٢/ ١١٩ رقم ١٣١٢)، وأبو داود (١/ ٥٠٥ رقم ١٣٠٩)، (١/ ٥٤٣ رقم ١٤٥١)، وابن ماجه (٢/ ٣٦٠ رقم ١٣٣٥). وقد صححه الألباني. ينظر: صحيح أبي داود (٥/ ١٩٤).

ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ...»[1]، وقد قال ربي في كتابه العزيز: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وأخرج ابن المنذر عن خالد الربعي قال: «... قف عندها ولا تعجل ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ فلو استقرَّ يقينُها في قلبك ما جفَّتْ شفَتاك»[2]، وصدق والله، وإنه لشرف عظيم أن يذكرك الله في الملأ الأعلى، والإكثار من ذكر الله مرتبة عالية لا ينالها ويواظب عليها إلا من وفقه الله ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾، وقد أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المؤمنين بالإكثار من ذكره، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣]، روى الطبري هنا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال في هذه الآيات: «لا يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدًّا معلومًا، ثم عذر أهلها في حال عذر، غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حدًّا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدًا في تركه إلا مغلوبًا على عقله، قال: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] بالليل والنهار في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال، وقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢] فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته»[3]، وثبت أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ لله، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»[4].

والشمس تطلع على الأرض بما فيها من الكنوز والأراضي والخيرات، بل تطلع على الكواكب، وعلى عوالم أخرى لا يعلمها إلا الله، فنسأل الله أن يجعلنا وإياكم وأهلينا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات.

---

(١) أخرجه البخاري (٩/ ١٢١ رقم ٧٤٠٥)، ومسلم (٨/ ٦٢ رقم: ٢٦٧٥).
(٢) ينظر: الدر المنثور (٣/ ٢٨٦).
(٣) جامع البيان (١٩/ ١٢٤).
(٤) أخرجه مسلم (٨/ ٧٠ رقم ٢٦٩٥).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلام نفيس: «كلما كان وجود الشيء أنفع للعبد، وهو إليه أحوج كان تألمه بفقده أشد، وكلما كان عدمه أنفع له كان تألمه بوجوده أشد، ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله، واشتغاله بذكره، وتنعمه بحبه، وإيثاره لمرضاته، بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة -على الحقيقة- إلا بذلك، فعدمه آلم شيء له، وأشده عذابًا عليه، وإنما تغيب الروح عن شهود هذا العذاب والألم لاشتغالها بغيره، واستغراقها في ذلك الغير، فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم الفوات بفراق أحب شيء إليها وأنفعه لها، كغياب الألم عن السكران المستغرق في سكره، وقد احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده، وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بألم ذلك الفوات وحسرته، حتى إذا صحا، وكُشِفَ عنه غطاء السكر، وانتبه من رقدة الخمر، ذاق ألم الفراق وحسرة المصاب، وهكذا الحال -لمن غفل عن الله وعن ذكره- سواء عند كشف الغطاء، ومعاينته طلائع الآخرة، والإشراف على مفارقة الدنيا، والانتقال منها إلى الله، أو في الدنيا بالمعيشة الضنك، كما قال ربي: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، بل إن الألم والحسرة والعذاب يوم القيامة أشد بأضعاف مضاعفة؛ فإن المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته بالعوض، ويعلم أنه قد أُصيب في شيء زائلٍ لا بقاء له، فكيف بمن مصيبته بما لا عِوض عنه، ولا بدل منه، ولا نِسبة بينه وبين الدنيا جميعها، فلو قضى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان الموت أعظم أمنياته، وهذا لو كان الألم على مجرد الفوات، فكيف وهناك من العذاب على الروح والبدن ما لا يقدر قدره»[1]، ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فاعرض الآن على نفسك أعظم محبوب لك في الدنيا، بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه، فأصبحت وقد أُخِذَ منك، وحيل بينك وبينه أحوجَ ما كُنتَ إليه، كيف يكون حالك؟ هذا ومنه كل عوض، فكيف بمن لا عوض عنه!؟ كما قيل:

من كل شيء إذا ضيعته عوضٌ وما من الله إن ضيعتَه عوض[2]

(١) ينظر: الداء والدواء (ص: ٣٠٤).

(٢) ينظر: الداء والدواء (ص: ٣٠٥).

ختامًا: اعلم أيها الموفق بإذن الله: «أن علامة حب الله كثرة ذكره، فإنك لن تحب شيئًا إلا أكثرت من ذكره».

واعلم أيضًا أنه «لذكر الله عَزَّوَجَلَّ أثرٌ كبير في انشراح الصدر، ورباطة الجأش، وذهاب الرهبة، وتيسير الأمر، وحل عقدة اللسان والقلم».

وقد قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وحتى تتيقن أن المسألة مسألة «توفيق»، اعلم أنّ «الذِّكر من أسهلِ الطاعات، لكن لا يوفق له إلا القليل».

فاللهم وفقنا لطاعتك، وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، واملأ قوبنا بحبك، وأعنا على ما يرضيك، ويقربنا إليك، فإنك سبحانك بكل جميل كفيل، وأنت حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

الوقفة الثانية: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، أما بعد:

فقد قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢]، والآثار: كل ما تركته خلفك من خير أو شر، فكنت فيه قدوة لغيرك، قال نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[1].

ومن الآثار -كما قال أهل العلم-: «الخطوات إلى المساجد»، وقد قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لبني سلمة حين أرادوا الانتقال قرب المسجد -وقد كانت ديارهم

(١) أخرجه مسلم (٨/ ٦١ رقم ١٠١٧).

بعيدة عنه-: «يَا بَنِي سَلِمَةَ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ»[1]، وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو كان الله مُغْفِلًا شيئًا من شأنك يا ابن آدم، أغفل ما تُعفي الرياح من هذه الآثار، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أو من معصيته، فمن استطاع أن يكتب أثره في طاعة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فليفعل»[2].

ومن أعظم الآثار أيضًا والله أعلم، ما ورد في حديث نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[3]. فكل ذلك بإذن الله من الآثار الحسنة الباقية، ومما ذكر في الحديث «عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ» ولنتأمل هذه القصة التي تبين فضل العلم والعلماء وعظيم آثارهم حتى بعد مماتهم:

قَدِمَ رَجُلٌ مِنَ المَدِينَةِ عَلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ وَهُوَ بِدِمَشْقَ، فَقَالَ: مَا أَقْدَمَكَ يَا أَخِي؟ فَقَالَ: حَدِيثٌ بَلَغَنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: أَمَا جِئْتَ لِحَاجَةٍ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: أَمَا قَدِمْتَ لِتِجَارَةٍ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: مَا جِئْتَ إِلَّا فِي طَلَبِ هَذَا الحَدِيثِ؟ قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًى لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، حَتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ، وَفَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[4].

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٣١ رقم ٦٦٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٥٠٢، ٥٠٣).

(٣) أخرجه مسلم (٥/ ٧٣ رقم ١٦٣١).

(٤) أخرجه أبو داود (٣/ ٣٥٤ رقم ٣٦٤١)، والترمذي (٤/ ٤١٤ رقم ٢٦٨٢)، وابن ماجه (١/ ١٥٠ رقم ٢٢٣).

وما أجمل ما قال الشاعر:

الناس من جهــة التكوين أكفاءُ ... أبوهــم آدم والأم حــواءُ
فإن يكن لهــمُ في أصلهم شرفٌ ... يُفاخــرون بــه فالطــين والماءُ
ما الفخر إلا لأهــل العلم إنهمُ ... عــلى الهدى لمن اســتهدى أدِلاءُ
وقيمة المــرء ما قد كان يُحســنه ... والجاهلون لأهــل العلم أعداءُ
ففــز بعلم تعــش حيًّا بــه أبدًا ... فالناس موتى وأهل العلم أحياءُ

وصدق والله، تأمل فيمن رحل من أهل العلم كابن باز وابن عثيمين، وكابن القيم وابـن تيميـة قبلهما، ما زالت آثارهم باقيـة وعلمهم منثور بيننا، كأنهـم ما غابوا، وذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

لذا أقول ختامًا: أيها المبارك، اعلم أن «كل أحد سيتخلى عنك، حين تذهب إلى قبرك، إلا العلم والعمل، أما علمك فسينوب عنك في الدنيا بعد وفاتك، وسيُهدي لك من الحسنات ما انتفع به الناس، أما عملك فسيدخل معك في قبرك، وسيكون شفيعًا لك بإذن الله يوم تلقى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فأكثر من العلم النافع والعمل الصالح ما دُمت في زمن الإمهال».

واحـرص على ألّا يمضي عليك يوم إلا وقد اسـتفدت علمًا يُقربك إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وعملت عملًا يُقربك من جناته، وإلا فما قيمة العمر، وما قيمة الليالي والأيام إذا لم تكن درجـات ترقـى بها إلى مرضاة الله، كلما نقص عمرك، زاد ارتفاعك وقربك، واعلم والله -كما قال ابن قدامة- أن «السعيد من إذا وقفت أنفاسه، لم تقف حسناته».

وقد قيل:

إذا لم يكــن مَــرُّ الســنين مُترجمًا ... عن الفضل في الإنسان سمّيته طِفلا
ومــا تنفع الأيــام حــين يعُدُّها ... ولم يســتفد فيهنّ عِلــمًا ولا فضلا

فيا رب زدنا علمًا، واجعلنا ممن ترك آثارًا طيبة بعد مماته، فكانت امتدادًا لأعماله، وتكفيرًا لسيئاته، ورفعةً لدرجاته، فلا حول ولا قوة لنا إلا بك، وأنت حسبنا ونعم الوكيل.

القلادة السادسة والعشرون

الوقفة الأولى: (قلب أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ)

الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير، والصلاة والسلام على البشير النذير، والسراج المنير، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه واهتدى بهديه إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها الكرام، ذكر الله عَزَّوَجَلَّ صبر عبده ونبيه أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ فلقد ابتلي عليه وعلى نبينا السلام بلاءً عظيمًا في جسده وماله وولده، حتى لم يبق في جسده مغرز إبرة سليمًا، سوى قلبه، ولم يبق له من الدنيا إلا زوجته، التي حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدمه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، قيل: بنصب في بدنه، وعذاب في ماله وولده، والله أعلم، ولمكانة الله العظيمة في قلب أيوب، صبر ورضي وشكر، موقنًا بأن الله لا يُقدّر له إلا الخير، فقد أخذ حب الله بمجامع فؤاده، فامتلأ قلبه تعظيمًا وإجلالًا لربه، فاستحق الثناء من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آخر الآيات: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، ولتتبين لك عظمة الله في قلب أيوب، تأمل ما قاله عَلَيْهِ السَّلَامُ للرجلين في هذا الأثر، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَيُّوبَ نَبِيَّ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَبِثَ بِهِ بَلاؤُهُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ القَرِيبُ وَالبَعِيدُ، إِلَّا رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَانِهِ، كَانَا مِنْ أَخَصِّ إِخْوَانِهِ، كَانَا يَغْدُوَانِ إِلَيْهِ وَيَرُوحَانَ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ ذَاتَ يَوْمٍ: تَعْلَمُ وَاللهِ، لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا مَا

أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ العَالَمِينَ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مُنْذُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرحَمْهُ اللهُ، فَيَكْشِفَ مَا بِهِ، فَلَمَّا رَاحَا إِلَى أَيُّوبَ، لَمْ يَصْبِرِ الرَّجُلُ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ: مَا أَدْرِي مَا تَقُولَانِ، غَيْرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ بِالرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ، فَيَذْكُرَانِ اللهَ، فَأَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي فَأُكَفِّرُ عَنْهُمَا، كَرَاهِيَةَ أَنْ يُذْكَرَ اللهُ إِلَّا فِي حَقٍّ، قَالَ: وَكَانَ أَيُّوبُ يَخْرُجُ لِحَاجَتِهِ، فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ، أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بِيَدِهِ حَتَّى يَبْلُغَ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عَلَيْهَا، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى أَيُّوبَ أَنِ ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلُۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]...»[1] إلى آخر القصة، والشاهد أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شفى عبده الصالح أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد ذلك وعافاه –بما وقر في قلبه من التعظيم لربه–، ثم أيضًا جازاه وأكرمه وأعطاه على صبره وتسليمه ورضاه، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣] أي: ليتبين لذوي العقول أن عاقبة الصبر، الفرج والرضا والسعادة في الدنيا والآخرة، وأن الابتلاء ليس دليلًا –بالضرورة– على ذنب أو غيره، بل قد يكون سبب خير وعلامة محبة، وهو لمن صبر كرامة ورفعة، فالأنبياء كانوا أشد الناس بلاء، «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ»[2]، وفي الحديث الآخر: «... فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا بِهِ خَطِيئَةٌ»[3].

يقول ابن تيمية في بيان بعض الحِكم العظيمة للابتلاء: «من تمام نعمة الله على عباده المؤمنين: أن يُنزل بهم من الشِدّة والضُّر ما يُلجئهم إلى توحيده، فيدعونه مخلصين له الدين، ويرجونه لا يرجون أحدًا سواه، فتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم: من

(١) جامع البيان (٢٠/ ١٠٩)، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٨/ ٢٤٦٠، ٢٤٥٩). وقد صححه الألباني. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧/ ١١٥ رقم ٥٦٤٥).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٧/ ٤٦ رقم ٧٤٣٩)، والترمذي (٤/ ٢٠٣ رقم ٢٣٩٨)، وابن ماجه (٥/ ١٥٢ رقم ٤٠٢٣). وقد صححه الألباني. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٧٤).

التـوكل عليه، والإنابة إليه، وحلاوة الإيـمان، وذوق طعمه، والبراءة من الشرك، ما هو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض والخوف، أو الجدب والضر»[1].

«وهنا فائدة: أثنى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كما بينّا فقال: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وأثنى أيضًا على سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، فالأوبة الرجوع إلى الله على كل حال، في السراء والضراء، في السراء بالحمد والشكر، وفي الضراء بالرضا والصبر، فأيوب ابتلاه الله بالضر، فآب إليه وصبر، وسليمان أنعم الله عليه، فآب إليه وشكر، فأثنى الله عليهما معًا بقوله: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾، وقد قال أهل العلم: «نِعْمَ من الله ليست بهينة، بل هي والله عظيمة»، والشرف والله كل الشرف أن يُثني الله عليك بمثل هذا الثناء، فلمثل هذا فليعمل العاملون.

قبل الختام: ينبغي أن يحرص المؤمن على صلاح قلبه، وأن يملأ قلبه دائمًا بتعظيم الله جَلَّ وَعَلَا، وأعظم السُّبل والطرائق إلى ذلك: تلاوة القرآن وتدبره والإكثار من الاستماع إلى آيات الله، كما، يقول الشيخ صالح المغامسي: «لا يمكن لقلب أن يصلح إلا بالقرآن، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، وإن أطيب العباد قلبًا، عبد قام في الليل واقفًا بين يدي مولاه، يتلو كلامه، ويتقرب إليه به، يرجو وعده، ويخاف وعيده، ويحبه حق محبته.

ختامًا: ينبغي أيضًا أن يُعلم كما قال أهل العلم: «إن مقصود الأوراد تزكية القلب وتطهيره، فلينظر –المؤمن– ما يراه أشد تأثيرًا فيه فليواظب عليه –من قراءة القرآن أو الذكر أو الدعاء أو التفكر أو السجود، وغيرها من العبادات والأوراد–، فإذا أحس بملل انتقل عنه إلى غيره، «فإذا وجدت قلبك أيها المبارك في القيام فلا تركع، وإذا وجدته في الركوع فلا ترفع».

اللهم أصلح قلوبنا، واملأها يا عظيم تعظيمًا لك، وحياءً منك، وإقبالًا عليك.

* * *

(١) المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمية (١/ ١٥).

الوقفة الثانية: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فيا أيها الأفاضل، إن من أعظم ثمرات تدبر القرآن العظيم أن يتيقن المؤمنون أنه يستحيل أن يستوي عند الله جَلَّوَعَلَا من آمن بالله وصدق المرسلين وعمل الصالحات، ومن كفر وجحد وأفسد في الأرض بالمعاصي والسيئات، وتأملوا أيها الكرام كيف جاء قول الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، بعد قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مباشرة: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، نعم والله لا يستوون عند الله، فأين الثرى من الثريا، وكما قيل: «متى قيس التراب بالعسْجد، أو شُبّه الحصى بالزبرجد»[1].

وقد قال ربي جَلَّوَعَلَا في موضع آخر: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]. – نعم والله ساء ما يحكمون؛ لذلك جعل الله الدار الآخرة دارًا للجزاء، ليُثاب المطيع ويُعاقب الفاجر، والعقول السليمة –أيها الأحبة– والفِطَرُ المستقيمة تعلم يقينًا أنه لابد من معاد وجزاء، فإنا نرى –أحيانًا– الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه، وقد يموت على ذلك، ولم يلقَ جزاء ظلمه، ونرى المطيع المظلوم المغلوب على أمره قد يموت بكمده، فلا بد –على ضوء ذلك– في حكمة الحكيم العليم العادل سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، الذي لا يظلم مثقال ذرّة، من إنصاف هذا من هذا، وإذا لم يقع هذا الأمر في هذه الدار الفانية، فلا بد إذًا من دار أُخرى لهذا الجزاء، ولمّا كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة –كالذي ذكرناه من الاستدلال بواقع حياة الناس على الدار الآخرة–

(١) العسجد: الذهب، وقيل: اسم جامع للجوهر كله. والزبرجد هو الزمرّد. ينظر مادتا (عسجد)، و(زبرجد) في المعاجم اللغوية كالصحاح، والقاموس.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، فخُصّ أولو الألباب بالتذكر؛ لأنهم أصحاب العقول الراجحة الذين يصلون إلى تلك المعاني، التي ذكرناها، وإلى الاستدلال باختلاف أحوال الناس على يوم المعاد والجزاء، والذين يتدبرون القرآن على الوجه الذي يرضي الله ويقرب إليه، ولا عجب والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قد قال عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]. نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم ومعهم.

وأقول أيها الأحبة: من سنن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في هذه الحياة الصراع الذي نراه ونعيشه دائمًا بين الحق والباطل، وبين المتقين والفجار، وسيبقى هذا الصراع قائمًا إلى قيام الساعة، سنة الله التي قد خلت في عباده، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، وفي هذا الصراع من الثمرات ما لا يعلمه إلا الله، من تميز الصادقين المتقين ودفاعهم عن الحق، ثم ظهور نصر الله لهم عاجلًا أو آجلًا ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أيضًا ظهور قوة الله وعزته في دحر الحق للباطل وظهوره عليه، ولولا الباطل لما ظهر الحق جليًّا واضحًا ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾.

ومن قصص المتقين وصراعهم مع الفجار: ما ورد عن رجل صالح، يُقال له سعيد بن الحداد، كان يدافع عن الإسلام، ويغضب لله، في مناظراته للفجار: وقد اشتهر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدفاعه عن القرآن والسنة، وقد ناظر يوما رافضيًّا، يدّعي العلم، ويدعو إلى دولة ذات سلطة، فتكلم ابن الحداد، ولم يخفْ سطوة سلطانهم، حتى قال له ابنه: يا أبت، اتق الله في نفسك ولا تبالغ، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حسبي من له غَضِبتُ، وعن دينه ذَبَبْتُ».

وقد قال موسى القطان –وقد عاصر ابن الحداد–: لو سمعتموه في تلك المحافل –يعني مناظرته للرافضي– وقد اجتمع له جهارة الصوت، وفخامة المنطق، وفصاحة اللسان، وصواب المعاني، لتمنيتم ألّا يسكت.

فلله دره رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأسكنه فسيح جناته.

أما الختام: قيل في بيان عدم استواء الصالح والطالح، والمتقي والفاجر:

فمن يشأ الرحمنُ يخفض بقدره ... وليس لمن لم يرفع الله رافعُ
ففوض إلى الله الأمور إذا اعترت ... وبالله، لا بالأقربين، أدافع
وداو ضمير القلب بالبر والتقى ... فلا يستوي قلبان قاس وخاشع
ولا يستوي عبدان هذا مكذب ... عتل لأرحام العشيرة قاطع
وعبد يجافي جنبه عن فراشه ... يبيت يناجي ربه وهو راكع
وللخير أهل يعرفون بهديهم ... إذا اجتمعت عند الخطوب المجامع
وللشر أهل يعرفون بشكلهم ... تشير إليهم بالفجور الأصابع

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من المتقين ومن الصالحين المصلحين، إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على نبينا محمد.

القلادة السابعة والعشرون

الوقفة الأولى: (حياة القلوب)

الحمد لله الذي جعل الحمد أول آية في كتاب رحمته، وأوّل ما يُقال عند دخول جنته، والصلاة والسلام على من فاضت قلوبنا بمحبته، من أمرنا ربنا بالتزام سنته، محمد بن عبدالله وعلى آله وأزواجه وصحابته، وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فيا أيها الكرام، إن لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من خلقه صفوةً أرادهم لقربه فأرادوه، وأحبهم فأحبوه، يعبدونه كأنهم يرونه، ويتلون كلامه كأنهم يسمعونه، لهم حال عجيبة مع كلام الله، ولا عجب فهم أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وصف القرآن الكريم حالهم حين تتلى عليهم آيات ربهم، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ [مريم: ٥٨]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال: ٢]، فأولياء الله إذا سمعوا آيات ربهم، تقشعر جلودهم، وتبكي عيونهم، وتطمئن قلوبهم، ويزدادون إيمانًا، فنسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم ومعهم، قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن تلا الآية الأولى: «هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله عَزَّوَجَلَّ بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن

قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان»[1].

ولقد أورثهم -أولياء الله- ذلك التعلق والتأثر بكتاب الله صفاء قلوبهم، وقد كانت ثمرةً جليلة لتدبرهم لكلام ربهم، فأولياء الله قلوبهم سليمة من كل شرك أو غفلة أو شبهة أو شهوة، بل هي سليمة من جميع أمراض القلوب، التي تعيق المؤمن الصادق في سيره إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كالحسد والبغضاء والكبر والرياء والعجب والتعلق بغير الله بمحبة أو توكل أو خوف أو رجاء، يقول ربنا جَلَّ وَعَلَا في بيان دعاء خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩]، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تُعطى مُناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة»[2].

ومن تأمل القرآن وتدبر آياته أيها الكرام عَلِمَ يقينًا بأن السير إلى الله سير قلوب لا سير أبدان، فإن أردت أن تكون من الأولياء السابقين، ففتش عن قلبك، وأخرج منه ما يعُوقك ويؤخرك، واسأل الله القلب السليم.

وما أجمل القلب السليم، قوي الإيمان، صادق التوكل، كبير الحب، حسن الظن، لا يظلم، لا يحقد، لا يحسد، لا يغتاب، ولا يخشى إلا الله.

فالخشية والتوكل والرجاء والخوف والحب وحسن الظن وغيرها، أعمال قلوب، لها شأن عظيم، بها يتفاوت الخلق عند الله، وبها تختلف الدرجات والمنازل.

وها هو إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، اتخذه الله خليلًا، وجعله إمامًا للناس، ووصفه بأنه أمة لوحده، وجعل كل الأنبياء من ذريته، وتأمل السبب ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤].

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٨٤).
(٢) الداء والدواء (ص: ١٨٤).

وليُعلم أيها الأحبة أن لحياة القلب وسلامته وبصيرته علامات، ولموته وعماه دلائل، وقد بين الله أنها ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

فمن حياة القلوب: الحزن على فوات الطاعة، والندم الشديد على المعصية، مع المبادرة إلى التوبة ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ومن حياة القلوب: الوجل عند سماع ذكر الله، وزيادة الإيمان بعد تلاوة القرآن ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

ومن حياة القلوب: عدم شهود مجالس الكذب، مع الإعراض عن اللغو ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

ومن حياة القلوب: الإكثار من الطاعات مع الخوف من عدم قبولها ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

ومن حياة القلوب أيضًا: تدبر القرآن والعمل به ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

ومن حياة القلوب أخيرًا: حب الصلاة والخشوع فيها وتعلق القلب بالمساجد ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]. «وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسَاجِدِ»[1].

وأقول: والذي نفسي بيده لو عدنا إلى القرآن لشفاء أمراض قلوبنا، كما نعود إلى الطبيب لعلاج أمراض أبداننا، لتبدل حالنا.

ختامًا: يجب أن يُعلم أيها الأحبة أن القرآن شفاء لما في الصدور، وأن القلوب لن تُشفى حتى تتعلق بكلام علّام الغيوب، قال الله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ وقال

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٣٣ رقم ٦٦٠)، ومسلم (٣/ ٩٣ رقم ١٠٣١).

ربنا جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧] فالقرآن يُذهب ما في القلوب من أمراض الشك والنفاق والشرك والزيغ والميل، وأمراض الشبهات والشهوات، ويشفي من ذلك كله بإذن الله، كما أن القرآن هدًى ورحمة، ينتفع به المؤمن وتحصل له بركته العظيمة إذا عمل به.

فنسأل أن يعلق قلوبنا بكتابه، وأن يشفي ما في صدورنا بكلامه، وأن يجعلنا من أوليائه، ومن أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته.

* * *

الوقفة الثانية: (يلعب به صبيان أهل المدينة)

الحمد لله الذي من توكل عليه كفاه، وأصلح أمر دينه ودنياه، والصلاة والسلام على إمام الدعاة، محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هديه واقتفى أثره، وسار على خطاه، أما بعد:

فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ. ثُمَّ قَالَ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ. ثَلَاثًا، وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا. فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ. قَالَ: إِنَّ عَدُوَّ اللهِ إِبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ، لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي، فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ. ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ التَّامَّةِ. فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ. ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ، وَاللهِ لَوْلَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَبُ بِهِ وِلْدَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ»[1]. وصدق الله جلّ في علاه: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، ودعوة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أيها الأحبة التي قصدها نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٧٢ رقم ٥٤٢).

هي قوله: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]، ومن العجب أن الشيطان يُغوي بعض بني آدم -على ضعف كيده- حتى يُوردهم جهنم، نسأل الله العافية والسلامة، وما ذاك إلا لأنه وجد ثغرة في يقينهم، فدخل عليهم منها؛ لذا ينبغي الحذر من عدو الله، والتحصن الدائم بلا إله إلا الله، وبذكره سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وطاعته وعبادته، وبصدق التوكل عليه، والإنابة بعد الذنب إليه، والانطراح بين يديه، مع سؤال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بصدق أن يجعلك من عباده الْمُخْلِصين الْمُخْلَصين، الذين ليس للشيطان عليهم سلطان؛ فإن عدو الله ﴿لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠]، وليُعلم أيها الأحبة أن التهاون في طاعة النفس والهوى والشيطان قد تُورد العبد -والعياذ بالله- المهالك، فالأمر جلل، وعذاب الآخرة لا يُطيقه أحد: وتأمل فقط شجرة في جهنم، قال ربي: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٦٢] وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤]، غُذّيت من النار ومنها خُلقت، ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]؛ لبشاعتها وكراهة منظرها، والشياطين وإن لم تُرَ، فقد استقرّ في النفوس أنها قبيحة ومروعة، ثم ذكر الله بعد هذا: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ [الصافات: ٦٦] على بشاعتها وقبحها وسوء طعمها وريحها، ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ [الصافات: ٦٧] أي: يشربون الحميم على الزقوم، أو يُمزجان، كما قال ابن عباس، نسأل الله العافية، قال سعيد بن جبير: «إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم فأكلوا منها، فاختلست جلود وجوههم، فلو أن مارًّا يمرّ بهم يعرفهم لعرف وجوههم فيها، ثم يُصب عليهم العطش، فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل، وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حرّه لحوم وجوههم، التي قد سقطت عنها الجلود، ويصهر ما في بطونهم، فيمشون تسيل أمعاؤهم، وتتساقط جلودهم، ثم يضربون بمقامع من حديد، فيسقط كل عضو حياله يدعون بالثبور»[1].

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ١٨).

رواه ابـن أبي حاتـم، ثم بيّن القـرآن الكريم، أنه وبعد هذا كلـه يعودون ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨] إلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسـعير يتوهج، فتارة في هذا، وتـارة في هـذا، -اللهـم عافنـا-، ثم جاء بيـان ما اسـتحقوا به هذا العـذاب ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩-٧٠]؛ إذْ زيّـن لهم الشـيطان اتباع آباءَهـم عـلى الضلالة والكفر بلا دليـل ولا برهان، فما آمنوا ولا صدقـوا، ولا جاهدوا أنفسهم والشيطان في ذات الله، ليتبعوا الحق الذي جاءهم من ربهم، بل اتبعوا أهواءهم وأسرعوا إلى الكفر والتكذيب، فنسـأل الله العافية والسـلامة، كما نسـأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعلنا من عباده، الذين ليس للشيطان عليهم سلطان.

وأقـول قبـل أن أختم: أخي الغالي، اسـتبشر دائـمًا بوعد الرحمـن، واحذر من وعد الشـيطان: يقـول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ أي: يُخوفكم مـن الإنفاق بالفقر، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ بالذنـوب والمعـاصي والموبقـات، فهذا وعد الشـيطان، أمّا وعـد الرحمـن فتأمل تتمة الآيـة: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ فجاء -والله أعلم- الوعـد بالمغفـرة من الله مقابل ما أمر الشـيطان من الفحشـاء والمعاصي، ثـم جاء الوعد بالفضـل مـن الله والرزق مقابل ما خوّف الشـيطان من الفقر، ثم ختـم الله الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، فعـلى قدر إيمانك بالله جَلَّوَعَلَا، وحسـن طنك به، وتصديقك بوعده تكون مجاهدتك للشيطان، ومسارعتك للرحمن، ولما يرضيه من التوبة والإنابة والإنفاق في وجوه البر والخير.

ختامًا: كتب رجل إلى أخٍ له، يقول:

الموت بـابٌ وكل الناس داخله ... فليت شِعري بعد الباب ما الدارُ!؟

فأجابه:

الدارُ جنـات عدن إن عملت بما ... يُرضي الإلـه وإن خالفت فالنارُ

همـا محلّان مـا للنـاس غيرهما ... فانظر لنفسـك مـاذا أنت تختارُ

وأصدق من ذلك وأحسن، قول ربي جَلَّ وَعَلَا، فلينصت العالم وليسمع الكون كله، نداء الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٥-٦].

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يقينا عذابه يوم يبعث عباده، وأن يُنجينا من النار، وأن يُدخلنا وإياكم ومن نحب الجنة مع الأبرار، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على نبينا محمد.

* **إشراقة**[1]: **من دعاء الجد** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«يا رب اجعل مني ذكرى طيبة بعد رحيلي، ولا تؤاخذني بسوء ما أفعل، إنك سميع الدعاء».

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

القلادة الثامنة والعشرون

الوقفة الأولى: (فتبارك وتعالى الله الملك الحق)

الحمد لله وأُصلي وأُسلم على البشير النذير، والسّراج المُنير، نبينا الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فيا أيها الكرام، روى البخاري عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]»[1]. وقد جاء في الحديث الصحيح عند البخاري وغيره، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟». نعم والله هو الملك الحق جَلَّ وَعَلَا، فإنه:

ليس مُلكٌ يزيله الموتُ مُلكًا ... إنما المُلك مُلك من لا يموت

(١) أخرجه البخاري (٦/ ١٢٦ رقم ٤٨١١)، ومسلم (٨/ ١٢٥ رقم ٢٧٨٦).

وقد روى عَنْ عُبَيْدِاللهِ بن مِقْسَمٍ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى عَبْدِاللهِ بن عُمَرَ كَيْفَ يَحْكِي رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «يَأْخُذُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ سَمَاوَاتِهِ وَأَرَضِيهِ بِيَدَيْهِ فَيَقُولُ: أَنَا اللهُ، وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا، أَنَا المَلِكُ، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى المِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى إِنِّي لَأَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ»[1].

وفي هذه الأحاديث أيها الكرام من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ وإجلاله وإقداره حق قدره الشيء العظيم.

ما أجمل ما قال الشاعر يرجو رحمة ربه، والعتق من النار، يقول وهو يُناجي ربه:

إنّ الملوك إذا شابت عبيدُهُمُ ... في رِقّهم عَتقُوهم عِتقَ أبرارِ

وأنتَ يا خالقي أولى بِذا كَرَمًا ... قد شِبتُ في الرِقّ فاعتقني من النّارِ

* * *

الوقفة الثانية: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾

الحمد لله الذي سبقت رحمته غضبه، وحلمه عقوبته، وعفوه مُؤاخذته، هو أحق من ذُكر، وأجود من سُئل، وأرأف من مَلَك، وأكرم من أعطى، والصلاة والسلام على من اصطفاه ربه وزكّاه، وجعل الخير كله في طاعة أمره واتباع هُداه، أما بعد:

فيا رب:

إذا تذكرتُ عفوًا منك ذا سعةٍ ... هانت لعفوك في عينيّ زلّاتي

(١) أخرجه مسلم (٨/ ١٢٦ رقم ٢٧٨٨).

أيها الأحبة، باب الرحمة مُشرع، وباب التوبة مفتوح، فلا يقنطن عبدٌ من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه، أو كثرت خطاياه، بل يُقبل العبد المُذنب على ربه بصدق وتوبة، وندم وأوبة، وليكن على يقين بأن الله يقبل التوبة، ويغفر الذنوب جميعًا، تأملوا قول الله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وفي موضع آخر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال جلَّ في علاه في حق المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ﴾، وقال جَلَّجَلَالُهُ في حق من قال: إن الله ثالث ثلاثة -تَبَارَكَ وَتَعَالَى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا-: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، ثم قال جلت عظمته يعرض عليهم التوبة: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى في حق من عذب أولياءه وفتن أصفياءه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ [البروج: ١٠].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة»، وقال أيضًا أكرم الأكرمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «قد دعا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيرًا ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لهؤلاء: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]، ثم دعا إلى توبته من هو أعظم قولًا من هؤلاء، من قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ

لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه»[1].

فيا رب اغفر لنا، وتُب علينا، إنك أنت التوّاب الرحيم.

قال أحد السلف وصدق والله: «إن لكم ربًّا، ليس إلى عقاب أحدكم بمسارع. يُقيل العثرة، ويَقبل التوبة، ويغفر الزلّة، يُثيب المقبل عليه، ويُشفق على المدبر عنه». (بلال بن سعيد).

ختامًا:

يا من عصيتك جاهلًا فسترتني ... وترد حين أسيء بالإحساني
كم جئت بابك تائبًا فقبلتني ... من قبل حتى أن يقول لساني
واليوم جئتك تائبًا مُستغفرًا ... نورٌ بقلبي للهُدى ناداني
عيناي لو تبكي بقية عمرها ... لاحتجت بعد العمر عمرًا ثانيْ
إن لم أكن للعفو أهلًا خالقي ... فلأنت أهل العفو والغفران
روحي لنورك يا إلهي قد هفت ... وتشققت عطشًا له أركاني
فاقبل بفضلك توبة القلب الذي ... قد جاء خوفًا من دجى الطغيان
واجعله في وجه الخطايا ثابتًا ... صلبًا قويًّا راسخ الإيمان

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ٩٧).

القلادة التاسعة والعشرون

الوقفة الأولى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾

الحمد لله الذي جعل الحمد أول آيةٍ في كتاب رحمته، وأول ما يُقال عند دخول جنته، والصلاة والسلام على من كل الهُدى والخير في لزوم ملته، واتباع سنته، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها الكرام، قال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان حال المتقين يوم القيامة: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، قال أهل العلم: «يُساقون على النجائب وفدًا، جماعة بعد جماعة، ثم قال ربنا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] أي: حتى إذا جاءوها وفتحت الأبواب تكريماً لهم وتعظيمًا، وتلقتهم الملائكة بالبشرى والسلام والثناء، إذا كان هذا سُعدوا وطابوا وُسرّوا وفَرحوا، بقدر لا يعبر عنه الوصف، فهي السعادة الأبدية في ما هم فيه من النعيم المقيم، وحُذِفَ الجواب ههنا ليذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل.

وقد ورد عند مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال: «كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَةُ الإِبِلِ، فَجَاءَتْ نَوْبَتِي فَرَوَّحْتُهَا بِعَشِيٍّ، فَأَدْرَكْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَائِمًا يُحَدِّثُ النَّاسَ، فَأَدْرَكْتُ مِنْ قَوْلِهِ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، قَالَ: فَقُلْتُ: مَا أَجْوَدَ هَذِهِ، فَإِذَا قَائِلٌ بَيْنَ

يَـدَيَّ يَقُـولُ: الَّتِي قَبْلَهَا أَجْوَدُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا عُمَرُ، قَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ جِئْتَ آنِفًا، قَالَ: مَا مِنْكُـمْ مِـنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ -أَوْ فَيُسْـبِغ- الوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْـهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عبدالله وَرَسُـولُهُ. إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَـاءَ»[1].

نسأل الله من فضله، وفي سعة أبواب الجنة، بيّن النبي ﷺ في صحيح مسلم أيضًا: «.. أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ، مَسِـيرَةُ أَرْبَعِينَ سَـنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيـظٌ مِنَ الزِّحَـامِ...»[2]. قـال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، ووالله إن المحـروم حقًّـا أيها الأحبة من حَرَمَتـه ذنوبـه، وحالت بينه وبـين أن يكون ممن يزاحمـون على أبواب الجنـة، فاللهم قنا عذاب النار، وأدخلنا الجنة مع الأبرار، يا عزيز يا رحيم يا غفّار.

فـإذا دخـل أهل الجنة الجنة، فلا تسـل عن سرورهم ونعيمهـم، يقول الله في بعض ذلك النعيـم: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسـان: ٢١-٢٢] في الآيتـين دلالـة على النعيم القـولي والفعلي والظاهري والباطنـي، أمّـا الظاهري: فحُلوا أسـاور من فضة، وأمّا الباطني: وسـقاهم ربهم شرابًا طهورًا، وهما الأساور مع الشراب نعيم فعلي، وأما النعيم القولي: فسماعهم لقول ربهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ فنسأل الله من فضله.

ومن نعيمهم ما قال رسولنا ﷺ كما جاء في الصحيحين عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَـيْنَ أَنْ يَنْظُـرُوا إِلَى رَبِّهِـمْ، إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّـةِ عَدْنٍ»[3]. وفي الحديث الآخـر في الصحيحـين أيضًا عَنِ النَّبِـيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلْمُؤْمِـنِ فِي الجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٤٤ رقم ٢٣٤).
(٢) أخرجه مسلم (٨/ ٢١٥ رقم ٢٩٦٧).
(٣) أخرجه مسلم (١/ ١١٢ رقم ١٨٠).

لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ، فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[1].

هذا وإن أعظم النعيم على الإطلاق ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «وليس في نعيم أهل الجنة أعلى من رؤيتهم وجهَ الله محبوبهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عيانًا وسماع كلامه منه»[2].

فاللهم إنا نسألك برحمتك وكرمك ومنّك وعفوك لذة النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك، في غير ضرّاء مضلة، ولا فتنة مضلة.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

الوقفة الثانية: (أحب أهل الأرض إلى الله)

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، أما بعد:

فيقول ربنا عَزَّوَجَلَّ في آية عظيمة: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، أي: لا أحد أحسن ممن دعا عباد الله إلى الله، وهو في نفسه مهتد، يسير على الطريق المستقيم، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعدٍّ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويقترفونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

قال الحسن البصري بعد أن تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]: «هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته، ودعا

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١١٧ رقم ٣٢٤٣)، وأخرجه مسلم (٨/ ١٤٨ رقم ٢٨٣٨).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٨٦).

الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته، وقال: إنني من المسلمين، هذا خليفة الله».

وتأمل كيف كان الهدهد الذي خلّد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ذكره في القرآن، داعيًا إلى الخير، دعا إلى عبادة الله وحده، فكان الجزاء والثواب أن رفع الله قدره، وأعلى منزلته، فذكره في كتابه، وخلد دعوته، ثم حرم قتله على لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ: النَّمْلَةُ، وَالنَّحْلَةُ، وَالهُدْهُدُ، وَالصُّرَدُ»[1]. فإن أردت الرفعة والمنزلة العالية في الدنيا والآخرة، فكن معلمًا للخير، داعيًا إلى الله، فتلك وظيفة الأنبياء وأتباعهم، واحرص على الاتصاف بصفات الدعاة إلى الله جَلَّ وَعَلَا، فبعد أن ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أنْ لا أحد أحسن ممن اهتدى في نفسه، ودعا غيره إلى الله، وعمل الصالحات، وقال: إنني من المسلمين، قال الله عَزَّوَجَلَّ بعدها –في إشارة إلى أن الموصوفين بتلك الأوصاف، هم أولى الناس بالعفو عن الإساءة وبمقابلة السيئة بالإحسان –والله أعلم–: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه»[2]، ثم قال ربنا: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: إذا أحسنت إلى من أساء إليك، قادته تلك الحسنة إلى مصافاتك ومحبتك، كأنه ولي لك حميم، فتنقلب عداوته صداقة، وبغضه محبة، فيشفق عليك، ويحسن إليك، ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: لا يقبل هذه الوصية، ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإن ذلك شاق على النفوس ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة. أخرج البخاري عن

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٥٣٨ رقم ٥٢٦٧)، وابن ماجه (٤/ ٣٧٧ رقم ٣٢٢٤). وقد صححه الألباني. ينظر: إرواء الغليل (٨/ ١٤٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٦٥).

ابـن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسـير هذه الآيـة، أنه قال: «الصَّـبْرُ عِنْـدَ الغَضَبِ، وَالعَفْـوُ عِنْدَ الإِسَاءَةِ، فَإِذَا فَعَلُوهُ عَصَمَهُمُ اللهُ، وَخَضَعَ لَهُمْ عَدُوُّهُمْ ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾»[1].

إذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها، فهي لا تحصل إلا بالعلـم، الـذي يدعو به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السـعي، ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام، والله يؤتي فضله من يشاء[2].

فإن نهاية سعادة العبد الذي لا سعادة له دونها، ولا حياة له إلا بها، أن تكون إرادته (همتـه) متعلقة بالمراد الذي لا يبلى ولا يفوت، وعزمات همته مسـافرة إلى الحي الذي لا يموت، ولا سـبيل له إلى هذا المطلب الأسـنى، والحـظ الأوفى، إلا بالعلم الموروث عن الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا كان للعبد همة ترقيه، وعلم يبصره ويهديه، وصل إلى مراتب السعادة والفلاح، فإنما تفوت العبد تلك المراتب العُليا من هاتين الجهتين، أو من إحداهما.

* **إشراقة**[3]:

«كل الخلائـق صائـرة إلى الفنـاء، ولكن القلـة منها قادرة على تـرك آثارها واضحة صامدة».

ختامًا: أيها الكرام «لله در أقوام عملوا في الدنيا فأصابوا، وسمعوا منادى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾ فأجابوا، وحضروا مشاهد التقى فما غابوا، وقصدوا باب مولاهم فما رُدوا ولا خابوا».

(١) أخرجه البخاري (٦/ ١٢٧ رقم ٤٨١٦).
(٢) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، (ص: ٥٢).
(٣) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

أرادهم الله لقربه فأرادوه، وأحبهم فأحبوه، يعبدونه كأنهم يرونه، ويتلون كلامه كأنهم يسمعونه، دعوا إليه على بصيرة، فنالوا شرف أن يكونوا من أتباع الحبيب ﷺ ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾، فنسأل الله أن يجعلنا منهم ومعهم.

القلادة الثلاثون

الوقفة الأولى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾

«الحمد لله الغني، الذي يشكر عبده على الطاعة، وهو الذي وفقه إليها، والحمد لله القوي، الذي يحلم على عبده عند المعصية، وهو القادر على أن يُعذبه عليها، أحمده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها الكرام: سأل رجل رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بصوت جهوري، وهو في بعض أسفاره، فناداه: «يا محمد»، فقال له رسولنا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ نحوًا من صوته: «هاؤم»، فقال له: «متى الساعة؟»، فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «ويحك إنها كائنة فما أعددت لها؟»، فقال: «حب الله ورسوله»، فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «أنت مع من أحببت»، ولقد رُوي معنى هذا الحديث من طرق تبلغ درجة التواتر في الصحاح والحسان والسنن والمسانيد، وما ذكرناه بعض ألفاظه. وجاء في الحديث عند مسلم: «المرء مع من أحب»، وفي الحديث لم يجبه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها؛ لذا قال الله في وصف المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨] أي: خائفون وجلون من وقوعها، فيدفعهم هذا الخوف والإشفاق من جهة، وحب الله ورسوله من جهة أخرى، إلى العمل والاتباع والطاعة والاستعداد لها بالأقوال والأعمال الصالحة،

وإلا فما قيمة الحب بلا طاعة واتباع، قال ربي جَلَّوَعَلَا آمرًا نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يخاطب أهل الإيمان: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقد قال الشاعر:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمري في القياس بديعُ
لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيعُ

اللهم إن ملء قلوبنا يقين أنه لا سبيل إلى نيل كرامتك إلا بطاعتك، ولا سبيل إلى طاعتك إلا بتوفيقك ومعونتك، فأعنا يا مولانا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، واملأ قلوبنا حبًّا وحياء وإيمانًا وطاعة.

يُروى أن رجلًا من أذربيجان دخل على عمر بن عبدالعزيز، فقال له: «يا أمير المؤمنين، اذكُر بمقامي هذا مقامًا لا يشغل الله عنك فيه كثرة من تخاصم إليه من الخلائق يوم تلقاه بلا ثقة من العمل، ولا براءة من الذنب»، فبكى عمر بكاءً شديدًا، وقال له: ويحك! اردد عليَّ كلامك، فجعل يردده، وعمر يبكي وينتحب، ثم قضى حاجته.

ويُروى أن عاملًا لعمر بن عبدالعزيز شكا إليه، فكتب إليه عمر: «يا أخي أذكِّرُك طُولَ سَهرِ أهل النار في النار مع خلود الأبد، وإياك أن يُنْصَرَفَ بك من عند الله، فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء»، فلما قرأ العامل الكتاب، طوى البلاد حتى قدم على عمر، فقال له: ما أقدمك؟ قال: «خَلَعْتَ قلبي بكتابك، لا أعود إلى ولاية أبدًا حتى ألقى الله تَبَارَكَوَتَعَالَى».

وفي القصتين دلالة على عظم شأن اليوم الآخر في قلوب أولئك الصالحين.

أما الختام، فأبيات أقولها لنفسي، ولمن أُحب:

أيا ساهيًا في غمرة الجهل والهوى ... صريع الأماني عن قليلٍ ستندمُ
أفِق قد دنا الوقتُ الذي ليس بعده ... سوى جنةٍ أو حرّ نارٍ تضرَّم
وبالسنة الغرّاء كن متمسكًا ... هي العروة الوثقى التي ليس تُفصمُ
وخذ من تُقى الرحمن أسبغَ جُنّةٍ ... ليومٍ به تبدو عِيانًا جهنمُ
ويُنصبُ ذاك الجسر من فوق متنها ... فهاوٍ، ومخدوشٌ، وناجٍ مُسَلَّمُ

(ابن القيم).

فاللهم سلم سلم، وقنا برحمتك عذاب النار، وأدخلنا الجنة مع الأبرار، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

* * *

الوقفة الثانية: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾

الحمد لله عددَ ما عصم أولياءه من الخطأ والزلل والذنوب، والحمد لله عدد ما أذنب مؤمن، ثم تاب الله عليه ليتوب، والصلاة والسلام على من غمرت محبته القلوب، وأضاءت بنور هديه الدروب، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان ما أشرقت شمسٌ ومالت للغروب، أما بعد:

فيقول ربنا عَزَّوَجَلَّ بعد أن ذكر إغراق فرعون وقومه في اليم بسبب كفرهم وعنادهم، وكيف أنهم تركوا خلفهم الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم، فأورثها الله قومًا آخرين، قال: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩]، والمعنى أيها الكرام -والله أعلم- أي: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء، فتبكي على فقدهم، ولا لهم في جنبات الأرض بقاع عبدوا الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ فيها، فتحزن على فراقهم،

وفي تفسير الآية يروي ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن رجلًا أتى ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فقال: يا ابن العباس أرأيت قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩] فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ «نعم إنه ليس أحد من الخلائق، إلا وله باب في السماء، منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله، وينزل منه رزقه، ففقده، بكى عليه، وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها، ويذكر الله عَزَّوَجَلَّ فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله عَزَّوَجَلَّ منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض». انتهى كلامه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

وأقول أيها المبارك: يا تُرى هل ستبكي عليَّ وعليك السماء والأرض بعد فراقنا للدنيا؟ اللهم أحسن ختامنا، واجعلنا من الصالحين المصلحين، وارزقنا حُسن الوفادة عليك.

فإن أردنا أيها الكرام أن نكون من الصالحين، الذين تبكي عليهم السماء والأرض، فلنستمع لأحوالهم في الدنيا والآخرة، لعلنا نتشبه بهم:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكرام فلاحُ

أما في الدنيا فيقول الله جَلَّ جَلَالُهُ عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

بينت الآيات صفات جليلة وصف الله بها عباده الصالحين في الدنيا، من أهمها: خشية ربهم جَلَّ وَعَلَا، وإيمانهم بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مع طهارة قلوبهم من الشرك بجميع صوره، وأيضًا أنهم مع إحسانهم وإيمانهم، يعملون العمل الصالح، وهم خائفون وجلون، ألّا

يتقبل الله منهم، لعلمهم أنهم قد قصروا في العمل، وأن عملهم وإن أتقنوه فذلك فضل من الله عليهم، ومهما كَمُل عملهم يدركون أيضًا يقينًا أنه لا يليق أن يُعرض على ملك الملوك جَلَّجَلَالُهُ، وهذا من أعلى مراتب الإيمان، فالمؤمن إذا عرف ربه حق المعرفة وعرف قدر نفسه، وجد مثل ذلك في قلبه، وقد جاء في الحديث: أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَلَّا تُقْبَلَ مِنْهُمْ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾»[1].

لذا قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن المؤمن جمع إحسانًا وشفقة، وإن الكافر جمع إساءة وأمنًا». رواه الطبري.

فهذا حالهم أيها الأحبة في الدنيا، كانوا ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ من الأعمال الصالحة ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾، يخشون ألّا يتقبل الله منهم؛ لأنهم يحفظون قول ربهم: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. أمّا حالهم في الآخرة، فقد حكاه الله عنهم، وهم في وسط الجنة: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٦-٢٨]، يتذاكرون حالهم في الدنيا، وكيف أن الله منّ عليهم ووقاهم عذاب النار؛ لذا قال أهل العلم -والله أعلم-: من خاف في الدنيا وأصلح فيها العمل، أمن هناك في الآخرة، ومن أمن العذاب وأفسد هنا، خاف هناك، فنسأل الله البر الرحيم: أن يمن علينا، وأن يقينا عذاب السموم، وأن يُلحقنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بركب الصالحين في الدنيا والآخرة، فإنه لا حول ولا قوة لنا إلا به، وهو جَلَّجَلَالُهُ بكل جميل كفيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٣٦ رقم ٣١٧٥)، وابن ماجه (٥/ ٢٨٧ رقم ٤١٩٨).

القلادة الحادية والثلاثون

الوقفة الأولى: (حرث الدنيا وحرث الآخرة)

الحمد لله الذي نصب من كل كائن على وحدانيته برهانًا، وتصرّف في خلقه كما شاء عزًّا وسلطانًا، اختار المتقين فوهب لهم بنعمته أمنًا وإيمانًا، وعمّ المذنبين النادمين برحمته عفوًا وصفحًا وغفرانًا، فستر عوراتهم وآمن روعاتهم، ولم يقطع أرزاقهم جودًا وامتنانًا، والصلاة والسلام على من أرسله ربنا رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها الكرام، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠]، أي: نقويه ونعينه ونكثر نماءه ونضاعف له، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله، ثم قال ربي: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠] أي: ومن كان سعيه للدنيا فقط، وليس له هم في الآخرة، فصفقته خاسرة في الدنيا والآخرة، إن شاء ربنا أعطاه من الدنيا، وإن لم يشأ لم يحصل له لا هذه ولا هذه، فهذه الآية هنا مقيدة، فقد بيّن الله أن عطاء الدنيا لمن أرادها فقط مقيد بمشيئته، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ۝٢٠ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٨-٢١]؛ لذا أيها الأحبة يجب أن يستقر في القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة، ولن تصلح إلا إذا ارتبطت بها، فمن عاش فيها -أي: في الدنيا- وهمّه الآخرة أتته وهي راغمة، كما جاء في الحديث: «مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»[1]، ومن عاش فيها وعمل لها فقط أو عمل عمل الآخرة ابتغاء الدنيا، خسر الدارين، قال نبينا ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: «بَشِّرْ هَذِهِ الأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ، وَالدِّينِ وَالنَّصْرِ، وَالتَّمْكِينِ فِي الأَرْضِ»، وَهُوَ يَشُكُّ فِي السَّادِسَةِ، قَالَ: «فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ نَصِيبٌ»[2].

فيا من أراد الدنيا أعلم أن الدنيا والآخرة بيد الله ولن ينالهما معًا أحد إلا بطاعته، قال ربي جَلَّوَعَلَا: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٤].

وقد دلنا القرآن وعلمنا نبينا ﷺ أن نقول في دعائنا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وهنا فائدة جميلة ذكرها بعض أهل العلم:

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في نعيم الجنة ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾، وجاء عن جهنم قولها: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ لنتأمل الفرق في الآيتين فكأنهما يعبران عن أهلهما فأهل الجنة دائمًا لديهم المزيد

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٢٥٢ رقم ٢٤٦٥). وقد حسنه الألباني. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٦٣٣).
(٢) أخرجه أحمد (٩/ ٤٩٣٩ رقم ٢١٦١١)، (٩/ ٤٩٤١ رقم ٢١٦١٤). وقد حسنه محققو المسند. ينظر: مسند الإمام أحمد (٣٥/ ١٤٦).

لينفقوه في سبيل الله، ويتقربون إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنواع الأعمال، أما أهل النار في الدنيا -عافانا الله- فكأنهم يقولون هل من مزيد من الشهوات، ومن حطام الدنيا، ولا يشبعون منها، نسأل الله العافية، يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] أيّ حياة، وإن كانت ذليلة، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾، نسأل الله السلامة.

ختامًا: مرّ ابن المبارك براهب وبجانبه مقبرة ومزبلة، فقال له: «يا راهب هذا كنز الرجال وهذا كنز الأموال، وفيهما معتبر»، وصدق والله.

وقال يحيى بن معاذ: «في اكتساب الدنيا والمبالغة في الحرص عليها ذل النفوس، وفي اكتساب الآخرة وجعلها أكبر الهم عز النفوس، فيا عجبًا لمن يختار المذلة في طلب المتاع الفاني، ويترك العز في طلب النعيم الباقي».

فاللهم أعزنا بطاعتك، ولا تُهنّا بما كسبت أيدينا من الذنوب والمعاصي، وآتنا برحمتك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النار.

* * *

الوقفة الثانية: (الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة)

الحمد لله الذي علّمنا وهدانا، وكفانا وآوانا، ومن كل بلاء حسن أبلانا، والصلاة والسلام على من حُبه قوت القلوب، واتباع هديه نور الدروب، أما بعد:

فيقول ربنا جَلَّجَلَالُهُ في سورة الزخرف: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥] وتفسير الآية كما قال أهل العلم،

أي: لـولا أن يعتقـد كثـير مـن النـاس الجهلـة أن إعطاءنـا المـال دليل عـلى محبتنا لمـن أعطيناه فيجتمعـوا عـلى الكفـر لأجـل المـال، وهـذا معنـى قـول ابـن عبـاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا والحسـن وقتادة والسـدي وغيرهـم في الآيـة: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥] أي: لجعلنـا لمـن يكفـر بالرحمن من الزينـة في الحياة الدنيـا الشيء الكثـير، وما ذلك إلا لهـوان الدنيا عنـد الله، فذكـر الله السـلالم والمعـارج التـي عليهـا يصعـدون، والسـرر التـي عليهـا يتكئـون، كل ذلـك مـن فضـة، ثـم ذكـر مـا فـوق ذلـك ﴿وَزُخْرُفًا﴾ أي: وذهبـا أيضًـا، ثـم قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥]، أي: إنـما ذلك مـن متاع الدنيا الفانيـة الزائلة الحقيرة عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، أمـا الآخرة فهي خاصة لعباده المتقين، فيعجل الله لهؤلاء الكفار بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا المآكل والمشارب والزينة، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حسنة يجزيهم بها، كما ورد بذلك الحديث الصحيح: «إِنَّ الكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً، أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الآخِرَةِ، وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ»(١).

وقـد بـيّن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هـوان الدنيـا عنـد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في حديـث آخـر، فقـال: «لَـوْ كَانَـتِ الدُّنْيَـا تَعْـدِلُ عِنْـدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَـةٍ مَا سَـقَى كَافِرًا مِنْهَـا شَرْبَةَ مَـاءٍ»(٢)، وقال أيضًـا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبينًـا قدر الدنيا: «.. وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِـرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ...»(٣).

(١) أخرجه مسلم (٨/ ١٣٥ رقم ٢٨٠٨).
(٢) أخرجـه الترمـذي (٤/ ١٥٠ رقم ٢٣٢٠)، وابـن ماجه (٥/ ٢٣٠ رقم ٤١١٠). وقـد صححه الألباني. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ٦٢٣).
(٣) أخرجه مسلم (٨/ ١٥٦ رقم ٢٨٥٨).

ولما رأى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الحصير قد أثر في جنب الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذرفت عيناه وقال: «يا رسول الله هذا كسرى وقيصر فيما هم فيه، وأنت صفوة الله من خلقه»، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متكئًا فجلس، وقال: «أوَفي شك أنت يا ابن الخطاب؟»، ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أولئك قوم عُجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»، وفي رواية أخرى: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة». ولتعلم أنه لا مقارنة بين الدارين، تأمل ما بينه الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه بعد أن صلى بهم صلاة الكسوف أو الخسوف، وسألوه عن بعض ما جرى في صلاته، فذكر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه رأى الجنة، وأنه أراد أن يأخذ منها عنقودًا ليريهم إياه، ثم قال -وتأمل-: «ولو أتيت به لأكلتم منه ما بقيت الدنيا».

- **قبل الختام**: جاء في سير أعلام النبلاء للذهبي، أن إمامًا زاهدًا يُقال له: ابن بندار، دخل على ملك من الملوك بهيئة رثة، وقد تكلم في ابن بندار هذا أحد وزراء الملك، فأراد الملك أن يستعلم ويستفسر الأمر من ابن بندار، فقال له الملك: ما الخبر؟ فقال ابن بندار: «تسألني عن خبر الأرض أو خبر السماء؟! إن كنت تسألني عن خبر السماء ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، وإن كنت تسألني عن خبر الأرض ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]»، فتعجب الملك من كلامه، وأكرمه، وعرض عليه مالًا فلم يقبله.

وقد قال أحد السلف وصدق: «ما مضى من الدنيا حلم، وما بقي منها أمانيّ».

ويقول بلال بن سعد: «يا أهل التقى إنكم لم تخلقوا للفناء وإنما تنقلون من دار إلى دار، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الخلود في جنة أو نار». اللهم اجعلنا وأهلينا، ومن نحب من أهل الجنة.

أما الختام: «فلله در أقوام -كما قال ابن الجوزي- تركوا الدنيا فأصابوا، وسمعوا منادِيَ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا﴾ فأجابوا، وحضروا مشاهد التقى فما غابوا، وقصدوا باب مولاهم فما رُدّوا ولا خابوا».

نسأل الله أن يجعلنا منهم ومعهم برحمته، وهو أرحم الراحمين.

* **إشراقة**[1]:

«لا تنزعج من سطوة الباطل، وإن كثر أعوانه، فهو ذليل أمام الحق وإن كان وحده».

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

القلادة الثانية والثلاثون

الوقفة الأولى: آداب قرآنية

الحمد لله الذي لا تغيض ينابيع فضله، ولا تضطرب موازين عدله، أحمده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حمدًا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، نبينا الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها الأفاضل، أدّب القرآن الكريم المؤمنين في آيتين عظيمتين بآداب جليلة، ونهاهم عن أمور، في اجتنابها عزهم وكرامتهم، بل وخيريتهم، التي ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وتلك الآيتين في سورة الحجرات قرر القرآن فيها إخوة الإيمان وبيّنها، ثم نهى المؤمنين الصادقين عن السخرية ببعض البعض وعن الاحتقار والاستهزاء، وعن الطعن واللمز والهمز وعن التنابز بالألقاب، ونهاهم أيضًا عن ظن السوء وعن التجسس والغيبة، يقول ربنا جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١١-١٢]. وقد ثبت في الصحيح النهي عن احتقار الناس،

قال رسولنا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «.. الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»[1]، وإحسان الظن دائمًا بأخيك المؤمن نعيم وسعادة وراحة، قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرًا، وأنت تجد لها في الخير محملًا»، وقال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا»[2]، وقال نبينا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أيضًا: «.. المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَا هُنَا. وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ، كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»[3].

وقال ابن كثير: «جاء ماعز إلى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله إني قد زنيت، فأعرض عنه حتى قالها أربعًا، فلما كان في الخامسة، قال: زنيت، قال: نعم. قال: وتدري ما الزنا؟ قال: نعم أتيت منها حرامًا ما يأتي الرجل من امرأته حلالًا. قال: ما تريد إلى هذا القول؟ قال: أريد أن تطهرني. قال: فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أدخلت ذلك منك في ذلك منها، كما يغيب الميل في المكحلة، والرشا في البئر؟ قال: نعم يا رسول الله. قال: فأمر برجمه، فرجم، فسمع النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه، فلم تدعه نفسه حتى رُجِمَ رَجْم الكلب؟ ثم سار النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتى مر بجيفة حمار فقال: «أين فلان وفلان؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار»، قالا: غفر الله لك يا رسول الله وهل يؤكل هذا؟ قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «فما نلتما من أخيكما آنفًا أشد أكلًا منه، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها»[4]. وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبدالله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

(١) أخرجه مسلم (١/ ٦٥ رقم ٩١).
(٢) أخرجه البخاري (٧/ ١٩ رقم ٥١٤٣)، ومسلم (٨/ ١٠ رقم ٢٥٦٣).
(٣) أخرجه مسلم (٨/ ١٠ رقم ٢٥٦٤).
(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٥٨).

فَارْتَفَعَتْ رِيحُ جِيفَةٍ مُنْتِنَةٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَدْرُونَ مَا هَذِهِ الرِّيحُ؟ هَذِهِ رِيحُ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ الْمُؤْمِنِينَ»(١). نسأل الله العافية والسلامة.

لذا -أيها الأفاضل- ما أحوج الأمة إلى العودة إلى الأُخوة الإيمانية الصادقة، التي قررها القرآن والسنة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبينًا هذا المعنى العظيم: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢). وفي الصحيح: «... وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ...»(٣)، وورد أيضًا: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ: وَلَكَ بِمِثْلٍ»(٤). وفي مسلم: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»(٥). وعند البخاري: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا. وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ»(٦). وصدق من قال: «من سار في الناس جابرًا للخواطر، أدركته رحمة الله، ولو كان في جوف المخاطر».

ختامًا: وبعد هذا الأدب القرآني العظيم، ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قبل ختام السورة الجليلة: أن الناس سواءٌ، وإنما يتفاضلون بطاعة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ومتابعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى بعد النهي عن الغيبة واحتقار الناس، مبينًا المقياس الحقيقي في التفاضل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣١١٩ رقم ١٥٠١٢). وقد حسنه الألباني. ينظر: غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام (ص: ٢٤٥).
(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٢٨ رقم ٢٤٤٢)، ومسلم (٨/ ١٨ رقم ٢٥٨٠).
(٣) أخرجه مسلم (٨/ ٧١ رقم ٢٦٩٩).
(٤) أخرجه مسلم (٨/ ٨٦ رقم ٢٧٣٢).
(٥) أخرجه مسلم (٨/ ٢٠ رقم ٢٥٨٦).
(٦) أخرجه البخاري (١/ ١٠٣ رقم ٤٨١)، مسلم (٨/ ٢٠ رقم ٢٥٨٥).

﴿ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ لذا فليُعلم أن التفاضل عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يكون بالتقوى وبالعمل ليوم الحساب، لا بالتفاخر بالمال والجاه والأحساب والأنساب. وقد قيل:

عليك بتقوى الله في كل حالة ... ولا تترك التقوى اتكالًا على النسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارسٍ ... وقد وضع الكفر النسيب أبا لهب

* * *

الوقفة الثانية: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد: فيا أيها الأفاضل بعد أن أرشد ربنا جَلَّ وَعَلَا -في سورة «محمد» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- المؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين المحاربين، فجاء الأمر بضرب الرقاب وشد الوثاق، ثم المن بعد أو الفداء حتى تضع الحرب أوزارها، قال ربنا عَزَّوَجَلَّ بعدها مباشرة في نفس الآية: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي: -على الرغم مما تقدم من الأمر بقتالهم- لو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده بلا قتال ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾، فذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحكمة هنا، وهي الاختبار والامتحان، ليتبين المجاهدون ويظهر الصابرون، وليمحص الله المؤمنين ويمحق الكافرين، وليتخذ ربنا من خلقه شهداء ليكرمهم، ويعذب الكافرين على أيدي أوليائه وخيرة عباده، قال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة آل عمران: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة براءة: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤-١٥].

ثم لمّا كان من شأن القتال أن يُقتل كثير من المؤمنين، قال ربنا جَلَّجَلَالُهُ بعد أن ذكر الحكمة من القتال: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، بل سيكثرها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وينميها ويضاعفها، ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أي: إلى الجنة ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ أمرهم وحالهم ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٦] أي: عرفهم بها وهداهم إليها، قال مجاهد: «يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون، كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحدًا»، كما قال نبينا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في آخر الحديث الصحيح عند البخاري: «... فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»[1]، ثم جاءت الآيات بوعد الله وبالنصر والتمكين لمن صدق مع ربه ونصر دينه، فالجزاء من جنس العمل، و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

قال ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعدها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. وهنا والله يجب أن تقف الأمة وأن تتدبر هذه الآية العظيمة حق التدبر، فهل نصرنا دين الله وسنة نبيه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في كل مجال؟ هل أطعنا الله ورسوله وحكمنا الكتاب والسنة على أنفسنا وأهلينا وإخواننا وأحبابنا وفي كل شؤوننا وأحوالنا؟ هل حقًّا نستحق النصر؟ أم أن الأمر مجرد أماني لا تصدقها الأفعال والأقوال، فوالله إنا لنعجب أشد العجب من أمة بين أيديها الحق، ثم لا تعمل به، أو تتخاذل في الدفاع عنه. وصدق والله القائل:

بأيديهما نوران: وحيٌ وسنة ... فما بالهم في حالك الظلماتِ

اللهم ردنا والأمة إليك ردًّا جميلًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ١١١ رقم ٦٥٣٥).

* **إشراقة[1]: خطوة واحدة:**

الأقوال وحدها لا تبني كوخًا يقي شمس النهار، أو برد الليل، ولكن «خطوة واحدة» نحو ترجمة تلك الأقوال إلى عمل هي «بداية الانتصار»، انتصار الإنسان على نفسه، وعلى تردده ولولا الإقدام على الأعمال لما قامت دول، ولا سُطرت الانتصارات على جبين التاريخ.

ختامًا: علمنا ربنا جَلَّ وَعَلَا أن ندعو بهذه الدعوة العظيمة: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٤-٥] أي: لا تُظهر الكفار يا ربِّ علينا، فيرون حالنا على الضعف والهزيمة والنزاع فيُفتنون بنا، ويصدهم ذلك عن الإسلام، ويقولون: لو أن هذا هو الدين الصحيح لما كان حال هؤلاء كما نرى، وجاء ختام الآيات بالاسمين العظيمين: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، على الرغم من أن قبلها طلبٌ للمغفرة، لما في الاسمين من القوة والعزة، فالله قادر على أن ينصرنا على أعدائنا في كل مجال وفي كل شأن، فهو: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. والله أعلم.

فنسأل الله أن يكشف الغُمة عن هذه الأمة، وأن ينصرها على أعدائها نصرًا مؤزرًا.

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

القلادة الثالثة والثلاثون

الوقفة الأولى: (الأدب مع النبي ﷺ).

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجا، الحمد لله فاطر السماوات والأرض، جاعل الملائكة رسلًا، الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله إيمانًا وعملًا وخُلقًا، نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ما أشرقت وأمطرت سُحبًا، أما بعد:

فأكرم به من مرسل ومعلم ... وله الشفاعة حين نُحشر في الورى
فتح الله به قلوبًا غلقت ... وأنار أبصارًا وكانت لا ترى

فداه أبي وأمي ونفسي ﷺ، أيها الأحبة لنتأمل هذه الآيات، التي أدّب الله بها عباده المؤمنين، فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام، والتبجيل والإعظام، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١].

أي لا تُسارعوا في الأشياء قبله، بل كونوا تبعًا له في جميع الأمور، وقد روى ابن جرير أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال في هذه الآية: «لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة»[1].

(١) جامع البيان (٢١/ ٣٣٥).

ثم قال ربنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات: ١-٢]، وهذا أدب ثانٍ أدّب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ به المؤمنين، وأمرهم ألّا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد خشي بعض الصحابة على نفسه بعد هذه الآية، وهذا من أدبهم وحبهم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لا يكاد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسمع صوته بعد هذه الآية، حتى يستفهمه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا ثابت بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، افتقده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كما في البخاري – بعد أن نزلت هذه الآية، فقال رجل: «يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه»، فأتاه فوجده في بيته منكسًا رأسه، فقال له: «ما شأنك؟»، فقال: «شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد حبط عمله، فهو من أهل النار»، فأتى الرجل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره أنه قال كذا وكذا»، فقال: «اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة». وأقول: هذا أدبهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، فما هو أدبنا نحن مع نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومع سيرته؟ هل نقدم عليها آراءنا؟ هل نحتكم إليها في كل شؤوننا وأمورنا؟ اللهم أحينا على سنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتوفنا على ملته، واحشرنا في زمرته.

قبل الختام: لنتأمل كيف ترجم الصالحون من السلف محبتهم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى التزام تام بسنته، لا يُنقصون ولا يزيدون، إذا أمرهم حبيبهم بأمر تسابقوا إليه، وإذا نهاهم عن شيء قطعوا السبيل إليه، صدقوا في المحبة فعاشوا السعادة، ويوم القيامة لهم الحسنى وزيادة.

«عطس رجل عند ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «الحمد لله والصلاة على رسول الله»، فقال ابن عمر –وقد كان من أشد الناس حبًّا واتباعًا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال للرجل: «ما هكذا علمنا رسول الله، علمنا أن نقول فقط: الحمد لله». فهذا والله هو الحب والطاعة والاتباع، دون زيادة أو نقصان.

«وجاء رجل للإمام مالك فقال: إني أريد أن أحرم من مسجد رسول الله بدلًا من الميقات، فقال الإمام مالك: لا تفعل، فإني أخشى عليك الفتنة، فقال: أي فتنة؟ إنما هي أميال زدتها! فقال الإمام: وأي فتنة أعظم من أن تعتقد أنك هُديت إلى شيء في الدين لم يخبرنا به نبينا ﷺ».

الله أكبر، وكأن والله هؤلاء الأئمة هم الذين قصدهم النبي ﷺ بقوله: «مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا، نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ»[1]. نسأل الله أن يجعلنا منهم ومعهم.

ختامًا:

فما سعدت بغير هداك نفس ... ولو ملكت كنوز العالمينا

وفي أبيات أخرى يقول شاعر محب، -وأقول: وما قيمة الشعر إن لم يسطر في مدح خير البشر ﷺ - يقول:

بَلغتَ من الأخلاق غاية حُسنِها ... العفوُ والتكريمُ والإيثارُ
الحكم شورى والسياسة رحمةٌ ... والعدل شرع والأمان قرار
وزرعت في الأرض السلام فأينعت ... من طيب زرعك في الشعوب ثمارُ
صلى عليك الله في قرآنه ... والطيبون السُّجّدُ الأبرارُ
يزداد من مُدحوا بشعرٍ رِفعةً ... وبمدحكم تتقدس الأشعارُ

* * *

(١) أخرجه مسلم (٧/ ٩٦ رقم ٢٣٦٤).

الوقفة الثانية: (أرجو وأخاف).

الحمد لله الذي جعل الحمد أول آية في كتاب رحمته، وأول ما يُقال عند دخول جنته، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها الكرام، قال ربنا عَزَّوَجَلَّ في وصف الجنة -دار المتقين-: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [محمد: ١٥]، فالماء لم تتغير رائحته، ولم ينتن كماء الدنيا، بل بارد عذب زلال، واللبن لم يتغير طعمه، كلبن الدنيا، بل في غاية البياض والحلاوة، والخمر ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والأثر ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧] أي: لا تُذهب العقل ولا تؤذي شاربها، والعسل في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم، ولهم مع هذا الثمرات، من جميع أنواعها وأشكالها وأصنافها وألوانها ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥]، ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ بعدها: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: فوق ذلك كله، مغفرة من ربهم تُمحى ذنوبهم، ويذهب مع ذلك قلقهم وخوفهم، فاجتمع بذلك لهم النعيم بجميع صوره الحسية والمعنوية، فنسأل الله العظيم من فضله، ولمّا كان هذا مقام الرجاء والترغيب، جاء بعده في ختام الآية مقام الترهيب، كما هي عادة القرآن، ليعتدل الرجاء والخوف في القلوب؛ لذا قال ربنا عَزَّوَجَلَّ في آخر الآية، وبعد الرجاء والترغيب: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾. فنسأل الله السلامة والعافية، فالرجاء والخوف إذا اجتمعا في قلب المؤمن سار إلى ربه على صراط مستقيم، وكان ذلك أدعى لمسابقة العبد إلى الخيرات وترك المنكرات والسيئات.

ولا بد -كما قال أهل العلم- في العبادة أيها الأحبة من الخوف والرجاء مع الحب، ولا يكون الرجاء نافعًا ولا الخوف، إلا إذا اقترن بهما العمل الصالح، الذي يقرب من الله، ويدني العبد من رحمته، فرجاء بلا عمل صالح مجرد أماني كاذبة، وخوف بلا

عمل صالح قنوط ويأس، وقد ذم الله هذا وهذا، فقال ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وقال ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وقد قيل: حب الله هو المركب، والرجاء حاد، والخوف سائق. والله هو الموصل بمنه وكرمه، وقد دَخَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي المَوْتِ، فَقَالَ لَهُ: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟» قَالَ: أَرْجُو اللهَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ الَّذِي يَرْجُو، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ»[1].

قبل الختام:

يا رب أنت خلقتني وبرأتني	**جملت بالتوحيد نطق لساني**
وهديتني سبل السلام تكرمًا	**ودفعتني للحمد والشكران**
وغمرتني بالجود سيلًا غامرًا	**وأنا أُقابل ذاك بالكفران**
فلك المحامد والثناء جميعه	**والشكر من قلبي ومن وجداني**
فلأنت أهل الفضل والمن الذي	**لا يستطيع لشكره الثقلان**
أنت الكريم وباب جودك لم يزل	**للبذل تعطي سائر الأحيانِ**
أنت الحليم بنا وحلمك واسعٌ	**أنت الحليم على المسيء الجاني**
أنت الذي آويتني وحبوتني	**وهديتني من حَيرة الخِذلانِ**
ونشرتَ لي في العالمين محاسنًا	**وسترت عن أبصارهم عِصياني**
لبيك يا ربي بكل جوارحي	**لبيك من روحي ومِلء جَناني**
اجعل رجائي في ثوابك رائدي	**واقبل مُقل الجُهد في التِّبيان**

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٩/ ٣٩٠ رقم ١٠٨٣٤)، والترمذي (٢/ ٣٠١ رقم ٩٨٣)، وابن ماجه (٥/ ٣٢٨ رقم ٤٢٦١). وقد حسنه الألباني. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٤١).

ختامًا: نسأل الله أيها الأحبة النجاة من النار، وأن يُدخلنا برحمته جنته مع الصادقين والأبرار، إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكل جميل كفيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* **إشراقة**[1]:

«لا يمكن أن تكون بمنجاة عن الخطأ، ولكن المهم أن تعترف به، وتعمل على تلافيه وعدم تكراره، وكل كوارث الدنيا تكمن في إصرار المخطئين على تكرار أخطائهم».

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

القلادة الرابعة والثلاثون

الوقفة الأولى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾

الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة عبده وابن عبده وابن أمته، ومن لا غنى له طرفة عين عن فضله ورحمته، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، فصلاة ربي وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيقول الله جَلَّوَعَلَا في كتابه العزيز: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، هذه الآية أيها الأحبة من أعظم الآيات في الرد على الملحدين والمشركين وفضحهم، فهل خلقوا من العدم، أم خلقوا أنفسهم، والجواب الذي يعلمونه هم أنفسهم، ويقرون به: أنهم لم يُخلقوا من العدم، ولم يخلقوا أنفسهم، إذن الله جَلَّجَلَالُهُ هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا.

روى البخاري عن جُبير بن مطعم قال: «سمعت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقرأ في صلاة المغرب بسورة الطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧] كاد قلبي أن يطير». وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

بعد معركة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركًا، فكان سماعه لهذه الآية سببًا من الأسباب التي حملته على الدخول في الإسلام بعد ذلك، ولنتأمل هذه الآيات العظيمة، ولنتفكر في تسلسل الأسئلة، التي ذكرها الله جَلَّوَعَلَا لإثبات التوحيد وللدفاع عن نبيه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وللرد على شبه كل ملحد ومشرك.

قال ربنا جَلَّجَلَالُهُ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٢٩-٤٣]. سبحان الله عما يشركون.

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُقرر الله المعاد بذكر كمال قدرته، وخلقه للسموات والأرض، اللتين هما أكبر من خلق الناس، وبأن الذي بدأ الخلق قادرٌ على إعادته من باب أولى، وبأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى، ويذكر أيضًا أيامه في الأمم، ووقوع المثلات التي شاهدها الناس في الدنيا، وأنها نموذج من جزاء الآخرة»[1].

لذلك جاء الوعيد الشديد على من أنكر وكفر بالله واليوم الآخر بعد هذه الدلائل العظيمة، التي لا يُنكرها إلا مكابر، قال الله عَزَّوَجَلَّ عن أهوال وأحداث يوم القيامة، وما سُيقال لمنكري البعث: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٣-٣٤]، وقد ثبت

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص: ٩٤١).

في صحيح مسلم أن الله عَزَّوَجَلَّ يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي...»[1].

ولله در القائل:

فيا عجبا ممن يُضيع حياته ... على حفظ مال وهو للغير يُذْخَرُ
ومن تتوفى نفسه كل ليلة ... وترجع فيه كيف للبعث يُنكر

نسأل الله العافية والسلامة، كما نسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يزيدنا إيمانًا به، ويقينًا بلقائه، ورضًا بقضائه، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على نبينا محمد.

* * *

الوقفة الثانية: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، أما بعد:

فيا أيها الكرام، قال ربنا جَلَّجَلَالُهُ مبينًا ثواب من خاف الوقوف بين يديه، فسارع في الدنيا إلى الطاعات وترك المعاصي والمنكرات: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] ثم وصف الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الجنتين، في الآيات التي تليها في سورة الرحمن، فذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن أشجارها ذات أغصان نضرة جميلة ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٨]، وأن فيها عينين تجريان لسقي الأشجار والأغصان، فتحمل تلك الأغصان من جميع أنواع الثمر، مما لاعين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]، ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حال أهلها، وأنهم متكئون على فُرش بطائنها من إستبرق، وهو الديباج

(١) أخرجه مسلم (٨/ ٢١٦ رقم ٢٩٦٨).

المُزين بالذهب، فإذا كانت هذه البطائن فكيف بالظواهر، ويقطفون وهم على حالهم من الثمر، فهو قريبٌ دان ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، أي: حور غضيضات الطرف عن غير أزواجهن، أبكار عرب أتراب، لم يقربهن أحد ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨]، ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٥٩]، أي: فبأي نعم الله وآياته العظيمة تمترون وتكذبون، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ضمن الآيات مبينًا قاعدة قرآنية جليلة: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، أي: من أحسن العمل في الدنيا فسينال الإحسان من ربه في الآخرة، فالجزاء من جنس العمل، والله غفور رحيم كريم، وبعد هذا النعيم كله، امتن الله على عباده، فقال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، ثم ذكر ما فيهما أيضًا من الأشجار والأنهار والفواكه والنخيل والرمان، والخيرات الحسان، والسرر الجميلة والوسائد المتناثرة، والحور المقصورة في الخيام، فسبحانك ربي ما أكرمك.

ولنتأمل هذا الحديث العظيم الذي يصف لنا خيمة واحدة فقط من تلك الخيام، فكيف بالقصور والدور والغرف المبنية، قال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[1]، ولنعلم هوان الدنيا لنستمع إلى ما رواه الإمام أحمد، ورواه أيضًا البخاري بنحوه، قال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم، أو موضع قده -يعني سوطه- من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض، لملأت ما بينهما ريحًا، ولطاب ما بينهما، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها».

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١١٧ رقم ٣٢٤٣)، ومسلم (٨/ ١٤٨ رقم ٢٨٣٨).

وروى البخاري ومسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِئَةَ سَنَةٍ. وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَوْ تَغْرُبُ»[1]. ولقد رأى نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجنة في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم، ووصف ثمرها بوصف عجيب، عَنْ عَبْدِاللهِ بن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «خَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَلَّى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلُ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ؟ قَالَ: إِنِّي أُرِيتُ الجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا»[2]. نسأل الله من فضله.

فيا من أردت هذا الفضل وهذا النعيم المقيم، كن من أهل الإحسان، واعلم ولنعلم جميعًا أيها الكرام -كما قال أهل العلم- أن «الله عَزَّوَجَلَّ عدل شكور، لا يهب المعرفة والحكمة وهذا النعيم إلا إنسانًا تعوّد الإحسان في شئونه كلّها، وتمكن من ضبط نفسه، وإحكام أمره، وتسديد خطاه، ومشى على الصراط المستقيم، لا تهزمه وساوس الشر، ولا تردُّه عن غايته همزات الشياطين، يقول الله عَزَّوَجَلَّ في عبده الصالح يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

فكن محسنًا أيها المبارك في كل أحوالك في الأقوال والأفعال والنوايا، فإذا أمسيت أو أصبحت أو خرجت كن على نية صالحة، واستصحب أمرين: إنك لن تطيعه إلا بإذنه، ولن تحجم عن معصيته إلا بحوله، واعلم أن الله غني عنك وعن طاعتك، واجعل الله أجلَّ في قلبك من أن تخرج، وفي قلبك نية بعصيانه، فإن فعلت ذلك وكنت على نية صالحة، فإن الله بإذنه يحفظك من المعاصي والفتن والمهالك، وقد يكون بينك وبين الكبيرة لحظة، فيصرفك الله عنها، أو يصرفها عنك بفضله وإحسانه ورحمته، فتتداركك نعمة الله، و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٧ رقم ٢٧٩٣)، ومسلم (٨/ ١٤٤ رقم ٢٨٢٦).
(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٥٠ رقم ٧٤٨)، ومسلم (٣/ ٣٣ رقم ٩٠٧).

ختامًا: لنتأمل مثالًا جليلًا على هذه القاعدة العظيمة، تجلى في إبراهيم خليل الله عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، رآه نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث الإسراء والمعراج، متكئًا على البيت المعمور في السماء السابعة، والملائكة يطوفون حول البيت، وهذا والله شرف عظيم، فالملائكة يطوفون وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ متكئ، فكما بنى بيت الله عَزَّوَجَلَّ في الدنيا ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾، كان الجزاء ما رآه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عند البيت المعمور، وصدق الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقد أبلغ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُقرئنا السلام، وأن يخبرنا أن الجنة قيعان، وأن غراسها: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، فاغرسوا يا أهل الخير هنا لتحصدوا هناك في جنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

القلادة الخامسة والثلاثون

الوقفة الأولى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾

الحمد لله الغني، الذي يشكر عبده على الطاعة، وهو الذي وفقه إليها، والحمد لله القوي، الذي يحلم على عبده عند المعصية، وهو القادر على أن يُعذبه عليها، والصلاة والسلام على أشرف نبي وأطهر تقي، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيقول ربنا عَزَّوَجَلَّ في كتابه المجيد: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] ومعنى الآية أيها الكرام: أي لا يقع أمر في الآفاق أو في أنفسكم، إلا وهو مكتوب مقدر من قبل أن يخلق الله الخليقة ويبرأ النسمة، قال قتادة: «﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ هي السنون -يعني الجدب- ﴿وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ أي: الأوجاع والأمراض، وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود، ولا نكبة قدم، ولا خلجان عرق، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر».

ثم بيّن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الحكمة من إخبار الخلق بهذا، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣] أي: أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا للكائنات قبل وجودها، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا

تأسوا وتحزنوا على ما فاتكم؛ لأنه لو قدر شيء لكان، ولا تفرحوا بما آتاكم، وتفسير ﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: أعطاكم، أي: لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم، وإنما هو قدر الله وفضله ورزقه لكم، فلا تتخذوا نعم الله أشرًا وبطرًا؛ ولهذا قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في آخر الآية: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، أي: المختال في نفسه، الفخور على غيره، قال عكرمة: «ليس أحد إلا هو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكرًا والحزن صبرًا».

وقد قال بعض أهل العلم في هذه الآيات: قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

قال: «ليس القصد مطاردة الطبع الإنساني في إحساسه بالألم والسرور، وإنما القصد منع الاستغراق المذهل، فإن للفرحة الطاغية نشوة تُخرج عن الصواب، وللحزن الجاثم وطأة تسحق الإرادة، والمؤمن لا يتخبط بين هذه الانفعالات، فيرفعه ذلك إلى القمة، ويخفضه ذلك إلى الحضيض، بل يلوذ بالاعتدال الذي أمره به ربه، ويسيطر على أعصابه، وتلك بعض ثمرات الإيمان واليقين بالقدر».

وهنا يجب أن يُعلم أيها الأحبة أنه: «أحيانًا قد يكون الشيء الذي ساءك وضقت به ذرعًا، هو نفسه سبب نجاتك وفرحك وذهاب خوفك وحزنك، يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فلا تيأس أيها المبارك أبدًا من روح الله، وتأمل قول الله: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [العنكبوت: ٣٣]، ثم تدبر: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾، ظنهم أضيافًا عليه، فضاق بهم لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وخاف عليهم، وحمل هم حمايتهم من قومه، فكانوا رسل الله ونصره وفرجه

وسبب حمايته، هو بل نجاته وسعادته وذهاب همه وحزنه، فمن أثناء المحن تخرج المنح، وفي أعطاف البلايا تتقلب العطايا، وتأمل جبال السحب المخيفة، يخرج الله الودق من خلالها، ماءً مباركًا، ينزله الله من رحم العواصف والرعود والبروق وجبال السحاب رحمة للعباد والبلاد، فسبحان الرحيم الحكيم الكريم جَلَّ جَلَالُهُ.

وقد يكون أيضًا الشيء في ظاهره في الدنيا بلاء ومحنة وشدة، فيكون بصبرك ورضاك سبب نجاتك يوم القيامة ورفعتك ورقيك في درجات العفو والنعيم في جنات عدن، فتأمل.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وتأمل قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ ما أجمل التعبير القرآني جعل الله العسر ساعة واحدة عابرة، سريعة الانقضاء، ومحصورة، لا تفترش الحياة كلها!، فأحسن الظن بربك، واعلم بأن البلاء عمره قصير؛ فاصبر وتصبر ولا تنسَ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

وقد قال بعض العارفين بالله وصدق: «سبحان من له في خلقه آلاء حسان تدل على مجامع لطفه، وكريم فضله، قضاؤه الحق، وحكمه النافذ في الخلق، جعل في كل مصيبة مع التسليم والرضا عوضًا، وفي كل بائقة مع التوكل مخرجًا، وفي كل نقص تمامًا يجبر به كل كسير، ويقوي به كل ضعيف»

ختامًا: المؤمن الصادق يُسلم أمره إلى الله ويؤمن به، ويتوكل عليه في كل شؤونه ليطمئن قلبه:

فالنار لم تحرق إبراهيم، والسكين لم تقتل إسماعيل، والبحر لم يغرق موسى، والحوت لم يأكل يونس، ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾. وتأمل الآية قال الله ﴿قُل لَّن

﴿يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾، ولم يقل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى «علينا»؛ لأن كل ما يصيب المسلم مع الصبر والاحتساب فهو له في العاجل أو في الآجل، كما قال أهل العلم. (الوزير ابن هبيرة).

وصدق والله من قال:

ما ضاقَ بالمرء أمرٌ واستعدّ له ... بطاعة الله إلا جاءهُ الفرج
ولا أناخ بباب الله ذو ألمٍ ... إلا تزحزح عنه الهم والحرج

* * *

الوقفة الثانية: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾

الحمد لله الذي له ما في وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير، والصلاة والسلام على البشير النذير والسراج المنير، أما بعد:

فيا أيها الأفاضل، قال ربنا عَزَّوَجَلَّ لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨] أي: اصبر على الدعوة، ولا تُبالِ بمن خالفك وعاداك، فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا وحفظنا ورعايتنا، والله يعصمك من الناس، وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قيل: حين تقوم للصلاة، وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في دعاء الاستفتاح في الصلاة: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك»، رواه الإمام أحمد وأهل السنن، وقيل: حين تقوم من نومك، وقد ورد في البخاري أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ -أي: استيقظ- فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الحَمْدُ لله، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا، اسْتُجِيبَ، فَإِنْ تَوَضَّأَ قُبِلَتْ صَلَاتُهُ»[1]، وقيل

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٥٤ رقم ١١٥٤).

أيضًا: أي: حين تقوم من كل مجلس، وقد جاء عند النسائي والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، أن النبي ﷺ قال: «مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ كَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ، ثُمَّ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ: سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ -غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ»[1]. ثم قال ربنا بعدها في الآية: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ أي: اعبده واذكره بالصلاة والتلاوة في الليل، ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾، ورد أن المقصود الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم، أي: عند جنوحها للمغيب، وقد ثبت في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى شَيْءٍ مِنَ النَّوَافِلِ أَشَدَّ مِنْهُ تَعَاهُدًا عَلَى رَكْعَتَيِ الفَجْرِ»[2]. وفي صحيح مسلم: «رَكْعَتَا الفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[3].

وأقول: من أحب النبي ﷺ حقًّا حريٌّ به الحرص على الأذكار التي بينا وعلى مواضعها، حبًّا وصدقًا واتباعًا وطاعة.

ولنعلم يقينًا -كما قال ابن القيم- أن «الوصول إلى الله وإلى رضوانه بدونه مُحال، وطلب الهدى من غيره هو عين الضلال، وكيف يُوصل إلى الله من غير الطريق التي جعلها هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ موصلة إليه، ودالةً لمن سلك فيها عليه، بعث رسوله بها مناديًا، وأقامه على أعلامها داعيًا، وإليها هاديًا، فالباب عن السالك في غيرها مسدود، وهو عن طريق هُداه وسعادته مصدود، بل كلما ازداد كدحًا واجتهادًا، ازداد من الله طردًا وإبعادًا» (ابن القيم).

وهذه الطريق الموصلة إلى رضوان الله هي في إخلاص العبادة لله وحده والسير فيها على خطى رسول الله ﷺ، فنسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يدلنا عليه، وعلى الطريق الموصلة إليه، وأن يوفقنا لاتباع سنة رسولنا ﷺ وأن يثبتنا على ذلك حتى نلقاه.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٩/ ١٥٣ رقم ١٠١٥٧)، والترمذي (٥/ ٤٣١ رقم ٣٤٣٣). وقد صححه الألباني. ينظر: التعليقات الحسان (٢/ ٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٥٧ رقم ١١٦٩)، ومسلم (٢/ ١٦٠ رقم ٧٢٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ١٦٠ رقم ٧٢٥).

قبل الختام: للذكر أيها الأحبة والمداومة عليه ثمرات جليلة يجد أثرها في القلوب المحبون الصادقون العارفون بالله جَلَّ جَلَالُهُ:

وقد أجاد ابن الجوزي في وصفهم حين قال: «لله رجال مؤمنون ونساء مؤمنات، يحفظ الله بهم الأرض، بواطنهم كظواهرهم بل أجلى، وسرائرهم كعلانيتهم بل أحلى، وهممهم عند الثريا بل أعلى، إن عُرفوا تنكروا، وإن رُئيت لهم كرامة أنكروا، فالناس في غفلاتهم، وهم في قطع فلاتهم، تحبهم بقاع الأرض، وتفرح بهم أملاك السماء، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ التوفيق لاتباعهم، وأن يجعلنا من أتباعهم» (ابن الجوزي).

وعلى رأس هؤلاء الذين يذكرون الله كثيرًا، قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم.

أما الختام: فتأملوا قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾، يقول ابن الجوزي: «قف عند هذه الآية، ولا تعجل، فلو استقر يقينها في قلبك ما جفّت شفتاك»، نسأل الله العظيم من فضله، ونبرأ من حولنا وقوتنا ونلجأ إلى حوله وقوته، فلا حول ولا قوة لنا إلا بالله، اللهم ربنا وخالقنا ومولانا قد استقر يقينا في قلوبنا أنه لا سبيل لنا إلى نيل كرامتك إلا بطاعتك، ولا سبيل إلى طاعتك إلا بتوفيقك ومعونتك، فأعنّا يا ربنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

القلادة السادسة والثلاثون

الوقفة الأولى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا﴾

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين، وأرسل رسوله رحمة للعالمين، أحمده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأصلي وأسلم على نبينا الأمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها الأفاضل: يقول ربنا جل في عُلاه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

أثنى الله جَلَّ جَلَالُهُ في هذه الآية على المهاجرين الذين هاجروا في سبيل الله، ابتغاء فضل الله ورضوانه، ونصرة لله ورسوله، وشهد لهم جَلَّ وَعَلَا بأنهم هم الصادقون حقًّا، وهؤلاء هم المهاجرون الذين اختارهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لصحبة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهاجروا معه وتحملوا الأذى دفاعًا عنه وعن دعوته وهم بأعلى المراتب، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآية التي تليها مُثنيًا على الأنصار، ومُبينًا فضلهم وشرفهم وكرمهم وإيثارهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

كانوا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ لا يحسدون المهاجرين فيما فضلهم الله به وفيما أُعطوا، ويقدمون المحاويج على حاجات أنفسهم، ولا أدل على ذلك من القصة التي وردت في صحيح البخاري، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَصَابَنِي الجَهْدُ، فَأَرْسَلَ إِلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَا رَجُلٌ يُضِيفُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، يَرْحَمُهُ اللهُ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: ضَيْفُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا تَدَّخِرِيهِ شَيْئًا، قَالَتْ: وَاللهِ مَا عِنْدِي إِلَّا قُوتُ الصِّبْيَةِ، قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصِّبْيَةُ العَشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ وَتَعَالَيْ، فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ، وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ، فَفَعَلَتْ، ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: لَقَدْ عَجِبَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا، أَوْ: ضَحِكَ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةَ، فَأَنْزَلَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]»[1].

ثم قال الله في وصف من جاء بعدهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، فهؤلاء هم التابعون لهم بإحسان، المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة، والداعون لهم في السر والعلانية، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فنسأل الله أن يجعلنا منهم ومعهم.

وتأملوا أيها الأحبة ما ذكره القرآن من قولهم: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فما أجمل أن يكون المؤمن نقي القلب تجاه إخوانه المؤمنين، سواء من السابقين الأولين، أو إخوانه الذين يعيشون معه، وقد وصف الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أهل الإيمان بصفتين عظيمتين في آيتين، قال ربي عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٣٤ رقم ٣٧٩٨)، ومسلم (٦/ ١٢٧ رقم ٢٠٥٤).

﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، تأمل ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال ربي في الآية الأخرى يصف أصحاب النبي ﷺ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

قال أهل العلم: «فالمؤمن يتواضع للمؤمنين، أما على الكفار فعزيز شديد، وقد شبّه النبي ﷺ المؤمن بالنخلة والنحلة، والنخلة لها ثمرة يُنتفع بها، وشوكة تضر بها، والنحلة كما هي لينة لطيفة مع الأزهار، لها شوكة وإبرة تقاتل بها من يريد الاعتداء عليها».

ولنعلم أيها الكرام كما قال أحد السلف: أن «أقصر طرق الجنة سلامة الصدر».

ولا أدلّ على ذلك من قصة الرجل الذي شهد له النبي ﷺ أنه من أهل الجنة ثلاثًا.

فنسأل أن يطهر قلوبنا جميعًا تجاه إخواننا، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ختامًا: هنيئًا لمن سلم قلبه تجاه إخوانه، ثم تجاوز ذلك إلى الحرص على نفعهم وإسعادهم قدر استطاعته، وما أجمل جوابَ أحد الحكماء حين سُئل: «من أسعدُ الناس؟»، فقال: «من أسعدَ الناسَ». وصدق والله، فالابتسامة التي تنثرها على شفاه من حولك، والسعادة التي تنشرها لتستقر في قلوب إخوانك، ستأتي يومًا ما لتسكن جيبك، وتجري في عروق قلبك، وأنت أحوج ما تكون إليها، فالجزاء من جنس العمل و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

* * *

الوقفة الثانية: (حُب الرسول ﷺ وطاعته)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد رُوي عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَعَنَ اللهُ الوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ. قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ، وَكَانَتْ تَقْرَأُ القُرْآنَ، فَأَتَتْهُ فَقَالَتْ: مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكَ، أَنَّكَ لَعَنْتَ الوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ؟ فَقَالَ عبدالله: وَمَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي كِتَابِ اللهِ. فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ لَوْحَيِ الْمُصْحَفِ فَمَا وَجَدْتُهُ! فَقَالَ: لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: فَإِنِّي أَرَى شَيْئًا مِنْ هَذَا عَلَى امْرَأَتِكَ الآنَ؟ قَالَ: اذْهَبِي فَانْظُرِي. قَالَ: فَدَخَلَتْ عَلَى امْرَأَةِ عَبْدِاللهِ فَلَمْ تَرَ شَيْئًا، فَجَاءَتْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا. فَقَالَ: أَمَا لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ نُجَامِعْهَا»[1]. وجاء في الصحيحين أيضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[2].

لذا أيها الأحبة: «يجب أن تُحكم العواطف بالعقول، وتُحكم العقول بالصحيح المنقول، فلا نحتكم إلا لكتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكل ما سواهما عُرضة للنقص والتقصير والذهول».

وفي القصة دليل على حب الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد ظهر ذلك الحب جليًّا في طاعته واتباع هديه وأمره، في خاصة نفسه وفي أهله، وقد قال ربي جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهكذا كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم في حبهم واتباعهم، ولله در القائل في مدح نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ١٦٤ رقم ٥٩٨١)، ومسلم (٦/ ١٦٦ رقم ٢١٢٥).
(٢) أخرجه البخاري (٩/ ٩٤ رقم ٧٢٨٨)، ومسلم (٤/ ١٠٢ رقم ١٣٣٧).

تلفَّتْ إلى الآفاق شرقًا ومغربًا فلن ترَ في أنحائها من يماثله
حثى من بدور الحب في كل مهجة فتلك التي تهفو إليه سنابله

وفي حب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباعه يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ قال: «وهذا دليلٌ على أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين، وهذه الأولوية تتضمن أمورًا:

منها: أن يكون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحبّ إلى العبد من نفسه؛ لأن الأولوية أصلها الحب، ونفس العبد أحب إليه من غيره، ومع هذا فيجب أن يكون الرسول أولى به منها، وأحب إليه منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان. ويلزم من هذه الأولوية والمحبة: كمال الانقياد، والطاعة، والرضا، والتسليم، وسائر لوازم المحبة من الرضا بحكمه، والتسليم لأمره، وإيثاره على كل من سواه.

ومنها: ألّا يكون للعبد حُكم على نفسه أصلًا، بل الحكم على نفسه للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده والوالد على ولده، فليس له في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولى به منها».

ثم قال: «فيا عجبًا كيف تحصل هذه الأولوية لعبد قد عزل ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن منصب التحكيم، ورَضي بحكم غيره، واطمأن إليه أعظم من طمأنينته لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وزعم أن الهدى لا يُتلقى من مشكاته، وإنما يُتلقى من دلالات العقول، إلى غير ذلك من الأقوال التي تتضمن الضلال المبين، نسأل الله العافية».

ثم ختم رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «ولا سبيل إلى ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ما سواه، وتوليته في كل شيء، وعرض ما قاله كل أحد سواه على ما جاء به؛ فإن شهد له بالصحة قبله وإن شهد له بالبطلان ردّه، وإن لم تتبين شهادته بصحة ولا بطلان جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب ووقفه حتى يتبين أي الأمرين أولى به، فمن سلك هذه

الطريقة استقام سفر الهجرة –هجرة قلبه إلى الله ورسوله– واستقام له علمُه وعمله، وأقبلت وجوه الحق إليه من كل جهة». انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فنسأل الله من فضله، كما نسأله جَلَّ وَعَلَا أن يحيينا على سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأن يتوفانا على ملته، وأن يحشرنا في زمرته، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على نبينا محمد.

القلادة السابعة والثلاثون

الوقفة الأولى: (التوحيد مفزع أعداء الله وأوليائه)

الحمد لله الذي نصب من كل كائن على وحدانيته برهانًا، وتصرّف في خلقه كما شاء عزًّا وسلطانًا، اختار المتقين فوهب لهم بنعمته أمنًا وإيمانًا، وعمّ المذنبين التائبين برحمته عفوًا وجودًا وغفرانًا، فستر عوراتهم وآمن روعاتهم، ولم يقطع أرزاقهم جودًا وامتنانًا، والصلاة والسلام على إمام المتقين، وسيّد الأولين والآخرين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها الكرام، توحيد الله جَلَّوَعَلَا -كما قال أهل العلم: «مفزع أعداء الله وأوليائه: فأما أعداؤه فينجيهم من كُرَبِ الدنيا وشدائدها: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وأما أولياؤه، فينجيهم من كُربات الدنيا والآخرة معًا وشدائدهما؛ ولذلك فزع إليه يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، فنجّاه الله من تلك الظلمات، وفزع إليه أتباع الرسل فنجَوْا به مما عُذِّبَ به المشركون في الدنيا، وما أُعِدّ لأهل الشرك في الآخرة من العذاب المهين، فوالله ما دُفعت الشدائد والأهوال بمثل توحيد الله جَلَّجَلَالُهُ؛ لذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم»، ودعوة ذي النون أيضًا التي ما دعا بها مكروب إلا فرّج الله كربه بالتوحيد، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾،

فـلا يُلقـي في الكُرب العظام إلا الشرك، ولا يُنجي منهـا إلا التوحيد؛ فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها، فلا إله إلا أنت سبحانك إنا كنا من الظالمين».

وهنـا ينبغي أن يُعلـم، كما قال ابن القيم: «-أن شـهادة التوحيد: لا إله إلا الله- في القلـب بمنزلة الـروح في البـدن، والأرواح أنواع فروح ميتـة، وروح مريضة إلى الموت أقـرب، وروح إلى الحيـاة أقـرب، وروح صحيحـة قائمة بمصالح البـدن، وفي الحديث الصحيـح عن نبينـا ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا رَجُـلٌ يَحْضُرُهُ مَوْتٌ إِلَّا وَجَدَ رُوحَـهُ لَهَـا رَوْحًا...»[1]. فحياة الروح بحياة هذه الكلمة فيها، كما أن حياة البدن بوجود الـروح فيـه، وكما أن مـن مات على هـذه الكلمة فهـو في الجنة يتقلب فيهـا، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى وعيشـه أطيب عيش، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعـات: ٤٠-٤١]، فالجنة مأواه يوم اللقاء، وجنة المعرفة والمحبة والأُنس بالله والشـوق إلى لقائه والفرح به والرضـا به وعنه مأوى روحه في هذه الـدار، فمن كانت هذه الجنة مأواه هنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد، ومن حُرم الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرمانًا، والأبرار في النعيم، وإن اشـتد بهم العيـش وضاقت عليهم الدنيا؛ والفجار في جحيم، وإن اتسـعت عليهم الدنيـا وفُتحت لهم أبوابها، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَنْ عَـمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحـل: ٩٧] وطيـبُ الحياة جنـة الدنيا، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾، فـأيُّ نعيـم أطيـب من شرح الصـدر، ثم قال ربي ﴿وَمَن يُـرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعـام: ١٢٥] وأي عـذاب أمَـرُّ من ضيق الصـدر، وقـال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا

(١) أخرجـه النسـائي في الكـبرى (٩/ ٤٠٢ رقـم ١٠٨٧١)، وابـن ماجـه (٤/ ٧٠٩ رقـم ٣٧٩٥)، وأحمـد (١/ ٦٩ رقم ١٩٢). وقد صححه محققو المسند.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]»، فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشًا، وأنعمهم بالًا، وأشرحهم صدرًا، وأسرهم قلبًا، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة»[1]. انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية وصدق: «كلما قوي التوحيد في قلب العبد، قويَ إيمانه وطمأنينته وتوكله ويقينه».

ختامًا: يُروي أن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ سُئل: ما أعظم عمل يتقرّب به العبد إلى الله؟ فبكى رَحِمَهُ اللَّهُ ثم قال: «أن ينظر الله إلى قلبك فيرى أنك لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو»، فلا إله إلا الله.

وأقول: وحريٌّ والله بكل مؤمن صادق أن يقولها، كما قالها شاعر يُناجي ربه، ويرجوه الإخلاص لوجهه في كل أحواله، وفي كل حركاته وسكناته، يقول في بيت جميل وأقول معه:

فأخلصني لوجهك يا إلهي ولا تجعل لغيرك فيّ ذَرّهْ

اللهم املأ قلوبنا إخلاصًا لك وتوحيدًا، وأحينا على لا إله إلا الله وثبتنا عليها حتى نلقاك، فبها نحيا وبها نموت، وبها نلقى الله، وبها نلقى الله.

* * *

الوقفة الثانية: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

الحمد لله القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

(١) ينظر: الداء والدواء (ص: ٣٠٢، ٣٠٣).

فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣]؛ ففي الآيتين -أيها الكرام- إنكار شديد على من يقول قولًا ولا يفي به، فالمؤمن لا يكذب، بل إن من أعظم صفات المؤمنين الصدق والوفاء بالعهد، ومن أعظم صفات المنافقين واليهود الكذب، أما أهل النفاق فقد قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما ثبت في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[1]. وفي الحديث الآخر عند البخاري عَنْ عَبْدِاللهِ بن عَمْرٍو، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ، كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ»[2]؛ هذا حال المنافقين أما اليهود فقد بيّن القرآن كذبهم وافتراءهم في آيات عديدة، كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا، وكذبوا والله، فكان رد الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾، وقالوا أيضًا: نحن أبناء الله وأحباؤه وكذبوا، فرد الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عليهم ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَ﴾، وزعموا أيضًا في موضع آخر أنهم أولياء لله من دون الناس وكذبوا، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٦-٧].

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال أبو جهل لعنه الله: إن رأيت محمدًا عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لو فعل لأخذته الملائكة عيانًا، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لرجعوا لا يجدون أهلًا ولا مالًا».

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٦ رقم ٣٣)، ومسلم (١/ ٥٦ رقم ٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٦ رقم ٣٤)، ومسلم (١/ ٥٦ رقم ٥٨).

دلّ الحديث على أن أجبن الخلق وأكذب الخلق هم اليهود، ولعلمهم أنهم على ضلال، لا يتمنون الموت أبدًا، ودل أيضًا على دفاع الله جَلَّ جَلَالُهُ عن نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودلّ أيضًا على علم الله الواسع بما كان وما يكون وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

فحريٌّ بالمؤمن أن يبتعد عن صفات اليهود وأهل النفاق، وأن يحرص دائمًا على الصدق في أحواله كلها في نياته وأقواله وأفعاله، وما أجمل حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قال بأبي هو وأمي: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»[1]، نسأل الله العافية؛ لذا أيها الكرام ينبغي الحذر كل الحذر من الكذب، ولا يتساهل فيه مع أي أحد، فقد جاء في التحذير من الكذب ومن مخالفة الفعل للقول، ما رواه الإمام أحمد وأبو داود عَنْ عَبْدِاللهِ بن عَامِرٍ أَنَّهُ قَالَ: «دَعَتْنِي أُمِّي يَوْمًا وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاعِدٌ فِي بَيْتِنَا، فَقَالَتْ: هَا تَعَالَ أُعْطِيكَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيهِ؟ قَالَتْ: أُعْطِهِ تَمْرًا. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِيهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذْبَةٌ»[2].

ويكفي والله في الحث على الصدق معرفة فضله يوم لقاء الله جَلَّ وَعَلَا، ولا أدلّ على ذلك من هذه الآية العظيمة في أواخر سورة المائدة: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩]، فنسأل الله العظيم من فضله.

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٢٥ رقم ٦٠٩٤)، ومسلم (٨/ ٢٨ رقم ٢٦٠٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٤٥٥ رقم ٤٩٩١)، وأحمد (٦/ ٣٣٤٨ رقم ١٥٩٤٣). وقد حسنه محققو المسند. ينظر: مسند الإمام أحمد (٢٤/ ٤٧٠).

ومـن جميل بيـان أهل العلم قولهـم إن «أعدل الشـهود على المطبوع عـلى الصدق؛ وجهه، لظهور الاسـترابة عليه إن وقع في كذبة أو همّ بها، وأعدل الشـهود على الكذّاب لسـانه، لاضطرابـه، ونقض بعـض كلامه بعضا». وأقـول: «وأعدل الشـهود والله على المتقـي الصادق؛ قلبـه، فإنه يضطرب اضطرابًا شـديدًا إذا همّ بذنـب، وينكسر إذا فعل المعصية وأقدم عليها، فيمتلأ ندمًا، مسـارعًا إلى دعـوة صاحبه للتوبة والإنابة، لتعود له راحته وصفاؤه».

ويقـول الشـيخ ابـن عثيمـين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أهـم شيء للإنسـان أن يكـون وجيهًـا عند الله عَزَّوَجَلَّ، ومن أعظم الأسباب الموصلة إلى ذلك الصدق مع الله في النية وفي القول والعمـل والسر والعلانية، – ومعروفة قصة سـعد بن أبي وقاص والذي افتُرِيَ عليه في عهد عمر بن الخطاب فدعا سعد على خصمه فاستجاب الله له، فإذا كنت وجيهًا عند الله فستكون وجيهًا عند الخلق، فأصلح ما بينك وبين الله يُصلح الله ما بينك وبين الخلق».

ختامًا: أيها المبارك:

عليـك بالصـدق ولـو أنـه أحرقـك الصدق بنـار الوعيد
وابغ رضـا الله فأغبـى الورى من أسـخط الله وأرضى العبيد

القلادة الثامنة والثلاثون

الوقفة الأولى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾

الحمد لله الذي علّمنا وهدانا، وأطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، ومن كل بلاءٍ حسنٍ أبلانا، نحمده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، ونصلي ونسلم على البشير النذير، والسراج المنير، الذي أرسله ربه رحمة للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها الكرام، يقول ربنا جَلَّ وَعَلَا في سورة الإنسان مُثنيًا على صنف نادر من عباده الصالحين، ومُبينًا لصفاتهم وجليل أعمالهم، قال ربنا: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٧-٩] أي: لا يطلب هؤلاء الصالحين من أحد مُجازاةً يُكافئون بها ولا يريدون بإطعامهم أيضًا أن يُشكروا عند الناس، فهم إنما فعلوا ذلك لله جَلَّ وَعَلَا، لا يطلبون عرضًا من عرض الدنيا الفاني، فهم ما أرادوا بأعمالهم الصالحة إلا وجه الله الباقي فـ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]؛ ولذلك أبقى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لهم تلك الأعمال الصالحة، فقد كانت من الباقيات الصالحات، وسيجدونها أمامهم يوم القيامة بإذن الله، وقد خلّد الله عَزَّوَجَلَّ فعلهم الجميل وإخلاصهم بقرآن كريم يُتلى حتى قيام الساعة، ليقتدي بهم من كتب الله له السعادة، فاللهم اجعلنا منهم ومعهم، وتأملوا لم يقولوا بعدها إنا نريد الجزاء من الله والثواب، بل قالوا: ﴿إِنَّا

﴿نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾ [الإنسان: ١٠] فجمعوا بين خشية الله والعمل الصالح الخالص لوجه الله، فكان جزاءهم عظيمًا: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴾ [الإنسان: ١١-١٢]، قال هشام بن سليمان الداراني: «بما صبروا على ترك الشهوات في الدنيا». قال ابن القيم: لمّا كان حبَس النفس عمّا تريد فيه خشونة وشدة، جاء الجزاء بالحرير الناعم وبجنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وما لا يخطر على قلب بشر».

وتأملوا ثواب ذلك الإخلاص العظيم الذي استقر في قلوبهم، وتفاصيل بعض نعيمهم في الجنة، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مبينًا ثوابهم يوم لقائه: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا﴾ [الإنسان: ١٣]، أي: في راحة سرمدية وجو جميل، لا حر مزعج، ولا برد مؤلم، بل سعادة لا يبغون عنها حولًا، ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾ [الإنسان: ١٤]: قريبة أغصانها متى ما أراد أحدهم الثمر دنا القطف إليه وتدلى من أعلى غصنه كأنه سامع طائع، قال مجاهد: «إن قام ارتفعت معه بقدر، وإن قعد دنت له، وإن اضطجع تذللت له حتى يناله، فذلك قوله ﴿تَذۡلِيلٗا﴾»، وقال قتادة: «لا يرد أيديهم عنها شوك ولا بُعد»، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ١٥ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا﴾ [الإنسان: ١٥-١٦]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ومجاهد والحسن البصري: «بياض الفضة في صفاء الزجاج»، والقوارير الشفافة لا تكون في الدنيا إلا من زجاج، أما هذه الأكواب في الجنة، فهي من فضة، ومع ذلك هي شفافة يُرى ما في باطنها من ظاهرها، وهذا مما لا نظير له في الدنيا، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا﴾ أي: على قدر ريهم لا تزيد عنه ولا تنقص، بل هي مُجهزة لذلك مقدرة بحسب ري صاحبها، ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ١٧ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا﴾ [الإنسان: ١٧-١٨]، قال عكرمة: «اسم عين في الجنة»، وقال مجاهد: «سُميت بذلك لسلاسة مسيلها وحدة جريها»، ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا﴾ [الإنسان: ١٩] أي: إذا رأيتهم في انتشارهم وهم يخدمون وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم

وثيابهم وحليهم حسبتهم لؤلؤًا منثورًا، ولا أحسن في التشبيه ولا في المنظر من اللؤلؤ المنثور على المكان الجميل، ثم قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠]، أي: إذا رأيت يا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا في الجنة وشاهدت نعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من السعادة والسرور، رأيت نعيمًا عظيمًا وسلطانًا باهرًا، ومن المعلوم أن الشيء إن لم تره العين لبعده أو لغير ذلك فقد تسمعه به الأذن، وإن لم تسمعه الأذن، فقد يخطر على القلب أو البال شيء شبيه به، أما نعيم الجنة فلا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقد ثبت في الصحيح: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يقول لآخر أهل النار خروجًا منها، وآخر أهل الجنة دخولًا إليها: «... فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا...»[1]، فإذا كان هذا عطاؤه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لأدنى من يكون في الجنة، فما ظنك بما هو أعلى منزلة وأحظى عنده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؟ ثم قال ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]، يطهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل وسائر الأخلاق الرديئة، كما قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وجدوا هنالك عينين، فكأنما أُلهموا ذلك فشربوا من إحداهما، فأذهب الله ما في بطونهم من أذى، ثم اغتسلوا من الأخرى، فجرت عليهم نضرة النعيم، فأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحالهم الظاهر وجمالهم الباطن»، ثم ختم ربنا آيات النعيم بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢] فنسألك الله أن يجعلنا وإياكم ومن نحب ممن يسمع ذلك في جنات عدن.

ومعلوم -أيها الأحبة- أن أعظم ما استحق به هؤلاء الصفوة ذلك النعيم إخلاصهم لربهم الكريم، «والإخلاص -كما قال أهل العلم- ألّا تطلب على عملك شاهدًا غير الله، ولا مُجازيًا سواه، ولا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمعُ فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار، وتذكر يا من سوّل لك الشيطان وزين لك الرياء: «أن قلب من راءيت بيد من عصيت».

(١) أخرجه البخاري (٨/ ١١٧ رقم ٦٥٧١)، ومسلم (١/ ١١٨ رقم ١٨٦).

يقـول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيا من جاهدت نفسـك تريد الإخلاص أقبلْ على الطمع فيـما ما عند النـاس، وتخلص منه باليأس مما في أيديهم، وأقبل عـلى المدح والثناء، فازهد فيهما زُهدَ عُشّـاق الدنيا في الآخرة، فإذا اسـتقام لك ترك الطمع والزهد في الثناء والمدح سَـهُلَ عليك الإخلاص، فإن قلت: وما الذي يُسَـهِّل عليّ ذلك؟ قلت: أما ترك الطمع، فيُسـهله عليـك علمك يقينًا أنـه ليس من شيء يُطمع فيه إلا وبيـد الله وحده خزائنه، لا يملكها غيره، ولا يُؤتي العبدَ منها شـيئًا سـواه جَلَّ وَعَلَا، فإن طمعت في أمر من أمور الدنيا والآخـرة فأقبل على الله عَزَّوَجَلَّ بقلبك، واطلـب ذلك منه وحده لا شريك له، وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك ذلك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين، ويضر ذَمُّه ويشـين إلا الله وحـده جَلَّ جَلَالُهُ، كما قال ذلك الأعرابي للنبـي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن حمدي زين وذمي شـين»، فقال لـه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذاك الله عَزَّوَجَلَّ»، فازهـد في مدح من لا يزينك مدحه، وفي ذمّ من لا يشـينك ذمُّه، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه وكل الشـين في ذمه، ولن يُقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين، فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر بلا مركب، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

انتهى كلامـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فاللهم ارزقنا الصبر واليقين، واجعلنا برحمتك من المُخلَصين المُخلِصين، فإنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا ونحن نعلم، ونستغفرك لما لا نعلم، ونسألك أن تجعـل أعمالنا كلهـا صالحة وأن تجعلها لوجهك خالصة، ولا تجعل لأحد فيها شـيئًا، فإنا لا حول ولا قوة لنا إلا بك وأنت سبحانك حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

الوقفة الثانية: (شرف العلم وفضله)

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، أما بعد:

فيا أيها الكرام.

أثنى القرآن المجيد على العلم وأهله في آيات كثيرة، منها ما قال ربي جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، وقال أيضًا جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾، وقال عن أمثال القرآن: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾، ولم يأمر ربنا جَلَّوَعَلَا نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في كتابه أن يستزيد من شيء إلا من العلم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.

وقد قال نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»، وفي حديث آخر: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع»، أو كما قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقد رغّب القرآن والسنة في العمل بالعلم واستعمال العلم النافع في الدعوة إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾، ويكفي الداعي إلى الله وإلى الخير أن يعلم أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وملائكته وأهل السماوات والأرض وحتى النملة في جحرها والحوت في البحر ليصلون على معلمي الناس الخير، كما جاء في السنة؛ لذا ولأجل جميع ما ذكرناه آنفًا، ينبغي على العاقل أن يحرص على طلب العلم والاستزادة منه ليرقى عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وألّا يزهد في العلم أبدًا بأي حال من الأحوال.

وقد أبلغ في النصح من قال: «تعلّم العلم فإنه يقوّمُك ويُسددك صغيرا، ويُقدمك ويُسوِّدك كبيرًا، ويُصلح زيفك وفاسدك، ويُرغم عدوك وحاسدك، ويُقوّم عِوجَك وميلك، ويُصحح هِمّتك وأمَلَكْ».

قبل الختام: ينبغي على من آتاه الله العلم أن يحرص كل الحرص على العمل به ونشره وتعليمه، اقتداءً بالمرسلين وطلبًا للأجور العظيمة من رب العالمين، ثم ليُعلم إن تعليم العلم -كما قال أهله- يعود بالنفع المباشر على العالم نفسه:

«أما النفع الأول: فهو ما يرجوه من ثواب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والله عنده حسن الثواب، والنفع الثاني: زيادة العلم، وإتقان الحفظ، قال الخليل بن أحمد: «اجعل تعليمك دراسةً لعلمك، واجعل مناظرة المتعلم تنبيهًا على ما ليس عندك»، وقال أحد السلف: «النار لا يُنقصها ما أُخذ منها، ولكن يُخمدها ألّا تجد حطبًا، كذلك العلم لا يُفنيه الاقتباس، ولكنّ فَقْدَ الحاملين له سَبَبُ عدمه، فإياك والبخل بما تعلم»، وقيل أيضًا: «عَلّم عِلمَك وتعلّم علم غيرك، ففي ذلك عِلمُ ما جَهِلت، وحِفظُ ما عَلِمت».

* **إشراقة**[1]:

«لنقرأ دائمًا الصالح من الكتب، ولنتردد على المخلص من العلماء، وإلا فنحن مع الخواء الروحي على موعد».

ختامًا: احرص أخي المبارك على ألّا تمر أيام عمرك سدى، بلا علم أو فائدة أو حكمة تتعلمها أو تسمعها، قال أحدهم:

أليس من الخُسران أن لياليًا ... تمر بلا نفع وتُحسب من عمري

وقيل أيضًا:

إذا لم يكن مَرُّ السنين مُترجمًا ... عن الفضل في الإنسان سمّيته طِفلا
وما تنفع الأيام حين يعُدُّها ... ولم يستفد فيهنّ عِلمًا ولا فضلا

(١) الأعمال الكاملة لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

القلادة التاسعة والثلاثون

الوقفة الأولى: (عظمة القرآن)

الحمد لله الذي جعل كلامه شِفاءً لما في الصدور، وشفيعًا لمن قرأه وعمل به يوم البعث والنشور، والصلاة والسلام على نبينا محمد عدد حبات الندى فوق الزهور، وعلى آله وصحبه ما تعاقبت الأيام وامتدت الشهور، أما بعد:

فيا أيها الأفاضل، يقول الله عَزَّوَجَلَّ مُخاطبًا نبيه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في القرآن: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾ [المزمل: ٥]، والمقصود هذا الكتاب العظيم الذي بين أيدينا، وقد فسر بعض السلف كالحسن وقتادة قوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ﴿**قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾: «أي ثقيل في العمل به»، وقيل: ثقيل وقت نزوله من عظمته، وقد قال زيد بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أُنزلت على رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -آيات- وفخذه على فخذي فكادت ترض فخذي» أخرجه البخاري. وقد قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حين سُئل عن الوحي: «أحيانًا يأتي في مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي، فيُفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي المَلك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول»، وقالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في اليوم الشديد البرد فيُفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا». رواه البخاري.

واختار ابن جرير أنه ثقيل من الوجهين معًا، أي في العمل به ووقت نزوله، كما قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: «كما ثقل في الدنيا ثقل يوم القيامة في الموازين». وقد

قال ربي جلّ في عُلاه عن أهل الكفر في آية أُخرى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ [الإنسان: ٢٧]، فوصف الله جَلَّجَلَالُهُ يوم القيامة باليوم الثقيل وهذا القرآن بالقول الثقيل، فقال أهل العلم: من تعاهد القول الثقيل هُنا وعمل به، خفّ عليه اليوم الثقيل هناك ولُطِف به»، نسأل الله أن يعلق قلوبنا بكتابه تدبرًا وحفظًا وعلمًا وعملًا، وأن يجعله شفيعًا لنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وأقول: -يا أخي المبارك ويا أختي المباركة- من أراد منكما السعادة الحقيقية في الدنيا فليعلق قلبه دائمًا بكلام ربه، ولا يفوت يومًا دون أن يقلب ناظريه في صفحات القرآن العظيم، فالذي خلق القلب وحرّكه، وأجرى الدم في عروقه، أدرى بما يُطمئن هذا القلب ويُسعده، واسمعا قول من هو أرحم بنا من أمهاتنا وألطف بنا من أنفسنا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فو الذي نفسي بيده لن تطيب الدنيا إلا بذكره ولا الآخرة إلا بعفوه ولا الجنة إلا برؤية وجهه جَلَّجَلَالُهُ.

وهنا ينبغي أن يُعلم أن «أهل الكفر لمّا علموا أن سماع القرآن واهتمام المؤمنين به وتدبره من أعظم أسباب الهداية ورسوخ اليقين وزيادة الإيمان، وأجل ثمرات ذلك النصر على الأعداء في الميدان، لمّا علموا ذلك حاولوا أن يصدوا الناس عنه، وتأملوا قول الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]». فنسأل الله أن يردنا إلى كتابه ردًّا جميلًا.

قال بعض أهل العلم:

- «القرآن يملأ النفوس بِعِظَم الهمة، وهذا العِظَم هو الذي قذف بأوليائه ذات اليمين وذات الشمال، حتى رفعوا لواء العدل، وفجّروا أنهار العلوم تفجيرًا، وإذا رأينا من بعض قُرائه همًا ضئيلة خاملة؛ فلأنهم لم يتدبروا آياته، ولم يتفقهوا في حكمه».

- «وتأمل كيف سمّى الله كتابه بُرهانًا، ونورًا، وهُدًى، وفُرقانًا، ورُوحًا، وشفاءً لما في الصدور؛ وما ذلك إلا ليُعظم عباده وأهل القرآن بخاصة قدر القرآن الكريم ويفهموه، فإن فعلوا ذلك، استخرجوا منه الشفاء لقلوبهم، والعلاج لمشكلاتهم، والصلاح لأحوالهم، والهداية في كل شؤونهم».

- ولنأخذ اسمًا واحدًا فقط من تلك الأسماء الجميلة التي سمّى الله بها القرآن، ألا وهو «الروح»، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥] يقول الزركشي في البرهان: «سمّاه رُوحًا لأنه يؤدي إلى حياة الأبد، ولولا الروح لمات الجسد»، ولأن القرآن أيضًا به حياة القلوب، وباستماعه وتدبره تشتاق الأرواح للقاء علّام الغيوب»[1].

ختامًا: من أعظم الوسائل المعينة على تدبر القرآن المجيد، واستخراج عظيم كنوزه وجميل هداياته، ثلاثة أمور، أولًا خلو القلب، وثانيًا خلو الفكر، وثالثًا خلو البطن، ويجتمع ذلك غالبًا في رمضان، وخصوصًا لمن اعتكف في العشر الأخيرة منه، فالبطن خالٍ إلا من القليل من الطعام، والفكر خالٍ إلا من التأمل في كتاب الله، والقلب خالٍ إلا من الله وآياته، فيفتح الله حينئذ برحماته لمن شاء من عباده من كنوز آياته، ما لا يُدرك في أحوال أخرى من العمر، فتمر على القلب في تلك الليالي المباركات لحظات فرح، هي أسعد لحظات الحياة، فمن أراد بذل الأسباب في تحصيل درر الآيات بعد التوكل على الله ودعائه والاستعانة به فعليه بتلك الثلاث، والله أعلم.

نسأل الله أن يرزقنا الفهم في كتابه، وأن يفتح علينا من كنوزه وبركاته، وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته، إنه بكل جميل كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٥).

الوقفة الثانية: (تلاوة النبي ﷺ للقرآن)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

قال ربنا عَزَّوَجَلَّ مُخاطبا النبي ﷺ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها» رواه مسلم، أي أنه يقرأها بتأن وترتيل -الله أعلم-، وفي صحيح البخاري عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: «كانت مدّا»، ثم قرأ: «﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم»، وقد سُئلت أيضًا أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقالت: «كان يُقطع قراءته آية آية» رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي. وقد ورد عن النبي ﷺ أحاديث عدة في استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة، منها: «زينوا القرآن بأصواتكم»، و«وليس منا من لم يتغن بالقرآن» أي: يرتله ويقرأه بصوت حسن -والله أعلم-، وقوله ﷺ يعني أبا موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لقد أوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود»، روى ذلك كله البخاري في صحيحه.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «لا تنثروه نثر الرمل، ولا تهذوه هذّ الشعر، قِفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة». وروى البخاري أن رجلًا جاء إلى ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «قرأت المفصل الليلة في ركعة، فقال: هذًّا كهذّ الشعر، لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن، فذكر عشرين سورة من المفصل سورتين في ركعة».

فهذه سنته ﷺ، فلنلزم غرزه ولنهتدِ بهديه، ففي ذلك والله السعادة والنور في الدنيا، والفلاح والنعيم والسرور يوم القيامة.

قال أهل العلم: «وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب والجوارح، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير

المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار، وحظ الجوارح ترجمة ذلك إلى واقع عملي، فاللسان يرتل والعقل يفسر والقلب يتعظ» والجوارح تعمل.

وتأملوا قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، قال الحسن: «نزل القرآن ليُتدبر ويُعمل به، فاتخذوا تلاوته عملًا، فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من قراءة القرآن، ومعرفة معانيه وتدبره وإطالة التأمل فيه».

ومن بركة القرآن أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُبارك في عقل قارئه وحافظه، قال أحد السلف: «كان يُقال: أبقى الناس عقولًا قُرّاء القرآن».

وقد أوصى إبراهيم المقدسي تلميذًا له فقال: «أكثر من قراءة القرآن ولا تتركه، فإنه يتيسر لك الذي تطلبه على قدر ما تقرأ».

وقد قال أحد السلف: كلما زاد حزبي من القرآن، زادت البركة في وقتي، ولا زلت أزيد حتى بلغ حزبي عشرة أجزاء.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما رأيت شيئًا يُغذي العقل والروح ويحفظ الجسم ويضمن السعادة أكثر من إدامة النظر في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»، وقد كان بعض المفسرين يقول: «اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات والخيرات في الدنيا»، ولا عجب والله جَلَّ جَلَالُهُ يقول: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾.

قبل الختام: أيها الأحبة لنحيي بيوتنا بالقرآن؛ «فالمسموعات النافعة -كما قال أهل العلم- من قرآن وأحاديث ودروس حياة للبيوت وغذاء للنفوس والأبناء، وفي الأثر: «لن يشبع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة»؛ وذلك لأن سماع الخير سبب العمل، والعمل سبب دخول الجنة، «والقرآن من أنفع ما يسمع، قال الليث: «ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن، لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ

﴿لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، فإن أردنا أن تغشى الرحمات بيوتنا فلنحيِها بتلاوة القرآن واستماع آياته».

أما الختام: فالقرآن شفاء القلوب، قال ربنا جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وفي الآية الأخرى وصف الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كتابه بأنه: ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾: فالقرآن يُذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل، ويشفي من ذلك كله بإذن الله، وهو رحمة ينتفع به المؤمن ويحفظه وتحصل له بركته العظيمة إذا عمل به.

قال أهل العلم: «كل معصية يأتي بها الجسد هي من فسادٍ في القلب ومرضٌ به، وإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قد جعل دواء أمراض القلوب تلاوة القرآن، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

قال الشيخ ابن عثيمين: «مهما طلبت من الأطباء ليزول عنك ما في قلبك، فلن تجد مثل القرآن».

وقال ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة»: «لو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها».

فنسأل الله أن يبارك لنا في القرآن العظيم، وأن يوفقنا لحفظه وتلاوته وتدبره والعمل به والدعوة إليه، وأن يرزقنا بركته وهداه، وأن يجعله شاهدًا لنا يوم نلقاه.

القلادة الاربعون

الوقفة الأولى: (أهوال يوم القيامة)

الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأتوب إليه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبده وابن عبده وابن أمته، ومن لا غنَى له طرفة عين عن فضله ورحمته، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله بلغ الرسالة وأدّى الأمانة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، فصلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها الكرام، قال أُبي بن كعب الصحابي الجليل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ست آيات قبل يوم القيامة، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت، ففزعت الإنس إلى الجن والجن إلى الإنس، واختلطت الدواب والطير والوحوش فماجوا بعضهم في بعض، قالت الجن: نحن نأتيكم بالخبر، فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تتأجج، فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم» رواه ابن جرير. فيا لها من أهوال، أهوال يوم القيامة بيّنها القرآن في سور عديدة منها سورة التكوير، فتأمّلْها، الشمس يُجمع بعضها على بعض ويذهب ضوؤها، النجوم تتناثر في الفضاء، الجبال تُنسف من أماكنها، وأغلى الإبل تُهمل وتترك، والوحوش تجمع

وتحشر، البحار تشتعل، النفوس تجمع مع أقرانها، الموءودة تسأل عن قاتلها، الصحف تنشر على أهلها، السماء تكشط وتكشف، الجحيم تحمى وتسعر، والجنة تُدنى وتُقرّب، حينئذ تعلم كل نفس ما عملت وأحضرت لهذا اليوم العظيم، يقول الله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١-١٤].

قال أحد المفسرين في قول ربي جَلَّوَعَلَا واصفًا بعض أهوال ذلك اليوم العظيم: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٥-٢٦]، قال: «علم الله تَبَارَكَوَتَعَالَى ضعف قلوب عباده إذا تراءت لهم تلك الأهوال؛ لذا لطف بهم سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فأضاف ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ إلى أعم اسم في الرحمة «الرحمن»، ولو جاء بدلًا منه اسم آخر كالعزيز أو الجبار لتفطرت القلوب الحية».

فمن أراد أيها الكرام الأمن في ذلك اليوم العظيم فعليه بالتوحيد والحذر من الشرك، قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] والمقصود بالظلم هنا الشرك كما فسر ذلك النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ للصحابة، قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، لذا ينبغي على المؤمن العاقل الاستعداد لذلك اليوم ولما فيه من الأحداث والأهوال، بأن يملأ قلبه قبل أن يفد على ربه «بالإخلاص والتقوى» وأن يُعمر ذلك القلب بـ«لا إله إلا الله»، فلا يُريد المؤمن الصادق بعمله إلا وجه خالقه جَلَّوَعَلَا، فيطهر أعماله كلها من الشرك بنوعيه الأكبر والأصغر، فلا يدعو وليًّا ولا يسجد لقبر، وأيضًا لا يطلب بعمله إلا ما عند الله لا الثواب أو الجزاء أو الشكر من المخلوقين، يقول ربنا جَلَّوَعَلَا لنبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، فإن أردت أيها المبارك أن تكون من المخلصين فلا تبال

بمدح الناس أو ذمهم، فإن مدحوك بحق فخفْ من سوء الخاتمة وتذكر ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وإن مدحوك بما لم تفعل فابكِ على نفسك وتذكر ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، وإن ذموك بحق فتلك نصيحة، فارجع إلى الحق الذي قالوا به، وإن ذموك بباطل فتلك حسنات أُهديت إليك».

ثم إن المخلوق كيف تطلبه وترجوه بعمل وهو ضعيف لا يملك من أمره شيئًا، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فكيف يملك لغيره، فاعمل أخي الحبيب لأجل من إذا عملت لأجله وطلبت رضاه وقصدته بسعيك: أحبك جَلَّجَلَالُهُ، وأعطاك، وأكرمك حتى أرضاك، وأغناك عن الكل وكفاك».

يقول الشيخ محمد المختار الشنقيطي في كلام نفيس: «العبد في أتم الحاجة إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ونعمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تغدق عليه صباح مساء فكيف يريد بعمله غير وجه الله، وما الذي وجده عند غير الله حتى يريد غير الله ويترك الله جَلَّجَلَالُهُ، أإلى غير الله تُقصد الأعمال، هل وجد غير الله أغنى من الله، هل وجد غير الله ينفعه من دون الله، ما الذي يجده الإنسان إذا مدحه المادحون وأثنى عليه المثنون، وليست له كرامة عند الله جَلَّجَلَالُهُ، ما الذي يجزي الإنسان إذا لم تكن له عند الله منزلة، سقطت منزلته حين نظر الله إلى قلبه وفيه إرادة غير وجهه، فيه الدنيا والرياء وحب السمعة، ينبغي على طالب العلم –وعلى كل أحد– أن يُوطن نفسه وأن يحاول قدر استطاعته ألّا يتكلم في هذا العلم ولا يعمل ولا يكتب ولا يسمع إلا وهو يريد ما عند الله، اللهم إنا نسألك علمًا نافعًا وقلبًا خاشعًا، اللهم امنن بالعافية غدونا وآصالنا واختم بالسعادة آجالنا، وأخلصنا لوجهك يا ربنا ولا تجعل لغيرك فينا ذرة، وارزقنا الأمن يوم الوعيد ويوم الفزع الأكبر، فإنه لا حول ولا قوة لنا إلا بك وأنت حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

الوقفة الثانية: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾

الحمد لله الذي لم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذل ولم يتخذ ولدًا، الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رُسلًا، الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، والصلاة والسلام على أكرم خلق الله إيمانًا وعملًا وخُلقًا، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ما أشرقت شمس وأمطرت سُحبًا، أما بعد:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ﴾ [الانشقاق: ١٦-٢١]، آيات كريمة، أقسم الله فيها بمخلوقات عظيمة، ثم جاء جواب القسم بحقائق باهرة ودلائل ظاهرة، من تيقن منها وعمل بموجبها سعد ورشد، ونال يوم القيامة جنة لم يرها ولم يسمع بها لا والله، بل لم تخطر أصلًا على بال أحد، قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة في معنى قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾، أي: «وما جمع»، وأضاف قتادة: «وما جمع من نجم ودابة»، وقال عكرمة: «وما ساق من ظلمة فإذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه»، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾: إذا تكامل نوره وأبدر، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في جواب القسم: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾: روى البخاري عن ابن عباس قال: «حالًا بعد حال قال هذا نبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» أي: أحواله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي مرّ بها -والله أعلم-، وقال عكرمة: «حالًا بعد حال فطيمًا بعد ما كان رضيعًا، وشيخًا بعد ما كان شابًّا»، وقال الحسن البصري: «حالًا بعد حال، رخاء بعد شدة، وشدة بعد رخاء، وغنى بعد فقر، وفقر بعد غنى، وصحة بعد سقم، وسقمًا بعد صحة».

وأقول -والله أعلم-: «لاحظ -أخي المبارك- الموافقة بين أحوال ما أقسم الله به وبين جواب القسم، فأقسم الله بالشفق ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ وما فيه من الحمرة في الأفق، ثم يتبدل حاله إلى السواد التام إذا أقبل الليل وجمع ظلامه، فأقسم الله به ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا

وَسَقَ﴾، ثم يتبدل الظلام الحالك والسواد إلى بياض ونور إذا طلع القمر واكتمل نوره فأنار الليل البهيم، قال الله: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾، فجاء القسم بأحوال مختلفة متتابعة، الشفق وحمرته ثم الليل وسواده ثم القمر بنوره وبياضه، ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ في جواب القسم: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي: ستتبدل أحوالكم من حال إلى حال فلا تيأسوا من روح الله، ولا تأمنوا من مكر الله، أما ترون في الوقت القصير وفي الليلة الواحدة تبدل احمرار الشفق بسواد الليل، ثم يشرق في ذلك السواد بياض القمر، فكذلك أحوالكم ستتبدل من حال إلى حال»، والله أعلم، فمن كان في شدة أو مرض أو ضيق فلا ييأس من رحمة الله، فإن الله سيغير حاله بإذن الله إلى العافية والخير، ومن كان في سعة مال وأمن ورغد عيش فلا يأمن من مكره جَلَّوَعَلَا فيترك شكر النعم، فالله قادر على أن يغير ذلك عليه، فليقبل على الطاعة والشكر وقد قال الله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

ومما تُرشد إليه الآيات أيضًا –والله أعلم– أن أحوال بني آدم ستتبدل؛ ويجب أن يستقر ذلك يقينًا في قلب المؤمن فيعمل في دنياه لآخرته، فمن الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى المحشر، ومن المحشر إلى الخلود في جنة أو نار، أسأل الله أن يصرف عنا وإياكم ومن نحب عذاب النار، وأن يدخلنا الجنة مع الأبرار، إنه عزيز كريم رحيم غفار.

ختامًا: السعيد والموفق أيها الأحبة، من أخذ من شبابه لهرمه، ومن دنياه لآخرته، ومن سابق إلى الطاعات وارتقى مع مر السنين بالتقوى إلى رب الأرض والسماوات، فكلما زاد عمره، زاد ارتفاعه وقربه.

وقد قيل:

إذا لم يكــن مَــرُّ الســنين مُترجمًا عن الفضل في الإنسان سميته طفلا

ومــا تنفع الأيــام حــين يعُدُّها ولم يســتفد فيهنّ علمًا ولا فضلا

اللهم بارك لنا في أعمارنا وأوقاتنا وسني حياتنا، وأعنا على طاعتك، وشرفنا بذكرك وحسن عبادتك، إنك سبحانك بكل جميل كفيل، وأنت حسبنا ونعم الوكيل.

القلادة الحادية والأربعون

الوقفة الأولى: (التفكر في الإبل والسماء والجبال والأرض)

الحمد لله الذي نصب من كل كائن على وحدانيته برهانًا، وتصرّف في خلقه كما شاء عزًّا وسلطانًا، اختار المتقين فوهب لهم بنعمته أمنًا وإيمانًا، وعمّ المذنبين التائبين برحمته عفوًا وصفحًا وغفرانًا، فستر عوراتهم وآمن روعاتهم، ولم يقطع أرزاقهم جُودًا وامتنانًا، والصلاة والسلام على من أرسله ربنا رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها الكرام، قال الله جَلَّجَلَالُهُ في سورة الغاشية آمرًا عباده بالنظر والتفكر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]، بدأ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذكر الإبل، وهي خلق عجيب وتركيب غريب، فهي في غاية القوة والشدة، ومع ذلك تنقاد للقائد الضعيف، وتلين للحِمل الثقيل، وتُؤكل ويُنتفع بوبرها ويُشرب لبنها. وكان شُريح القاضي يقول: «اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت!».

وقال ابن كثير: «ونُبّهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل، فنُبّه البَدَوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه والسماء التي فوق رأسه،

والجبل الذي هو اتجاهه والأرض التي تحته على قدرة الله جَلَّجَلَالُهُ وأنه الرب العظيم الخالق لذلك كله، والإله الذي لا يستحق العبادة سواه، والنظر -أيها الأحبة- والتفكر في تلك المخلوقات العظيمة يُورث -أولي الألباب- ثمرات جليلة من زيادة الإيمان بالله وتعظيم أمره وتصديقه وعده وخشية عقابه واليقين بلقائه، وفي قصة الأعرابي الذي أتى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وسأله مثال جميل على ذلك، ففي صحيح مسلم من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: نُهينا أن نسأل رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل العاقل من البادية ليسأل رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ونحن نسمع، فجاءه أعرابي ذات يوم، فقال الأعرابي لنبينا محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: يا محمد، لقد أتانا رسولك فزعم أن الله أرسلك، فقال المصطفى: «صدق رسولي»، فقال الأعرابي: يا محمد، من الذي رفع السماء؟ فقال المصطفى: «الله»، فقال الأعرابي: فمن الذي خلق الأرض؟ فقال المصطفى: «الله»، فقال الأعرابي: فمن الذي نصب الجبال وجعل فيها ما جعل؟ فقال المصطفى: «الله»، فقال الأعرابي: فأسألك بمن رفع السماء وخلق الأرض ونصب الجبال وجعل فيها ما جعل؛ آلله أرسلك؟ فقال: «اللهم نعم»، والشاهد أن الأعرابي -وقد ورد أنه ضِمام بن ثعلبة- سأل عن المخلوقات العظيمة التي يراها يوميًّا في البادية، فحين علم أنها من خلق الله جل في عُلاه، أسلم وأذعن لخالقها، والتزم بأداء أركان الإسلام الخمسة بعد أن سأل عنها بعد ذلك وعرفها، وقال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن، فقال نبينا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لئن صدق ليدخلن الجنة».

وقد أجاد الأدباء -أيها الكرام- في وصف ما يرونه من جَمالٍ حولهم مما خلق الله في الحقول والسهول والرياض، فقال أحدهم في (وصف روضة غناء): «روضة قد راضتها أكفّ المطر، ودبّجتها أيدي الندى فوق الزهر، زاهية بورودها وألوانها، تائهة بأغصانها وغدرانها».

وقال آخر في (وصف سحابة): «سحابة يضحك من بكائها الروض، وتخضر من سوادها الأرض».

وقال آخر: «ديمة رَوّت أديم الثرى، ونبّهت عيون النَّورِ من الكرى».

وأبدع شاعر فقال:

إن السماء إذا لم تبك مقلتها ... لم تضحك الأرض عن شيءٍ من الزهر

وهذا غيره يقول:

لِمَ لا أهيم على الرياض وطيبها ... وأظل منها تحت ظِلٍ ضاف
والزهر يضحك لي بثغر باسم ... والنهر يلقاني بقلب صافِ

ختامًا أيها الكرام: نسأل الله أن يجعلنا من أولي الألباب الذين أثنى الله عليهم في كتابه، نوّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذكرهم، ورفع من شأنهم، ووصفهم بأنهم يتفكرون في تلك المخلوقات العظيمة حولهم من السماء والأرض والجبال وغيرها، فيستدلون بذلك كله على عظمة خالقهم وشمول رحمته وسعة علمه وعظيم قوته وقدرته؛ فيزدادون بذلك إيمانًا به وحبًّا له وخشية منه وطاعة لأمره ونهيه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

* * *

الوقفة الثانية: (فضل المعوذتين وقل هو الله أحد)

الحمد لله الذي نوّر بكتابه القلوب، وأنزله في أوجز لفظ وأعجز أسلوب، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، نبينا الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد: فللمعوذتين -أيها الكرام- و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ

﴿أَحَدٌ﴾. فضائل جمّة بينتها السنة عن النبي ﷺ، من علم بها وتيقن منها حافظ على هذه السور العظيمة ولازم تلاوتها حُبًّا لله والتجاءً واعتصامًا به ﷻ، واقتداءً أيضًا برسول الله ﷺ، فـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها صفة الرحمن وكفى بذلك فضلًا وشرفًا، والمعوذتان فيهما الاعتراف بالضعف والبراءة من الحول والقوة واللجوء إلى الله والاستعاذة به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الشرور الخارجية والداخلية، فمن الشرور الخارجية في سورة الفلق -كشرور الخلق والسحر والحسد-، ومن الشرور الداخلية في سورة الناس وأعظمها وساوس الشياطين؛ لذلك حرص النبي ﷺ حرصًا شديدًا على المداومة على هذه السور، وفيما يلي بعض فضائل تلك السور الجليلة ونماذج من حرصه ﷺ ليتم الاقتداء به بإذن الله:

روى النَّسائي عن ابن عابس الجهني أن النبي ﷺ قال له: «يا ابن عابس ألا أدلك -أو ألا أخبرك- بأفضل ما تعوذ به المتعوذون؟» قال: «بلى يا رسول الله» قال: «﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، هاتان السورتان».

قد روى البخاري وغيره عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه المعوذتين وينفث، فلما اشتد عليه وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات، وأمسح بيده عليه، رجاء بركتها».

وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجن وأعين الإنس، فلمّا نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما. رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وقد ورد أيضًا عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، وقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ

بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ١]، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات». أخرجه البخاري في صحيحه. فما عذر المؤمن -أيها الكرام- في تركهما وعدم المحافظة على قراءتهما، وقد سمع ما سمع من حرص النبي ﷺ وهو المعصوم.

هذا في فضل المعوذتين، أما فضل سورة الإخلاص، فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ بعث رجلًا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟»، فسألوه فقال: «لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها»، فقال النبي ﷺ: «أخبروه أن الله تبارك وتعالى يحبه».

وفي قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ [الإخلاص: ١-٢]، قال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى ﴿ٱلصَّمَدُ﴾: «يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم»، وفي قول آخر أيضًا لابن عباس: «هو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته». أخرج القولين الطبري في تفسيره.

وسورة الإخلاص فيها إعلان التوحيد لله جل وعلا وإفراده بالعبادة، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، ففيها رد عظيم على كل الطوائف التي أشركت بالله جل وعلا، وعلى رأس تلك الطوائف النصارى الذين زعموا أن المسيح ابن الله، واليهود الذين زعموا أن عزيرًا ابن الله، تبارك وتعالى الله عمّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا، جاء في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويعافيهم». وروى البخاري أيضًا أنه ﷺ قال في الحديث

الذي يرويه عن ربه: «قال الله عَزَّوَجَلَّ: كذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفوًا أحد». فلا إله إلا الله، ولأن هذه السورة تدعو إلى أمر عظيم، وهو «التوحيد» كان ثوابها عظيمًا، عن أبي سعيد أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالُّها، فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن». رواه البخاري في صحيحه. وفي حديث آخر عند البخاري أيضًا أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟» فشق ذلك عليهم وقالوا: «أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟» فقال: «الله الواحد الصمد ثلث القرآن».

فنسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفقنا لأن نحافظ على قراءة هذه السور الجليلة صباح مساء، وأن نعمل بموجبها، وأن نعلمها أهلينا وأبناءنا ومن نحب، كما نسأله جَلَّوَعَلَا أن يشرفنا بالاقتداء بنبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأن يحيينا على سنته، وأن يتوفانا على ملته، وأن يحشرنا في زمرته، إنه ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله على نبينا محمد.

تم والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.